الصاوى محمد الصاوى

قطز

قاهر التتار



مكتبة النافذة

قطز

تأليف :الصاوى محمد الصاوى



الناشر

مكتبة النافذة

قطز

الصاوى محمد الصاوى

الطبعة الأولى :2012

رقم الإيداع : 2287 / 2012

الترقيم الدولى :8-307 -436-977-978

الطباعة :

مطبعة طيبة

الناشر

مكتبة النافذة

3 شارع المستشار حسن دياب برج مكة

المنشية -ميدان الساعة

-الطالبية -فيصل -الجيزة

تليفون :37241803 -فاكس 37241565

محمول :01223595973 -01007265885

Email:alnafezah @hotmail.com

إهداء

إلى عُشّاق التاريخ، وإلى من أرّختُ لهم

إلى كل من نَهلتُ من عِلمهِ، أو استفدت من تجاربه.

إلى كل من نظر في أحدِ كتاباتي،

من أهل المغرب والمشرق، فشكر جهدي، وتحاشى مَذمتي.

إلى كل من شَجَّعني وآزَرَني،

وكل من ساهم في إخراج هذه الكتب إلى النور.

وإلى روح والديَّ،

وإلى أبنائي وزوجتي، وأحفادي.

وإلى أنصار الحق والعدل في المشرق والمغرب جميعاً

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلي اللهم على سيدنا محمد وآله والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فهذا هو الكتاب الثالث لي عن إمبراطوريات المغول، أختص به دولة التتار، التي أسسها جنكيزخان.

ولكن لكي نتكلم عن التتار، لابد في البداية أن نتكلم عن الدول الإسلامية المجاورة لتلك البقعة، التي انبعثت منه هذه الفئة من البشر التي علت في الأرض، فهاجت وماجت، واكتسحت أمامها القوي والضعيف من بلاد العلم الإسلامي وغيره، حتى وصلت أسيا الصُّغرى، وحاربت بايازيد الأول أحد أهم ملوك العثمانيين، فأسرته واحتلت بلاده، ولو أرادوا لأخذوا أوربا بأثرها، ولغيروا تاريخ وخريطة العالم بأثره.

لقد ظهرت تلك الدولة الغريبة الأطوار، في زمان هو بالضبط زمانها، ففي وقت الضعف تطفوا الشوائب، وتتأسد الحشرات، وتسود الفئات الخاملة، والتي لم يكن لها من قبلُ من الأمر شيئاً، فتصول وتجول ثم تأتي الصحوة، وينتبه الغافلون، فتهدأ تلك الفورة، وتَرجع الأمور إلى نِصابها.

فبينما كانت الدولة الإسلامية في أشد أوقات تشرذمها، واقتتال أهلها مع بعضهم البعض، طمعاً في الحكم، وغفلة عن الدين، ظهر أمر تلك الشعوب المغولية، فانتشرت وتطورت وأرعدت وسادت في زمنٍ قياسي، ليس بالقصير، ولكنه بالنسبة لم تحقق من سيطرتها وتملكها لتلك المساحا الشاسعة من العالم، وما وقع منها من تخريب ودمار، يعد في عمر الزمان قصير.

وكما تخالفت الأسباب لظهورهم، فقد جاء نفاد أمرهم، وذهاب أسطورتهم

على يد مملوك من مصر، أخلص النية هو ورجاله لله، فكانوا سبباً في عتق العالم من هذا التوسونامي البشري المُخرب، لقد توقف زحف المغول، وذَهب الروع عن العالم بتوفيق الله لهذه الفئة الصادقة، التي تكاتفت من أجل الذب عن دينها وعِرضها وأهلها، فكسروا تلك الشوكة الحادة التي كسحت أمامها الأخضر واليابس، وما راعت حُرمة ولا دين، وما تَركت صغيراً ولا كبيراً، ولا رجل ولا امرأة ولا طفل، لقد وصفها الكتاب والمؤرخون بكل نقيصة، وهي أهلاً لذلك، وكان الزمان يَسمح بذلك، وكانت الظروف كلها مواتية لأفعالهم ففعلوه ولم يتوانوا.

لقد كانت الهجمة التتارية على العالم الإسلامي خاصة، ابتلاء من الله على تفرُّقهم وشرذمتهم وقَتل بعضهم بعضاً، وسعي كل واحدٍ من الأمراء لاستفراغ ما في إناء أخيه، ولو بسفك دمه، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، فكان الواحد منهم يُسلم نفسه ويستسلم دون مقاومة، أو طمعاً في رشوة قائد هؤلاء الغُزاة، الذين لم يكن لهم بقاء على من استسلم أو قاوم، لقد أتوا على الصغير قبل الكبير، وعلى النساء قبل الرجل، وهدموا البيوت وقَطعوا الأشجار والزُّروع، لقد أرادوها بقدر الله خراباً وعِبرة، والحكمة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولولا أن قيض الله لهذه الأمة، هذا القائد المخلص، وهذا المحارب الجسور، وألهمه الفكر السليم، وأطوع له قلوب الناس، لبادت بقية دول الإسلام، في إفريقيا كما تم على بلاد أسيا، ولكن الله سلم، وكانت نهاية المد المغولي على يد قطز ورجاله المخلصون.

فهل ننتبه، وهل يَعرف الناس طريق الصواب فيسلكوه؟

الصاوي محمـــد الصاوي

كفر صقر – الشرقية

السبت ٢٧ رمضان ١٤٣٢هـ ٢٧/٨/ ٢٠١١م

مقدمة وتمهيد

إذا كنا في هذا الكتاب بصدد الكلام عن السلطان قطز، هذا الرجل الذي قهر التتار وأوقف تقدمهم في بلاد المسلمين بإفريقية، بل وأخرجهم من بلاد الشام،فهذا سَيَجرُّنا بالطبع للكلام عن المماليك وتاريخهم بصورة مختصرة، بُناء على أننا سنفصل هذا داخل الكتاب، أما كلامنا عن المماليك فأساسه أن هذا السلطان الذي يُعد محور هذا الكتاب، هو مملوك أيوبي، وبُناء عليه فيجب الحديث عن المماليك، وعن الدولة الأيوبية والأيوبيين، ثم سينتقل بنا الحدث بطبيعة الحال إلى ذكر أحوال وأيام قطز وحياته وجهاده وموته.

ولكن قبل أن نتكلم عن المماليك، نأخذ فكرة مختصرة عن هذا العدو، الذي حارب العالم، واكتسح البلاد، وأفنى العباد، ثم كان كسر شوكته، وتفف تقدمه، على يد بطل الكتاب، السلطان قطز، وبالطبع فالمقصود هم التتار، ولكن سنذكر قبل الكلام عنهم نبذة عن حال العالم الإسلامي منذ بدايات القرن السابع الهجري.

فقد كان العالم الإسلامي في نهاية القرن السادس الهجري، وأول القرن السابع، وهي نفس الفترة التي بدأ فيها ظهور المغول، كان منقسماً إلى مجموعة من الدول، والممالك والدويلات الصغيرة، بعضها قوي وبعضها ضعيف، سواء من الناحية العسكرية أو الاقتصادية، كما أن هذه الممالك والدويلات لا تتوق عن التنازع مع بعضها البعض، من أجل السيطرة أو التوسع على حساب الأخرى.

ولولا ضعف الدولة العباسية، ما صار العالم الإسلامي إلى هذا الوضع من الضعف، فقد كان خلفاء الدولة العباسية في أوّل أمرهم، منذ عهد أبي العباس

السفاح - (١٠٤ - ١٣٦ هـ = ٧٢٢ - ٧٥٤ م).إلى أيام هارون الرشيد - (١٤٩ - ١٩٣ هـ = ٧٦٦ - ٨٠٩ م). يستبدون بأمروهم. فلما صارت الخلافة إلى هارون ألقى مقاليد الأمور إلى يحيى بن جعفر البرمكيّ - (١٢٠ - ١٩٠ هـ = ٧٣٨ - ٨٠٥ م). فكان بداية سيطرة الوزراء على الخلفاء. فصار يحيى يُوقع على رقاع الرافعين بخطه في الولايات. وإزالة الظلامات وإطلاق الأرزاق والعطيات. فجلّت لذلك رتبته. وعظمت في الدولة مكانته. وكان هو أوّل من وقّع من وزراء خلفاء بني العباس. وصار من بعده من الوزراء يُوقّعون على القصص كما كان يُوقع. وربما انفرد رجلٌ بديوان السرّ وديوان الترسل. ثم أفردت في أخريات دولة بني العباس. واستقلّ بها كتاب لم يَبلغوا مَبلغ الوزراء. وكانوا ببغداد يُقال لهم كتاب الإنشاء. وكبيرهم يُدعى رئيس ديوان الإنشاء. ويُطلق عليه تارة صاحب ديوان الإنشاء. وتارة كاتب السرّ. ومَرجع هذا الديوان إلى الوزير. وكان يُقال له الديوان العزيز. وهو الذي يُخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء.

ثم إن الخلافة العباسية قد أخذت في الضعف مبكراً. وتناهت في الضعف أيام الراضي بالله بن المقتدر - (٩٣٤/ ٩٤٠م- ٣٢٢/ ٣٢٩هـ). وتغلب عُمال الأطراف عليها. ولم تعد الخلافة غير اسم فقط.

وكانت الدولة الخوارزمية هي المجاورة لتلك المنطقة التي خَرج منها الطوفان المغولي المدمر. ولأن الدولة الخوارزمية هي الأحسن شأناً والأقوى بين دول العالم الإسلامي في هذا الوقت. حتى من دولة الخلافة التي لم يعد منها غير الاسم فقط. لذلك كان الأملُ فيها أن تصد الهجوم المغولي.

أما عن المغول. فهم عدة قبائل بدوية رعوية. كان يُشار إليهم غالباً باسم التتار أو التّتر. وهو اسم كان يُطلق على إحدى مجموعاتهم وهي قبيلة التتر. وكانت القبائل المغولية في مستهل القرن السابع الهجري. الثالث عشر الميلادي. تَعيش في هضبة منغوليا الواقعة شمال صحراء جوبي في أواسط آسيا. بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال خنجان (Khingan). على حدود منشوريا في الشرق.

وقد استطاعوا أن يؤسسوا لهم أكبر إمبراطورية عالمية عرفها تاريخ البشرية في قصر مدة، حيث تكونت إمبراطوريتهم الواسعة الأرجاء، والمترامية الأطراف في خلال ثلاثة عقود الأخرى من الجزر اليابانية والمحيط الهادي شرقاً إلى قلب القارة الأوربية غرباً، ومن سيبريا وبحر البلطيق شمالاً، إلى الحدود الشمالية للجزيرة العربية وبلاد الشام وفلسطين جنوباً.

وكانت هذه القبائل تَعيش على الصيد والقَنص، ويتغذون باللحم ولبن الخيل.

كان المجتمع المغولي يتكون من: ١ ـ قبيلة القيات الصغيرة، ٢ ـ قبيلة الأويرات، ٣ ـ قبيلة النايمان، ٤ ـ قبيلة الكرايت (Kerait)، ٥ ـ قبائل المركيت (Markit)، ٦ ـ قبائل التتار.

وكان التتار في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، قسمين: الأول: تسع قبائل، والثاني: ثلاثين قبيلة، وكانوا يَسكنون جنوب غربي بحيرة بايكال، وحتى نهر كيرولين، وهم ثلاث أقسام:

١ - التتار البيض: وهم الذين ينزلون خارج سور الصين.

٢ – التتار السود: وكانوا ينزلون شمال صحراء جوبي، وكانوا بدواً رحلاً.

٣ - تتار الغابة: وكانوا يعيشون حول الروافد العليا لنهري أونون، وكيرولين، ومارسوا حياة الصيد.

وكانت قبائل التتار في صراع دائم وشديد مع قبائل المغول، وكانت مراعي المغول تمتد صيفاً حتى أقاصي سيبريا، وقد كان كلاً من الشعبين التتري والمغولي، وهما أبناء عمومة مع التُرك، يعيشان على الرعي، إلا أنه كان للتتار حضارة بدائية، نتيجة احتكاكهم بالصينيين، بل إن آخر الأسر الحاكمة لشمال الصين قبل سقوطها في أيد جنكيزخان كانت تَرجع أصولها إلى التتار!!

ومن المعلوم أن المغول في بدء هجومهم على العالم الإسلامي كانوا يُعرفون بالتتار، كما أُطلق عليهم اسم: المغول، ومُغل، واشتهروا في التاريخ بهذه الأسماء.

وعلى الرغم من أن القبائل المغولية كانت تَسكن بعض السهول الخصبة أحياناً، إلا أنهم لم يُحاولوا زراعتها، بل كانوا يُهاجرون في فصل الصيف من السهول إلى الجبال، فإذا انعدم فيها العشب رحلوا عنها، حيث يتعذر عليهم البقاء مع قُطعانهم بها.

وإذا احتبست الأمطار أو تَعرضت المراعي للآفات وقِلة الأعشاب تبعاً لذلك، وجد الراعي نفسه أمام خطر فقدان ماشيته، وهي مصدر رزقه، ثم التعرض للمجاعة وهذا بدوره يَدفعه إلى السرقة، والنهب والسلب ممن يجاورونه من السكان الذين يشتغلون في الزراعة، ومن هنا تقوم الحروب والغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر.

وأما عن جنكزخان المغولي، مؤسس دولة المغول، فهو من قوم صُفر الوجوه، بشعور سوداء كالحة، سبط غير مُجعَّدة، وأنف أفطس، وعيون منحرفة، يشوب سمارها زُرقة، وبشرة يغلب عليها الصُّفرة، ومنهم الأسمر والبرنزي والنحاسي. بن بيسوكي بن بهادر بن تومان بن برتيل خان بن تومنيه بن بادسنقر بن تيدوان ديوم بن بغا بن بودنجه، وقيل: بقابن مودنجه، بن ألان قوا، وألان قوا هذه امرأة من قبيلة من التتر تُسمى قيات، من أعظم قبائلهم شهرة، كانت متزوجة بزوجٍ أَوْلَدها ولَدَين، اسم أحدهما بكتوت والآخر بلكتوت، ومن عقبهما الطائفة المعروفة في قبائل التتر بالدلوكة، ثم مات زوج ألان قوا أبو هذين الاثنين، وبقيت ألان قوا أيِّما، فحملت فأُنكر عليها الحمل، وحُملت إلى ولي أمرهم، حينئذ فسألها ممن حملت، فقالت إني كنت جالسة وفرجي مكشوف، فنزل نور ودخل في فرجي ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل، وأنا حامل بثلاثة ذكور كل مرة من دخول ذلك النور بذكر، فأمْهلوني حتى أضع، فإن وضعت ثلاثة ذكور فاعلموا صدقي، وإلا فدونكم وما ترون.

فأتت بثلاثة ذكور فسَمت أحدهم برقد، والآخر قونا، والثالث نجعو، وهو جد جنكز خان، وأولاد هذه الثلاثة يُعرفون بين التتر بالنورانيين.

ولد جنكيز خان (تيموجين) على نهر "أوتون" سنة ١١٦٥م، وفقاً لروايات كثير من

المؤرخين. وقيل بل ولد. وقد كان الابن البكر ليسوگيه Yesügei شيخ قبيلة كياد Kiyad و تكتب مفردا ب كيان Kiyan. وتسمى عائلة يسوگيه Yesügei بـ بورجيگن Borjigin ومفردها هو بورجيگيد Borjigid. وكان أبوه يسوكاي غائباً وقت ولادته. ولم يَلبث الأب يسوكاي أن مات أثناء عودته إلى دياره. فساءت أحوال أرملة يسوكاي وأطفاله بعد وفاته. مع كل ما أصاب هذه الأسرة من عنت من قومهم. إلا أنهم احتفظوا. بما اشتهرت به قبيلتهم من الحماس والنشاط والصبر على تحمل المتاعب. فاجتهد الصبيان في صيد ما يلزم لإعاشتهم من نهر أنون. وحرصت الأم يولون على أن تتوطد المودة بين أفراد الأسرة.

أخذت أحوال تيموجين تستقر. وذاع سيطه. وسعت القبائل المختلفة لكسب صداقته. فكان من الذين انحازوا إليه. أربعة أمراء من المغول. تجري في عروقهم الدم الملكي. فاجتمع الأمراء الأربعة وتشاوروا فيما بينهم. واستقر أمرهم باعتبارهم يمثلون أقدم الأسرات الملكية. وأعرقهم نسباً. على أن يختاروا تيموجين خاناً على المغول. وبالفعل أختير تيموجين خانا وأطلقوا عليه اسم جنكيز خان.

حَرِص جنكيز خان على أن يوزع الوظائف الأساسية الحربية والمدنية بين أنصاره الموالين له. فجَعل من أقرب الناس إليه. وأشهرهم في الرماية حرساً خاصاً له. وخَصَّ آخرين بأمر توفير المؤن والسقاية وإعداد العَربات. والتماس المراعي. والإشراف على الخُدام. ورياضة الخيل. ونقل الأوامر الملكية. والمحافظة على النظام عند انعقاد مجلس أعيان القبيلة (قوريلتاي). وقام جنكيز خان بإرسال الرُّسل إلى رؤساء القبائل القوية المجاورة. يُخبرهم بأنه قد نُصِّب أميراً على القبائل التي قِبلت به. وفي مرحلة ما بعد التنصيب. خاض جنكيز خان معارك كثيرة. أكدت أهليته لقيادة الشعوب المغولية.

وفي شهر رجب عام ٦٠٢هـ/ فبراير ــ مارس. سنة ١٢٠٦م. عقد جنكيز خان مجلساً عاماً وعمومياً. حيث تم تنصيبه كخانٍ أعظم على جميع ساكني الخيام في

منغوليا، ولم تقتصر جهود جنكيز خان على توحيد القبائل المغولية، بل كانت خطوة التوحيد نقطة انطلاق لبناء إمبراطورية تشمل معظم أنحاء العالم المعروف آنذاك. وقد قام جنكيز خان بثلاث غزوات ضد مملكة التانغوت، في السنوات: ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، ٦٠٤هـ /١٢٠٧م، ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، فاكتسح جميع أراضيها، ولكنه لم يُفلح في دخول عاصمتها ننج - هسيا.

في عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م، بدأ الغزو المغولي شرق الدولة الإسلامية، فقد وصل جغتاي، ابن جنكيزخان، إلى حافة نهر سيحون على مقرُبة من مدينة أترار، على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف من خيرة جنده، وكانت غاية الجيش في المرحلة الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، المحصورة بين نهر سيحون في الشرق، وجيحون في الغرب.

وكان علاء الدين خوارزم شاه قد قسم جيشه في البلاد، منذ عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥-١٢١٦م، فتَرك ينال خان بِأترار: في عشرين ألف فارس، وقتلغ خان في جماعة أخرى: في عشرة آلاف فارس بشهر كنت، إحدى مدن أطراف تركستان، والأمير اختيار الدين كشكي أمير آخور، - وأمير الأخوار أي أمير العلف، أي أمير اسطبلات السلطان- واغل حاجب الملقب باينانج خان: في ثلاثين ألف فارس ببخارى، وطغاخان خاله وأمراء الغور، مثل جر ميخ، وحرور، وابن عز الدين كت، وحسام الدين مسعود، وغيرهم: في أربعين ألف فارس، وقيل خمسين ألفاً، بسمرقند، وفخر الدين حبش المعروف بعنان النسوي وعسكر سجستان بترمذ، وبلخمورخان: بوخش إحدى مدن نواحي بلخ، وأبا محمد خال أبيه ببلخ، وأسرك بهلوان: بخندروذ، إحدى مدن فارس، وعلجق ملك: بجيلان، وهي مجموعة بلدان وراء طبرستان، والبرطاسي بقندز، ولم يترك بلداً مما وراء النهر خالياً من عسكرٍ كبيرٍ، فكان ذلك من أعظم الأسباب التي استولى بها جنكزخان على البلاد الإسلامية، ولو جمع عساكره ولقي التتار لهزمهم.

ولقد قسَّم جنكيز خان جيوشه إلى أربعة أقسام، جَعل على رأس كل جيش منها أحد بنيه، فقد أراد أن يُهاجم أكبر عدد من المدن الإسلامية في وقتٍ واحد، فلا

يترك إليهم فرصة للتوحد ضده.

وبالفعل تحركت الجيوش الجنكزخانية نحو بلاد خوارزم شاه. في عام ٦١٥هـ/١٢١٨م. وكان هذا التحرك حسب خطة مرسومة مُحكمة. ونظام حربي وضَعهُ جنكيز خان صوب عينيه. وبعد أن استولى على مابين نهري سيحون وجيحون. قصد بلاد خوارزم شاه بِعِدة جيوش.

فملكوا: بلاد مازندران. وفتحوا المدن الواقعة على نهر سيحون. وسُرعان ما وصلوا إلى مشارف سقناق. على مسافة أربع وعشرين فرسخاً من أترار. ومدينة سقناق. ومدينة بِنكت. وخُجندة. ومدينة بخارى إحدى مدن جمهورية أوزبكستان. بعد أن حاصرها ثلاثة أيام. وفتحت المدينة أبوابها رابع ذي الحجة سنه ٦١٦هـ/١٢١٩م. بعد أن دمر التتار مدينة بُخارى العظيمة. وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومساجدها ومدارسها انتقلوا إلى سمرقند. وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية. واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين من مدينة بخارى. فساروا بهم على أقبح صورة. فكل من أعيى وعجز عن المشي قُتل.

وبعد أن دمر التتار مدينة بُخارى العظيمة. وأهلكوا أهلها ومساجدها ومدارسها. انتقلوا إلى سمرقند. وهي أيضاً في دولة أوزبكستان الحالية. واصطحبوا في طريقهم مجموعة كبيرة من أسرى المسلمين من مدينة بخارى. فساروا بهم على أقبح صورة. فكل من أعيى وعجز عن المشي قُتل. وألحق جنكيز خان كل المهرة من الصناع وأصحاب الحرف ببلاده.

وهرب علاء الدين خوارزم شاه. ولم يثبت لحرب بعدها. من حافة جيحون إلى نيسابور. إحدى مدن خُراسان. وتسلل عنه الناس فلم يُقم بنيسابور إلا ساعة من نهار. وغادر نيسابور وأخذ طريقه نحو شطر العراق العجمي.

وفي شهر ربيع الأول من سنة ٦١٧هـ/ مارس ١٢٢٠م. عَبرت الجيوش المغولية كلها نهر جيحون دَفعة واحدة. وكانوا لا يتعرضون في مسيرهم لشيء لا بنهب ولا قتل.

كما أمرهم جنكيز خان، بل جدوا في السير طلبا لخوارزم شاه علاء الدين، فلا يُمهلونه حتى يَجمع لهم رجاله، فلما سَمع بقربهم منه رَحل منها إلى الاستنداد، وهي أمنع ناحية في مازندران، ذات دربندات ومضايق، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وأيسوا من اللحاق به، رجعوا فقصدوا الري وما بعدها.

وهرب السلطان علاء الدين خوارزم شاه وركب المركب وساق به أصحابه، وكان به علة ذات الجنب، فكان ذلك مما آيسه من الحياة، وهو يُظهر الاكتئاب، ويقول: سبحان اللّه مالك الملوك، لم يبق لنا من مملكتنا مع سعتها قدر ذراعين نُدفن فيهما، فاعتبروا يا أولي الأبصار. فلما وصل الجزيرة سُر بذلك كثيراً، وكأنه كان لا يُصدق أن يصل إلى البر، فأقام بها فريداً طريداً والمرض يزداد به.

فكانت وفاته، في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وغَسَّله شمس الدين محمود بن يلاغ الجاوش، ومقرب الدين مهتر مهتران مقدم الفراشين، ولم يكن عنده ما يكفن فيه فكفنه شمس الدين محمود المذكور بقميصه، ودُفن بالجزيرة، فكانت مدة سلطنته إحدى وعشرين سنة.

ووصلت القوات المغولية إلى الري، على حين غفلة من أهلها، فدخل بخيانة بعض رجاله، فكان لسقوط هذه المدينة من الأثر النفس السلبي ما لا يُقدر على المسلمين عامة، وعلى الخوارزميين خاصة، فلما قاربوا همذان خَرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك، يَطلب الأمان لأهل البلد، فأمنوهم، ثم فارقوها، ومرو بزنجان فاكتسحوها، ثم اتجهوا إلى مدينة قزوين فتصدى لهم أهلها، ثم صالحوهم، ثم اتجهوا إلى إقليم أذربيجان، وقبل أن يصلوا إلى مروا عاصمة الإقليم، مروا بمدينة سنجار فنهبوها، ثم ساروا إلى قوس، ووصلوا إلى مدينة تبريز عاصمة أزربيجان، صالحهم أوزبك بن البهلوان، واستولوا على حصون جورجيا وخرَّبوها، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م.

وفي صفر سنة ٦١٨هـ ملك التتر مدينة مراغة، ثم رحلوا عنها نحو مدينة إربل،

ووصل الخبر بذلك إلى الموصل. وانزعج الخليفة العباسي الناصر أخيراً. فأرسل إلى كل من مظفر الدين كوكبري صاحب إربل. وبدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل. والملك الأشرف موسى. (٥٧٨ - ٦٣٥ هـ = ١١٨٢ - ١٢٣٧ م). أحد ملوك الدولة الأيوبية بمصر والشام. يَأمره بالحضور ليجتمع الجميع على قصد التتر وقِتالهم. فتجمعوا. ولما لم يروا العدو يقصدهم. ولا المدد يأتيهم. تَفرقوا. وعادوا إلى بلادهم. سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م.

وفي رجب من سنة ٦١٨هـ. دَخل التتار إلى همذان المدينة بالسيف.ولما فرغوا منها ساروا إلى أذربيجان. فوصلوا إلى أردويل فملكوها. وساروا إلى مدينة كنجة. ثم ساروا إلى بلاد الكرج. وهي تقع في شمالي أرمينية. على البحر الأسود. وكانت تدعى (كرجستان). ولما عادوا منها. قَصدوا دربند شروان. فحصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها. وقَتلوا فيهم فأكثروا. ونهبوا الأموال فاحتازوها.

وسار التتر إلى بلاد قفجاق فأقاموا فيها. وهي أرض كثيرة المراعي في الشتاء والصيف. وسارت طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس. سنة ٦٢٠هـ. وقَصدوا بلغار في أواخر سنة ٦٢٠هـ.

وكان جنكزخان لما بَلغه عود أولاد السلطان إلى خوارزم وجَّه إليها عسكراً كثيفاً. وكان جلال الدين منكبرتي خوارزم شاه. مَلك بعد وفاة أبيه في سنة ٦١٧هـ. وعَبر أولاد السلطان علاء الدين خوارزم الثلاثة جلال الدين منكبرتي. وأزلاغ شاه. وأق شاه. عبروا البحر إلى إقليم خوارزم. ومعهم زهاء سبعين نفساً لقصد خوارزم. فلم عَلم جلال الدين منكبرتي بقدوم التتار.ترك خوارزم. وحاصر جنكيز خان أبناء علاء الدين أزلاغ شاه. وآق شاه ومن معهما. ثم وقعا في الأسر. فقطعوا رأسيهما ورشقوهما في سهمين.

وأقام السلطان جلال الدين بنيسابور شهراً. بعد خروجه من خوارزم. فأسرع المغول نحوه وأعجلوه عن مُراده. فخَرج من نيسابور. فوصل إلى القلعة القاهرة.

وفَارَق القلعة القاهرة، وجَدَّ السير إلى تخوم بست فأعلم أن جنكزخان مقيمٌ بالطالقان بجيوش عظيمة، واتفق على كبس التتار المُحاصرين لقلعة قندهار، فنَهض إليهم وأوقع بهم، فلم يَسلم من التتار إلا من وصل بخبرهم إلى جنكزخان وهم نفرٌ يسير، عادوا إليه وهو بالطالقان.

وساق جلال الدين منكبرتي حتى أتى غزنة، فوصلها في سنة ٦١٨هـ، واتصل به: سيف الدين بغراق الخلجي، وأعظم ملك صاحب بلخ، ومظفر ملك صاحب الأيغانية، والحسن قزلق، وهم في زهاء ثلاثين ألف فارس ومعه عسكرهم وعسكر أمين ملك مثلها، فاجتمع عنده من الجيوش نحوا من ستين ألفاً، فجرَّد إليهم جنكيز خان ابنه تولي خان في عسكر كثيف، قوامه نحو اثني عشر ألفاً، فلما وصلوا إلى أعمال غزنة، استقبله جلال الدين بنية في الجهاد قوية، فانتصر المسلمون وانهزم التتار ثانياً، وقُتل تولى خان فيمن قُتل، وكثُر الأسر في التتار، وعاد من سلم منهم إلى ملكهم بالطالقان.

وقام جنكيز خان مغموماً مكبوتاً لموت ابنه، وفناء جنوده بصورة لعلَّها الأولى منذ بدأوا حروبهم، فقام بنفسه وعساكره لقصد حرب جلال الدين، واتفق أن العساكر الخلجية الذين حارب مع جلال الدين ضد تولي خان، فارقوه في ذلك الوقت، زرماً وضيق أُفق، وساروا بصُحبة سيف الدين بغراق، فسار بهم إلى الهند، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق، وسار بنفسه إليه، وذَّكره الجهاد، وخوَّفه من الله تعالى، وبكى بين يديه، فلم يَرجع، وسار مُفارقاً، وازداد في عناده، ولم يَنظر هو ومن معه إلى ما يترتب على خلافهم من سوء العواقب، فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا.

ولما بَلغ جلال الدين أن جنكزخان قد قاربه بجيوشه، عَلم أنه لا طاقة له بملاقاته، بعد مُفارقة هذه الجيوش له، فرأى أن يتأخر إلى حافة ماء السند، ووصل جنكزخان إليه هناك، وبرزت له الجيوش الجنكزخانية، فلقيهم جلال الدين واقتتلوا قتالاً شديداً، فكانت هزيمة منكرة.

وكان جلال الدين لما عاد إلى حافة ماء السند كسير النفس، رأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يَصحن بأعلى أصواتهن: بالله عليك اقتلنا وخَلصنا من الأسر، فأمر بهن فغُرقن في ماء السند. وأما العساكر الخلجية المفارقة لجلال الدين، فاستنزلهم جنكزخان بعد فراغه من جلال الدين، سواء من اعتصم بالجبال أو بالحصون، وقَتلهم أجمعين.

ولما كان من الغد على عبور جلال الدين نهر السند، عاد التتار إلى غزنة، أواخر سنة ٦١٩هـ ١٢٢٢م، فقَتلوا أهلها، ونهبوا الأموال، وسبوا الحرم فألحقوهن بِخُرسان، وكان إقليم غزنة آخر أقطار شرق الدولة الإسلامية، وآخر حصون الخوارزميين التي غزاها المغول في عهد الخليفة العباسي، الناصر لدين الله - (٥٥٣ - ٦٢٢ هـ = ١١٥٨ - ١٢٢٥ م)، وأكد المغول سيطرتهم على المناطق الإسلامية الشاسعة ما بين الصين والعراق، وثبّتوا أقدامهم في كل بقاع الدولة الخوارزمية.

ولأن إقليم خوارزم هو الإقليم النواة للدولة الخوارزمية، فقد بدأ جنكيز خان على الفور، ومنذ هرب السلطان علاء الدين خوارزم شاه منه سنة ٦١٧هـ، وتبعه بالهروب ابنه جلال الدين، في نفس السنة، بدأ جنكيز خان يُعد العدة لاجتياح هذا الإقليم، ولما اطمأن المغول إلى استعداداتهم الحربية، قام ثلاثة آلاف منهم بالهجوم على المدينة، فكان النصر في هذه الهجمة حليف الخوارزميين، واستاء جنكيز خان بالطبع عندما سمع هذه الأنباء، فأرسل المدد، فأخذ المغول يطوون البلاد محلة محلة، واستمرت مقاومة الخوارزميين على هذا النحو سبعة أيام، ثم لم يُبقي على أحد من أهلها.

وفي نفس عام اجتياح خوارزم، وفي خريف عام ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م، صدرت الأوامر إلى تولوي بن جنكيز خان بالسير إلى إقليم خُراسان، وقَصدوا مدينة بلخ، فلما وصلوها طلب أهلها منهم الأمان، وعلى غير عادة التتار فقد قبلوا أن يُعطوهم الأمان، فتسلّموا البلد في محرم من سنة ٦١٧هـ، ثم قصدوا الزوزان، وميمند، وأندخوي،

وقاريات. فملكوا الجميع وجَعلوا فيه ولاة. وفي أول محرم سنة ٦١٨هـ ــ ٢٥ فبراير سنة ١٢٢١م. سار تولي في خمسمائة من الخيالة لاختيار حصون مدينة مرو. وأرسل تولوي إلى ما حوله من البلاد. وأمرهم بجمع الرجال لحصار مرو. ولم يمض أسبوع حتى تجمعت الجيوش. فحاصروا مدينة مرو وجَدوا في حصرها. ولازموا القتال.

وأخيراً استسلمت مرو. فأمر تولوي. أن يُقتل أهل البلاد أجمعون. فقتلوا الرجال والنساء والأطفال. وقالوا إن المدينة عصت علينا وقاومت. ومن قاوم فهذا مصيره. فأصبحت مدينة مرو أثراً بعد عين. وهَلك سكانها أجميعن. الذين قدرهم ابن الأثير بسبعين ألفاً.

وفي أواخر سنة ٦١٧ هـ ـ ١٢٢٠م. سار المغول إلى مدينة نسا. وبعد خمسة عشر يوماً استطاع المغول أن يُحدثوا ثغرة في حوائطها واحتلوها ليلاً. ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم كأنهم قطعان الضأن تسوقها الرعاة. والضجيج والصياح يشق جلباب السماء. ثم أمروا بأن يكتفوا بعضهم بعضاً ففعلوا ذلك خذلانا. وأمروا بربطهم الواحد بجوار الآخر. كما أمروا بربط ذراعي كل رجل وراء ظهره. ثم قَتلهم المغول جميعاً.

ثم توجه التتار إلى مدينة نيسابور. سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م. والبطبع كانت أخبار مرو قد وصلت إلى نيسابور. فدب الرعب والهلع في أوصال المسلمين. وما استطاعوا أن يقاوموا التتار. ودخل التتار المدينة. فعَرض أهلها على تولوي التسليم. وتَعهدوا بأن يؤدوا للمغول ضريبة سنوية. ولكن تولوي رفض. وفي يوم الثاني عشر من شهر صفر سنة ٦١٨هـ/٧ أبريل سنة ١٢٢١م أمر بمهاجمة مدينة نيسابور من كل مكان. وقد استمر تخريب المدينة خمسة عشر يوماً. زالت فيها معالمها. ولم يُبق المغول إلا على أربعمائة رجل من أصحاب الحرف والمهن للانتفاع بهم.

وسار الجيش المغولي بعد نيسابور. إلى مدينة هراة. إحدى مدن خراسان الهامة. وطلب أهلها التسليم على أن يُؤّمن المغول حياتهم. ووافق تولوي على هذا الطلب

مُكرهاً. وبسقوط هراة يكون إقليم خراسان قد سقط بكامله في أيدي التتار.

وفي سنة ٦٢٠هـ. توغل المغول في بلاد روسيا وحققوا انتصارات عدة. وفي أول سنة ٦٢١هـ. ووصلت طائفة أخرى من التتار من عند ملكهم جنكزخان. وكان من سلم من أهل الري قد عاد إليها فعمَّروها. فلم يَشعروا إلا والتتار وقد وصلوا إليها. فلم يمتنعوا عنهم. فوضعوا في أهلها السيف وقَتلوهم كيف شاؤوا. ونَهبوا البلد وخرَّبوه. وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك. ثم إلى قصدوا قم وقاشان. وفي أعوام. ٦٢١. ٦٢٢هـ. خفت قبضة جنكيز خان على غرب الدولة. الخوارزمية.

وفي آخر سنة ٦٢٢ هجرية توفى الخليفة الناصر لدين اللّه. وفي الرابع عشر من رجب. سنة. ٦٢٣هـ. توفي الإمام الظاهر بأمر اللّه أمير المؤمنين. وفي عام ٦٢٤. وقيل ٦٢٥هـ. توفي جنكيزخان. عن عمر يناهز اثنتين وسبعين سنة.

وكان لجنكيز خان من الأولاد تسعة عشر ولداً. من امرأة واحدة. وهي تسوجي خاتون. وقيل: يَسُوجين بَيُكي. ومنهم دوشي خان بن جنكيز خان. ومنهم تلي خان وهو طلوخان. وهو الأكبر. وهو الذي قُتل في سنة ٦١٧هـ. في الحرب التي كانت بينه وبين السلطان جلال الدين منكوبرتي. وكان جنكزخان قد جَعل وظيفة دوشي خان ترتيب الصيد. وهي عندهم أكبر المراتب.

ومنهم أوكتاي خان بن جنكيزخان.. ومنهم جغطاي بن جنكيزخان. فهؤلاء الأربعة هم المُشار إليهم من أولاد جنكيزخان.

ولقد ظل العرش المغولي خالياً من ملك. وكان جنكيزخان قد كتب وصيته قبل وفاته بحضر إخوته وبعض بنيه. وقرر معهم أن يَعملوا بها إذا دخل فصل الربيع. في سنة ٦٢٥. فيجتمع إخوته وأولاده. والخواتين والأمراء. ويُقيموا الأفراح أربعين يوماً. ويذبحون الذبائح. من حين اجتماعهم. ثم تُقرأ وصيته ويُعمل بمقتضاها. وقد رأى الأمراء الكبار. وكبار رجال العشيرة. ضرورة التعجيل بتنصيب خاناً جديداً. واستقر رأيهم على اتخاذ هذه الخطوة. فأوفدوا الرسل إلى الجهات والأطراف وصاروا يُمهدون

لعقد مجلس الشورى: القوريلتاي.

فوفد على منغوليا الأمراء وقواد الجيش، وشَرعوا بعد ذلك في تبادل وجهات النظر بخصوص اختيار الخان الجديد، فاجتمعوا على تولي أوكتاي عرش الخانية، وبعد انتهاء مراسم التتويج خَرج: أوكتاي خان، من المعسكر في معية سائر الأمراء، وجثوا أمام الشمس ثلاث مرات، ثم جَلسوا لتناول الشراب والاحتفال، وبعد انتهاء الحفل، ظل المغول يَطهون الطعام لثلاث أيام متوالية على روح جنكيز خان.

لقدكان انتخاب أوكتاي بن جنكيز خاناً أعظم للمغول، إيذاناً بإعادة الهجوم من جديدة على ممالك الدولة الخوارزمية، والقضاء عليها نهائياً.

وبينما المغول سائرون في فتوحاتهم على قدم وساق في أوربا، إذا بالأنباء ترد إلى أوربا تُعلن وفاة أوكتاي في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، وعلى أثر وفاة أوكتاي، اضطربت أحوال المغول، واختلفوا على من يخلفه على العرش، فحكم كيوك خان، بطريقة غير رسمية.

وفي عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م، انعقد القوريلتاي على ضفاف إحدى البحيرات غرب منغوليا، وتم فيه تنصيب كيوك خان خاناً أعظم للمغول، وكان كيوك خان، رجلاً مغامراً محارباً ميالاً إلى الغزو والفتح، فهو أقرب الشبه إلى جده جنكيز خان، ولم يكد يستقر في الحكم حتى لفت نظر الأمراء والنبلاء ضرورة مراعاة أحكام الياسا، وتَجنب الخروج عليها أو تحريفها أو تأويلها، وأمر بمعاقبة الذين قَصَّروا في أداء واجبهم، وظل يَحكم من سنة ٦٣٩ هجرية حتى وفاته سنة ٦٤٦ هـ.

وفي شهر ذي الحجة ٦٤٨هـ/ابريل١٢٥٠م، عُقد القوريلتاي بالفعل، وبحضره الأمراء والعظماء تم إقرار تنصيب: منكو- (٦٤٨ – ٦٥٥/ ١٢٥٠ – ١٢٥٧). خاناً أعظم للمغول بصفةٍ رسمية، في منطقة قراقورم، بصورة رسمية، ورغم أنف المعارضين، فأمر بقتل كل الذين كانوا يرغبون في إبعاده عن المنصب.

وفي السنة التالية لحكم منكوقاآن، ٦٤٩هـ، قام بتجهيز حملتين كبيرتين، نصَّب

أخاه الأصغر: هولاكو، على رأس إحداهما وكلفه بالقضاء على الإسماعيلية، وإدارة إقليم فارس، وإخضاع الخليفة العباسي، ونصَّب أخاه الأوسط: قوبيلاي، على رأس الحملة الأخرى، المكلفة بفتح أقاليم الصين الجنوبية، وكوريا، فكان هذا أول ظهور لهولاكو، هذا الأمير السفاح، على مسرح الأحداث المغولية والإسلامية.

بدأ هولاكو في إصلاح كافة الطرق المتجهة من الصين إلى العراق، فأقام الجسور الكثيرة والكبيرة على الأنهار، وجهز الناقلات العملاقة، التي صُنعت خصيصاً لحمل أدوات الحصار، وسيطر على كل المدن والمراكز التي تتحكم في محاور الطرق، وقام بإخلاء كل الطرق من الصين إلى بغداد، من قطعان الماشية، لتتوافر الأعشاب لدوابه أثناء تنقله.

في نفس الوقت بدأ التتار في محاولة عقد بعض الأحلاف السياسية، فتحالفوا مع مسيحيوا غرب أوروبا خاصة، والأمراء الصليبيين في الشام والعراق، ومع مملكة الكرج النصرانية، في جورجيا الآن، وتبادلت بينهم الرُّسل والسفارات، وجاء بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل، وجاء سُلطانا السلاجقة وهما: كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع، فتحالفا أيضاً مع هولاكو، وجاء الناصر يوسف، أمير حلب ودمشق، كما اتصل هولاكو بمؤيد الدين العلقمي الشيعي، وزير الدولة العباسية.

أيضاً مارس المغول الحرب النفسية على المسلمين، فقام ببعض الحملات الإرهابية في المناطق المحيطة بالعراق لبث الرعب، كما مارس ضد المسلمين الحرب الإعلامية، عن قُدرات التتار الهائلة، واستعداداتهم الخُرافية، والتي يصعب مقاومتها، أيضا تابع هولاكو كتابة رسائل التهديدية، وإرسالها إلى أمراء المسلمين، وأعلان التحالفات بين التتار وبين الأرمن والكرج وغيرهم.

وبعد خمس سنوات كاملة من الإعداد والتجهيز للحرب، وفي ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ/ يناير ١٢٥٦م، أصبحت كل الطرق الواصلة بين الصين والعراق قادرة على استيعاب القوات المغولية، سيطر التتار على كل المساحات التي تقع بين الصين

والعراق. وقد توفرت لدى هولاكو المعلومات الكافية عن أرض العراق، وتحصينات بغداد. وتم توقيع المعاهدات والتحالفات مع نصارى الأرمن والكرج وأنطاكية. وأخذ منهم الوعود بالمساعدة العسكرية والمخابراتية في المعركة القادمة. وانهارت الروح المعنوية عند المسلمين في العراق وما حولها مما يصل إليهم من الحملات الدعائية للتتار. وأقام هولاكو علاقات وثيقة مع وزير الدولة العباسية: مؤيد الدين العلقمي.

وزيادة في تأكيد قدرات الجيش المغولي المتجه للعراق، ضم جيش التتار في منطقة فارس وأذربيجان. ضم فرقة من جيش التتار المتمركزة في حوض نهر الفولجا الروسي. وأرسل هولاكو في طلب فرقة من جيش التتار المكلف بفتح أوروبا. وطلب المساعدة من هيثوم ملك أرمينيا. ومن ملك الكرج. وضم أكبر عدد من أمراء المناطق القريبة.

ولوجود طائفة الإسماعيلية في الشريط الغربي لفارس والشرقي للعرق. ولخطرهم الذي لا يؤتمن. أحب هولاكو أن يتخلص منهم أولاً. وقبل مهاجمة الخلافة العباسية ببغداد. وفي ذي الحجة سنة ٦٥٣هـ/ يناير ١٢٥٦م. أصدر هولاكو أوامره بتوقف جميع السفن والزوارق. وإقامة جسر على نهر جيحون حيث عَبرت قواته متوجهةً إلى قلاع الإسماعيلية. وانتظر لمرور الشتاء. ثم استولى على قلاعهم. الواحدة تلو الأخرى. وتحركت أخيراً الجيوش المغولية الهائلة صوب معقل الإسماعيلية الأعظم. وهو حصن آلموت. في غرب فارس. في أواخر سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م. وخضع ركن الدين خورزمشاه زعيم الإسماعيلية. لما رأى هذه القوة الباطشة. وتم فتح القلعة وذُبح كل من بها.

وفي سنة ٦٥٥ هـ. أصبح الطريق مفتوحاً إلى بغداد. وبدأت الجيوش المغولية. تزحف ببطء. ولكن بنظام معلوم ومحدد. وفي رمضان سنة٦٥٥هـ/١٢٥٧م. أرسل هولاكو رسالة إلى الخليفة مليئة بالتهديد والوعيد. يأمره فيها بالتسليم والخضوع. ورَفضَ المعتصم بشدة كل ما جاء برسالة هولاكو. وردَّ عليه برسالة كلها احتقار. فاجتمع هولاكو مع كبار مستشاريه في مجلس حرب. في مدينة:

همدان الفارسية - في إيران حالياً- وهي تقع على مسافة حوالي٤٥٠ كيلو مترًا من بغداد إلى الشمال الشرقي، وقرر هولاكو تقسم جيشه ثلاث أقسام كما هي العادة الغالبة، ميمنة وميسرة وقلب، وفي أول المحرم سنة ٦٢٥هـ/١٢٥٧م، نزل هولاكو من من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه وحلوان.

وفي يوم ١٢ محرم من سنة ٦٥٦ هجرية، وبينما أهل بغداد في لهوهم ودنياهم، ظهر جيش هولاكو قِبالة الأسوار الشرقية لبغداد، وحاول الخليفة أن يُجرب موضوع الجهاد، بجيشٍ لا يَصلح لمقاومة أي معتدٍ، بقيادة الرجل المخلص: مجاهد الدين أيبك، ولكن ماذا يَفعل، لقد انهزم وفر، وبدأت عملية إبادة واسعة النطاق في العراق، ووصل الأمير المغولي: بيجو، إلى شمال بغداد وغربها، وهولاكو من الشرق، وتحركت رُسل الخليفة نحو هولاكو لطلب الصلح، في شهر آخر محرم سنة ٦٥٦ هـ، الموافق شهر يناير من سنة ١٢٥٨م، وكانت شروط المغول مجحف، إنهم لا يَرغبون في الصلح، وفي الأول من صفر سنة ٦٥٦ هـ، بدأ قصف بغداد، واستمر أربعة أيام متصلة.

وقر الخليفة العباسي المعتصم بالله أن يتخذ خُطوة إيجابية، فاستشار وزيره ابن العلقمي، فأشار عليه بالخروج بنفسه إلى هولاكو، الذي اشترط لمقابلتهما أن يَصحبه سبعمائة من خيرة أهل العراق، وعلى باب هولاكو قال الحرس: سيدخل ومعه سبعة عشر رجل فقط، أما الباقون فسيخضعون للتفتيش الدقيق، ولكنه كان القتل.

وأخيراً دخل هولاكو بغداد، وأمر بقتل الخليفة رفساً بالأقدام، وأمر بنهب المدينة، بل نهب كل العراق، وتدميره، وتم تدمير مكتبة بغداد الزاخرة، وبعد أن فَرغ المغول من تدمير مكتبة بغداد، انتقلوا إلى الديار الجميلة، وإلى المباني الأنيقة فتناولوا جلها بالتدمير والحرق، وسرقوا المحتويات الثمينة فيها، وأصدر هولاكو قراراً بتعيين الوزير: مؤيد الدين العلقمي، رئيساً على مجلس الحكم ببغداد، فمات كمداً، في مستهل

جماد الآخر من هذه السنة، وتولى بعده ابنه، وفي ذي الحجة سنة ٦٥٧هـ، وبعد سقوط بغداد بسنة واحدة، توفي الوزير عز الدين أبو الفضل ابن الوزير مؤيد الدين بن العلقمي الأسدي، فتولى بعده أمر الديوان في بغداد المؤرخ علاء الدين عطاء ملك الجويني.

لقد أصاب سقوط بغداد العالم الإسلامي بالفزع والذهول والحيرة، وهرع المستضعفون من حُكامه إلى الطاغية هولاكو، يُقدمون له فروض الطاعة والتهنئة، ويتملقونه خوفاً من بطشه واتّقاء شره، ولم تتوقف هجمات المغول، ففي عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، استولى هولاكو على ميافارقين، وفي سنة ٦٥٦ هـ، نقم هولاكو على القائد بيجو فسمَّهُ، وفي سنة ٦٥٧هـ، وجَّه هولاكوا، القائد أرغون إلى كرجستان، ذي الحجة من سنة ٦٥٧هـ، وفي سنة ٦٥٨هـ، عَبر هولاگوخان الفرات بجُموعه، ونازل حلب، وتسلمها في يوم الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ، وجرد هولاكو إلى دمشق مقدماً يُسمى السبان، تسلموها بالأمان في منتصف جمادى الأولى من السنة ٦٥٨هـ، وعاد هولاكو سنة ٦٥٨هـ، من حلب إلى بلاد قراقروم لطلب القانية لنفسه، فوجدها قد استقرت لأخيه قُبلاي – (٦٥٨ – ٦٩٣هـ/ ١٢٦٠ – ١٢٩٤م)، فاستقر لهولاگوخان الأقاليم التي فتحها وغيرها.

وفي التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٦٣هـ، وبالقرب من كورة مراغة، مات هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان، بعد أن أذله اللّه بتلك الهزيمة المروعة التي تلقاتها جيوشه على يد المظفر قطز.

هذا عن التتار، وبداياتهم، وكيف سارت بهم الأيام حتى أخذوا بغداد، فلنتكلم عن المماليك، هؤلاء الرجال الذين صدوا هذا الطوفان التتري الجارف، الذي أتى على بلاد الصين وما وراء النهر، وفارس والعراق والشام، وها هو مُرابط في فلسطين، ينتظر الهجوم على مصر، لتنفتح لها بلاد إفريقيا بدون مقاومة، ولكن اللّه قيَّض لمصر وبلاد إفريقيا والشام، هذا الرجل، ليكون على يديه نسف كل تلك الطموحات،

وتحويلها إلى كوابيس مُزعجة غير متوقعة. إنه السلطان المظفر قطز. قاهر التتار.

من هم المماليك؟

المماليك. جمع مملوك. والمماليك في اللغة العربية هم العبيد. أو الرقيق. وبخاصة من سُبُوا ولم يُسب آباؤهم ولا أمهاتهم. ومفرد المماليك: مملوك. وهو العبد الذي يُباع ويُشترى. (العبد الذي سُبِي أبواه يُعرف بالعبد القن وليس المملوك).

وهذا التعريف يُعتبر عاماً على معظم الرقيق. الذين كانوا يُشترون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القِدم. ويُعتبر الرقيق الأتراك أول من استُخدموا في الجُندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين. وكان نصر بن سيار - (٤٦ - ١٣١ هـ = ٦٦٦ - ٧٤٨ م). والي الأمويين على خُراسان. قد اشترى: ألف مملوك من الترك. حيث كانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيسي للرقيق الأتراك. وأعطاهم السلاح وحَمَلهم على الخيل.

وكان الخليفة المعتصم العباسي - (٢١٨ ـ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م). أول من شكل فرقاً عسكرية ضخمة منهم. وجَعلهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من ديوان الجند. وقد بَلغ عدد مماليكه بضعة عشر ألفاً. وقد امتلأت بهم بغداد. مما أدى إلى اصطدامهم بالناس في الطرقات. وأثار سخط أهل العاصمة. فبنى مدينة سامراء فسكنوها. وجَعلها عاصمة لهم. ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار.

ومنذ العصر العباسي الأول صار مصطلح (مماليك) يقتصر على فئة من الرقيق الأبيض. الذي كان يُشترى من أسواق النخاسة. ويُستخدم كفرق عسكرية خاصة. ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني. كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك. ذلك أن الدُّويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة مثل: الطولونيين. والأخشيديين في مصر. والصفاريين والسامانيين في خُراسان. وما جاورها.. والغزنويين والغوريين في الهند. كانت خلافاتها ومشاحناتها لا تنتهي.

ويُعد الوزير نظام الملك، وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان وملكشاه، هو أول من لُقِّب بلقب أتابك، من قِبل السلطان ملكشاه، ويعد هو أساس النظام التربوي المملوكي، في كتابه سياسة نامة، وقد جاء فيه أنه: يَجب ألا يُثقل على المماليك القائمين على الخدمة، إلا إذا دعت الحاجة، ولا يَنبغي أن يكونوا عُرضة للسهام، ويَجب أن يَتَعلموا كيف يجتمعون على الفور، مثلما ينتشرون على الفور، ولا حاجة إلى التكليف كل اليوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون الغلمان، صاحب الماء، صاحب السلاح، والساقي، وأشباه ذلك، ولمن يكون في خدمة كبار الحجاب وكبير الأمراء، ويَجب أن يؤمرا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم، ومن الخواص عدد معين، هذا وقد كان للسلطان مماليك صغار، وكان عليهم من الصبيان الخاص رقباء، وعلى طوائفهم من جنسهم نُقباء.

وقد اتخذ السلاجقة أشخاصاً من كبار المماليك، ليكونوا مُربيين لأولادهم في القصر، ولما توفي عماد الدين زنكي، أحد أكبر أتابك دولة السلاجقة، خَلَفهُ ابنه نور الدين محمود، وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يُكونون غالبية جيشه.

وبَعد الزنكيين، جاء الأيوبيين فأكثروا من المماليك الأتراك، واستخدموهم في الجيش، وظلت طريقة جلب المماليك، سواء للخدمة الفردية، أو للاستعانة بهم في الجيوش، تحدث على مدار عشرات أو مئات السنين، بطريق الشراء لهم، أو عن طريق الأسر في الحروب، ولكن عندما تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب - (٦٠٣ - ٦٣٧ / ٦٤٧ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٤٩ م)، ابن محمد بن أبي بكر، الذي ولد ونشأ بالقاهرة، وولي الأمر بعد خلع أخيه العادل سنة ٦٣٧ هـ، ضَبط الدولة بحزم، واستحدث طريقة، وأسلوباً جديدين، لإيجاد وتنشئة المماليك، واتخذ الملك الصالح أيوب لمماليكه قاعدة في جزيرة الروضة تُعرف بقلعة الجزيرة، أو قلعة الروضة، وجَعلها مقراً لهم، وشَرع في حفر الأساس وبنائها بين عامي ٦٣٧هـ/١٢٣٩م و٦٣٨هـ/١٢٤٠م.

وقد رأى الشيخ عز الدين عبد السلام، أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب، ودَفع ثمنهم من بيت مال المسلمين، واستغلهم في خدمته وفي جيشه، وفي تصريف شئون الدولة، يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل، لأن المملوك لا يَنفذ تَصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يُمضي لهم بيعاً ولا شراء، فضايقهم ذلك، وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى، فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن أرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم فاحتدم الأمر، وبائع الملوك الشيخ عز الدين عبد السلام مصمم على رأيه، ولا يُصحح لهم بيعاً ولا شراء، ولا نكاحاً.

وفي ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ، توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب، فكتمت شجرة الدرّ خبر وفاته، وقالت أن الأطباء مَنعوا زيارته، وهكذا سارت الأمور بصورة طيبة بعد وفاة الملك الصالح، ولم يَحدث الاضطراب المتوقع نتيجة هذه الوفاة المفاجئة، وفي هذه الظروف الصعبة، والفرنسيين في دمياط، ويريدون المنصورة، التي تحولت إلى ساحة لحرب الشوارع، وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقداري، وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه، وأجبرَ المسلمين على التراجع نحو مدينة المنصورة، وفي يوم الخميس لتسع بقين، وقيل في ١٧ ذو القعدة ٦٤٧هـ/٢١ شباط ١٢٥٠م، وصل طوران شاه إلى المنصورة، فقاد الحرب ضد الفرنسيين، وبوصوله إلى مصر ارتفعت الروح المعنوية عند المصريين، وبين صفوف المماليك، وتمكنو من هزيمة الجيش الفرنسي وأسروا الملك لويس التاسع، ولقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام ١٢٥٠م/٦٤٨هـ ارتفاع شأن ومكانة المماليك، وظهر بوضوح الدور البارز الذي قاموا به في معركة فارسكور، وكيف كلّل جهادهم لأعداء الإسلام بالنجاح، ولقد كان لذلك أثره في ارتفاع شأنهم، وسيصبح سندهم التاريخي في الوصول إلى العرش.

وقرر المماليك البحرية التخلص من طوران شاه، نتيجة بعض التصرفات الهوجاء منه، ولشعورهم بعدم الأمان من ناحيته، وتزعم المؤامرة مجموعة من

الأمراء البحرية، منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأيبك التركماني، وتم تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الاثنين ٢٨، وقيل ٢٦ محرم ٦٤٨هـ / ٢ أيار ١٢٥٠م، وبوفاة طوران شاه انقضت دولة بني أيوب، بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً، وكان طوران شاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب.

وحدث فراغ سياسي كبير بقتل طوران شاه، فليس بمصر أيوبي في مصر مؤهل لقيادة الدولة، وكان تفكير المماليك ولأول مرة في تاريخ مصر، أن يُمسكوا هم بمقاليد الأمور مباشرة، وهم قادرون على أن يَغلبوا، فلماذا لا يكون الحكم لهم؟ ووجد المماليك البحرية في شجرة الدرّ الفترة الانتقالية التي يُريدونها، وبعدها يمكنهم تحويل المُلك إليهم بسهولة، إنها زوجة الأستاذ، الملك الصالح أيوب الذي يُكنّون له، ويُكنُّ له الشعب كله كامل الوفاء والاحترام والحب، وهي في نفس الوقت تُعتبر من المماليك، ولو من وجهة نظرهم، واستطاعت شجرة الدر أن تحفظ للجيش وحدته وتماسكه، وأن تحولَ دون تصدّع صفوفه، وانفراط عقده، كما استطاعت أن تَبعث في الجنود روح مواصلة الجهاد، ومتابعة الكفاح، دونما ضعف أو خور أو ميل إلى الخضوع.

وعندما تزايدة الضغوط من قبل الأيوبيين بالشام، ومن الخليفة العباسي ببغداد، بل ومن الشعب المصري، لتولي سيدة عرش مصر، قررت الملكة شجرة الدرّ أن تتزوج، أي أنها أرادت أن تُمسك العصا من منتصفها، فتحكم باطناً وتتنحى ظاهراً، ففكرت أن تتزوج من أحد الرجال، ثم تتنازل له عن الحكم ليكون هو في الصورة، ثم تحكم هي البلاد بعد ذلك من خلاله، وبالفعل تزوجت شجرة الدُّر من عز الدين آيبك، ثم تنازلت له عن الحكم، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة ٦٤٨ هـ

وكان هذ أول ظهور للبطل الإسلامي الشهير: سيف الدين قطز في تلك الآونة، فقد كان يَشغل مركز قائد مجموعة المماليك الخاصة بالملك المعز عز الدين أيبك.

ومع أن عزّ الدين أيبك نفسه من المماليك البحرية، إلا أنه بدأ يحدث بينه وبينهم نفور شديد، وفي سنة ٦٥١ هـ وبعد ٣ سنوات من حكم أيبك، حدث خلاف جديد بين أمراء الشام وعز الدين أيبك، فتدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله، للصلاح بين الطرفين.

لقد كان الملك المعز عزّ الدين أيبك من الذكاء، بحيث إنه لم يصطدم بشجرة الدرّ ولا بزعماء المماليك البحرية في أول أمره، بل بدأ يُقوي من شأنه، ويُعد عدته تدريجياً، فبدأ يشتري المماليك الخاصة به، ليكون قوة مملوكية عسكرية تدين له هو وحده بالولاء، ولكن هذا لم يَنفعه بشيءٍ، وتحزبت المماليك البحرية مع فارس الدين أقطاي، فصارت له الغلبة، فلم يَجد أيبك بداً من قتل أقطاي، في يوم الاثنين الحادي والعشرين من شعبان سنة ٦٥٢ هـ، وبقتل فارس الدين أقطاي خَلت الساحة لعز الدين أيبك.

وفي سنة ٦٥٥ هـ، وبعد مرور ٧ سنوات كاملة على حكم الملك المعز عز الدين أيبك، تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجر الدر، فعزمت على قتله، خاصة بعد أن علمت بأنه يعتزم الزواج من بنت حاكم الموصل، وكان لا بد لها أنت تَعلم به، وتملكتها الغيرة، فلما كان يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة٦٥٥ هـ/ أبريل سنة ١٢٥٧م، ركب الملك المعز من الميدان بأرض اللوق، وصَعد إلى قلعة الجبل آخر النهار، ودَخل إلى الحمام ليلاً، فأغلق محسن الجوجري الباب عليه، واجتمع معه الغلمان الذين اتفقت معهم شجرة الدر، وتم تنفيذ المؤامرة، وقَتلوا عز الدين أيبك.

ولم يكن من الممكن أخفاء هذه الجريمة الكبيرة، فعلم بها الجميع، وأُحيط بشجرة الدر، وواجهها أمراء المماليك، فلم يكن أمامها إلا أن تَعترف بأنها أرادت الانتقام، لكن لم يَخطر ببالها أبداً أن ذلك سيؤدي إلى وفاته، وأسرع سيف الدين قطز قائد الجيش، ومعه ابن عزّ الدين أيبك من زوجته الأولى، ومعهما فِرقة من

المماليك المعزية، وألقى القبض على شجرة الدرّ، وحُملت يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة٦٥٥ هـ إلى زوجة أيبك الأولى.وكانت النهاية المأساوية المشهورة، حيث أمرت زوجة أيبك الأولى جواريها بالدخول على شجرة الدر وضربها بالقباقيب حتى تفارق الحياة.

وصمم المماليك المعزية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز، على أن يُقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع آيبك، صبياً في الخامسة عشر من عمر وهو نور الدين علي، ابن سيدهم المعز آيبك، في ربيع الأول من سنة ٦٥٥ هـ. ورَفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي، ولكن سُرعان ما خلعه قطز، ففي يوم السبت السابع عشر، في الرابع والعشرين ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ قام بخلع السلطان الصبي المستهتر، وتولى هو أمر مصر.

نشأ سيف الدين قطز على تربية دينية قويمة، وامتلأت نفسه بالحِمية الإسلامية القوية، وتمرس منذ صغره على فنون الفروسية والقتال، وتدرب على أنواع الإدارة، وطُرق القيادة، فنشأ شاباً فتياً أبياً محباً ومعظماً لدينه، وهكذا صنعت هذه العوامل مجتمعة من قطز رجلاً ذا طراز خاص جداً فلقد كان صبوراً جلداً تَحمَّل الكثير منذ صباه، وحتى تمكن من دحر التتار وقائدهم، فلقد كانت طفولته طفولة الأمراء، فقد وُلد في بيت ملكي، فهو ابن اخت السلطان الخوارزمي الكبير: جلال الدين، مما أعطاه ثقة كبيرة في نفسه، فلم يكن غريباً عليه من ثم أمور القيادة والإدارة والحكم، علاوة على وعيه الكامل والجيد لمأساة أسرته الخوارزمية مع التتار.

أما من ناحية التتار، فقد أخذ هولاكو في هذه الأثناء في الإعداد لغزو الشام، وسير ولده أشموط بن هولاكو إلى الشام، وأمره بقطع الفرات وأخذ البلاد الشامية، وسيره في جمع كثيف من التتار.

لقد أل الأمر في مصر إلى السلطان قطز، في يوم السبت السابع عشر، في الرابع والعشرين ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ فوجدها تركة مُثقلة بالهموم والمشاكل، وكان

لابد من التصرف مع هذا الوضع شديد التأزم. وقد حرص قطز في البداية على استقرار الوضع الداخلي في مصر، وقطع أطماع الطامعين في كرسي الحكم. فخلع نور الدين علي، ابن المعز آيبك، بعد أن استرضى المماليك، وقال لهم: إني ما قصدت من الجلوس على كرسي الحكم إلا لنجتمع على قتال التتار. فتوحدت بذلك كلمتهم. قام أيضاً بالتزم الحزم في الإدارة، والأخذ بأسباب السيطرة على الأمور. لقد علم قطز أن الناس إن لم يُشغلوا بالجهاد شُغِلوا بأنفسهم. فقَبضَ على بعض رؤوس الفتنة الذين حاولوا أن يَخرجوا على سلطته وحكمه. وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر. كما أصدر قراراً بالعفو العام عن كل المماليك البحرية الذين خرجوا من مصر مُغاضبين، وقصد بذلك إعلاء المُصالحة الحقيقية للبلاد. وبالفعل إستطاع قطز أن يُقنع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري بالعودة إلى الأراضي المصرية، والانضواء تحت لوائه.

ليس هذا فحسب، بل قام قطز بمراسلة الأمراء الأيوبيين بالشام، يسترضيهم، ويُعلمهم أنه مستعد لأن يكون تابعاً لهم بلا غضاضة، المهم التوحد ضد التتار. كما راسل ملوك الصليبيين في منطقة فلسطين وفي مستعمراتهم بالشام، حتى يضمن عدم غدرهم به أثناء الحرب. واستطاع قطز بالفعل أن يتحصل على موافقة الصليبيين، بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم. وجَعلته في مأمن من ذلك الجانب، وتجنب خطر اشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة.

بينما كان قطز في إعداده المتحمس، وفي خطواته السريعة، جاءته رسل هولاكو يُخبرونه أن اللقاء سيكون أسرع مما يتخيل، وأن الحرب على وشك الحدوث. قرأ سيف الدين قطز الرسالة، وكانت بمثابة التحدي. فاستدعى الأمراء ليَعرض الأمر عليهم، وتكلم معهم في المسير لقتال المغول، وأمام هذا التصميم الذي أبداه قطز لمواجهة المغول، ووافقه من الأمراء على المسير، فاصدار أوامره إلى قواته بالمسير لملاقاة العدو،

وُوضع الخطة والخريطة اللازمة لتحرك الجيش. وطالب الأمراء ببزل أموالهم لتجهيز الجيش بناء على فتوى العز بن عبد السلام.

وفي يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨هـ/يوليو١٢٦٠م. وعند خروج قطز بجميع عسكر مصر. ومن أنضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم. أمر بقتل رسل هولاكو. على أبواب القاهرة. وبدأ الجيش المسلم يتجمع في معسكر الانطلاق. وكان هذا المعسكر في منطقة الصالحية بمحافظة الشرقية الآن. وكان هذا التحرّك في أوائل شهر شعبان سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. وهذا يوافق شهر يوليو من سنة ١٢٦٠م. واجتاز ركن الدين بيبرس. قائد المقدمة. اجتاز الحدود المصرية في ٢٦ يوليو سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. ودَخل حدود فلسطين المباركة. وتبعه قطز بعد ذلك في سيره.

وفي يوم ٢٤ رمضان من سنة ٦٥٨هـ. وهو اليوم السابق مباشرة لموقعة عين جالوت. وصل القائد المُلْهم. السلطان قطز إلى سهل عين جالوت. فوجدها منطقة مناسبة جداً للمعركة المرتقبة. وبينما قطز في سهل عين جالوت. إذا بأعداد غفيرة من المتطوعين المسلمين من أهل فلسطين يَخرجون من القرى والمدن ليلتحقوا بالجيش المسلم. لقد كانت ليلة عين جالوت من أعظم ليالي السنة. لأنها في العشر الأواخر من رمضان. بل إنها كانت ليلة وترية. ومن المحتمل أن تكون ليلة القدر. علاوة على أنها كانت كذلك ليلة من أعظم ليالي المسلمين.

وفي الصباح كانت الموقعة الخالد. وانتصر الجيش المصري الْعَـَربيَ انتصاراً رائعاً. لقد خاض السلطان الحرب بنفسه. فقد أراد أن يكون قدوة حقيقية لرجاله. لذا فقد ألقى بخوذته على الأرض. تعبيراً عن اشتياقه للشهادة. وعدم خوفه من الموت. وأطلق صيحته الشهيرة التي قلبت الموازين في أرض المعركة. لقد صرخ قطز رحمه الله بأعلى صوته: وإسلاماه. وإسلاماه!!

ووقعت الهزيمة على الجيوش التتارية المغرورة. واستمروا في انهزامهم. حتى

وصلوا بيسان، حوالي عشرين كيلومتر إلى الشمال الشرقي من عين جالوت، وهناك تجدد القتال، فقد وجد التتار أن المسلمين جادون في طلبهم، فلم يجدوا إلا أن يصطفوا من جديد، وركز التتار جهدهم على فتح ثغرة في مدخل سهل عين جالوت الشمالي، تحققت لهم بعد لأي شديد، وتدور موقعة أخرى عند بيسان أجمع المؤرخون على أنها أصعب من الأولى، وقاتل التتار قتالاً رهيباً، ودافعوا عن حياتهم بكل قوة، ولكن هيهات أن يثبتوا أمام تلك القوة الإسلامية المندفعة، إما للموت أو النصر، فانهزم التتار، وانطلقوا في سرعة عجيبة يولون الأدبار.

وأكمل الجيش تقدمه، حتى دخل دمشق، وأعاد قطز ترتيب أمور تلك البلاد، وعين عليها من يثق به، ثم رجع إلى القاهرة.

كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع، على العالم الإسلامي، وخصوصاً مصر فقد استعدت لاستقباله، ودقت البشائر بالقلعة، وأخذت البلاد تنتظر قدوم المظفر سيف الدين قطز، وكانت القاهرة قد تزينت لقدوم الملك المظفر، والناس في فرح وسرور بعوده وكسره للتتار، فلما أسفر الصبح وطلع النهار إذا مناد يُنادي: معاشر الناس تَرحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس.

تمت بحمد الله وحُسن توفيقه الآن الحادية عشرة و٣٥ دقيقة، من يوم الخميس ٢٠١١/١١/١٠. الصاوي محمد الصاوي.

أصول المماليك ونشأتهم

المماليك، جمع مملوك، والمماليك في اللغة العربية هم العبيد، أو الرقيق، وبخاصة من سُبُوا ولم يُسب آباؤهم ولا أمهاتهم، ومفرد المماليك: مملوك، وهو العبد الذي يُباع ويُشترى، (العبد الذي سُبِي أبواه يُعرف بالعبد القن وليس المملوك) [1].

وهذا التعريف يُعتبر عاماً على معظم الرقيق، الذين كانوا يُشترون يستخدمون لأغراض عديدة في المجتمعات منذ القِدم، ويُعتبر الرقيق الأتراك أول من استُخدموا في الجُندية في الدولة الإسلامية زمن الأمويين، وكان نصر بن سيار - (٤٦ - ١٣١ هـ = ٦٦٦ - ٧٤٨ م)، والي الأمويين على خُراسان، قد اشترى: ألف مملوك من الترك، حيث كانت بلاد ما وراء النهر المصدر الرئيسي للرقيق الأتراك، وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل [2].

ولقد اتخذ لفظ الرقيق مدلولاً اصطلاحياً خاصاً في التاريخ الإسلامي، وذلك منذ أيام الخليفة العباسي المأمون، والذي حكم من سنة ١٩٨ هجرية إلى ٢١٨ هجرية، وأخيه المعتصم الذي حكم من سنة ٢١٨ هجرية إلى ٢٢٧ هجرية، ففي فترة حكم هذين الخليفتين استجلبا أعداداً ضخمة من الرقيق عن طريق الشراء من أسواق النخاسة، واستخدموهم كفرق عسكرية بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهما وتزايد استخدام الأتراك في وظائف الدولة إضافة على إستخدامهم في الجيش [3].

وبذلك، ومع مرور الوقت، أصبح المماليك هم الأداة العسكرية الرئيسية، وأحياناً الوحيدة في كثير من البلاد الإسلامية، وكان أمراء الدولة الأيوبية بوجه خاص يعتمدون على المماليك الذين يمتلكونهم في تدعيم قوتهم، ويستخدمونهم في

حروبهم. لكن كانت أعدادهم محدودة إلى حد ما. إلى أن جاء الملك الصالح أيوب. وحدثت فتنة خروج الخوارزمية من جيشه. فاضطر إلى الإكثار من المماليك. حتى يقوي جيشه ويعتمد عليهم. وبذلك تزايدت أعداد المماليك جداً. وخاصة في مصر [٤].

ومن أشهر مدن الرقيق. وأسواق النخاسة البيضاء. التي توسعت في ذلك الوقت: سمرقند وفرغانة وخوارزم وغيرها. كشبه جزيرة القرم عموماً. وبلاد القوقاز والقفجاق. آسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهر. ما وراء النهر. أي نهر جيحون. وهو الذي يجري شمال تركمنستان وأفغانستان. ويَفصل بينهما وبين أوزبكستان وطاجكستان. وكان فيهم عنصر الأتراك. وفيهم الشراكسة والروم والأكراد. كما كان هناك مماليك من أصول أرمينية ومن أصول مغولية. كما كان هناك مماليك من أصول أوروبية. وكان هؤلاء الأوربيون يعرفون بالصقالبة. وكانوا يستقدمون من شرق أوروبا بوجه خاص [٥].

وكان الخليفة المعتصم العباسي - (٢١٨ ـ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م). أول من شكل فرقاً عسكرية ضخمة منهم. وجعلهم مكان العرب الذين أسقط أسماؤهم من ديوان الجند [٦]. وقد بلغ عدد مماليكه بضعة عشر ألفاً. وقد امتلأت بهم بغداد. مما أدى إلى اصطدامهم بالناس في الطرقات. وأثار سخط أهل العاصمة. فبنى مدينة سامراء فسكنوها. وجعلها عاصمة لهم. ومقراً لجيوشه التركية من المماليك والأحرار [٧].

وقد قصد الخليفة المعتصم باستخدم الجيش التركي. التخلص من النفوذ الفارسي والعربي في الجيش والحكومة سواء. وقد لجأ إلى الأتراك بالشراء والتربية والإعداد. إعتقاداً منه بأنهم مُجردون من الطموح الذي اتصف به الفُرس. ومن العصبة التي عرف بها العرب. ولكن خاب ظنه. وسُرعان ما أخذ أولئك المماليك في التدخل في شئون الدولة. حتى صار الأمر في أيديهم. وأصبح الخليفة منذ مقتل

المتوكل سنة – (٢٤٧هـ/٨٦١م)، في أيديهم كالأسير، إن شاؤوا خلعوه وإن شاؤوا قتلوه [٨].

وهكذا أصبح هؤلاء الجنود عنصر تمرد ضد الخلفاء، فأساؤوا التصرف في شئون الإدارة والحكم، فانفضت الولايات من حول العاصمة، وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذ الترك في الخلافة العباسية، بعد أن صار منهم الجيش والقادة، فلما ضعف سُلطان الخلافة طمع عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وصار الجيش وقادته من الأتراك، وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، فازداد المماليك الأتراك في الدولة العثمانية أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة [٩].

ومنذ العصر العباسي الأول صار مصطلح (مماليك) يقتصر على فئة من الرقيق الأبيض، الذي كان يُشترى من أسواق النخاسة، ويُستخدم كفرق عسكرية خاصة، ومع ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، كان من الطبيعي أن تزداد الحاجة للرقيق الأتراك، ذلك أن الدُّويلات التي انفصلت عن جسم الخلافة مثل: الطولونيين، والأخشيديين في مصر، والصفاريين والسامانيين في خُراسان، وما جاورها، والغزنويين والغوريين في الهند، كانت خلافاتها ومشاحناتها لا تنتهي [١٠].

وأقبل الخلفاء العباسيون على شراء الأتراك الإرقاء، لتأكيد سلطتهم، وبظهور الأتراك السلاجقة على مسرح السياسة في المشرق الإسلامي، إزداد نفوذ الأتراك عموماً، ذلك أن السلاجقة في الأصل من العناصر التركية، كما أن الدولة السلجوقية زادت من الاعتماد على المماليك الأتراك [١١].

ويُعد الوزير نظام الملك، وزير السلطان السلجوقي ألب أرسلان وملكشاه، هو أساس النظام التربوي المملوكي، في كتابه سياسة نامة، وقد جاء فيه أنه: يَجب ألا يُثقل على المماليك القائمين على الخدمة، إلا إذا دعت الحاجة، ولا ينبغي أن يكونوا عُرضة للسهام، ويَجب أن يَتَعلموا كيف يجتمعون على الفور، مثلما ينتشرون على

الفور، ولا حاجة إلى التكليف كل اليوم بإصدار الأمر بمباشرة الخدمة لمن يكون الغلمان، صاحب الماء، صاحب السلاح، والساقي، وأشباه ذلك، ولمن يكون في خدمة كبار الحجاب وكبير الأمراء، ويَجب أن يؤمرا بأن يبرز للخدمة في كل يوم من كل دار عدد منهم، ومن الخواص عدد معين، هذا وقد كان للسلطان مماليك صغار، وكان عليهم من الصبيان الخاص رقباء، وعلى طوائفهم من جنسهم نُقباء [١٢].

ونَظَّم نِظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي المماليك، وكان أشد الناس تمسكاً بهم، وقد أحاط نفسه بجيش كبير من المماليك عُرفوا بالمماليك النظامية نسبة لاسمه، فقوى بهم نفوذه [١٣].

ويُعتبر الوزير نظام الملك أول من أقطع الإقطاعات للمماليك الأتراك، وبعد إن كان عطاء الجندي يُدفع نقداً، صار يُعطى إقطاعاً [١٤].

فتسليم الأرض إلى المقتطعين يَضمن عنايتهم بها، وإعمارهم لها، مما يحفظ قوة وثروة الدولة، كما فُتحت القلاع والمدن والولايات لقادة المماليك الذين سموا بالاتابكة [١٥].

والجدير بالذكر أن الوزير نظام الملك، هو أول من لُقِّب بلقب أتابك، من قِبل السلطان ملكشاه، حين فوَّض إليه تدبير أمور الدولة سنة ٤٦٥هـ [١٦].

وهكذا اتخذ السلاجقة أشخاصاً من كبار المماليك، ليكونوا مُربيين لأولادهم في القصر، ومنحوهم الإقطاعات الكبيرة مقابل قيامهم بشؤونهم، وتأديبهم، ولكن سرعان ما صار هؤلاء الأتابكة أصحاب النفوذ الفعلي في تلك الإقطاعات، وبخاصة عندما ضعفت الدولة وتفككت، فاشتغلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً، وأقاموا دويلات منفصلة عن جسم الدولة السلجوقية عُرفت باسم: دويلات الأتابكة؛ وكان عماد الدين زنكي أقوى هؤلاء الأتابكة، فأسس دولة ضمت الموصل وحلب وديار ربيعة [١٧].

ولما توفي عماد الدين زنكي، خَلَفه ابنه نور الدين محمود، وتوسع بالدولة وضم

دمشق، وقضى على الدولة الفاطمية، سنة ٥٦٤ هجرية، عندما دخل أسد الدين شيركوه مصر، وصار وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد، ثم مات شيركوه، يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هجرية، فصارت الوزارة لصلاح الدين الأيوبي، يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هجرية، فقطع خطبة عن الفاطميين، في السابع من المحرم، سنة ٥٦٧ هجرية، وفي الحادي عاشر من المحرم، سنة ٥٦٧ هجرية مات العاضد [١٨].

وأصبحت مصر من ضمن الدولة الزنكية، وقد استكثر نور الدين محمود من شراء المماليك الأتراك الذين صاروا يُكونون غالبية جيشه [١٩].

وبَعد الزنكيين، جاء الأيوبيين فأكثروا من المماليك الأتراك، واستخدموهم في الجيش، وللعلم فإن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر، والذي خرج به من دمشق في ثاني عشر ربيع الأول سنة ٥٦٤ هجرية، كان معظمه يتكون من المماليك والأمراء النورية [٢٠].

وقد نُسبت مماليك صلاح الدين الأيوبي إليه، فسمُيت بالمماليك الصلاحية، كما نُسبت مماليك أسد الدين شيركوه إليه، فسُميت بالمماليك الأسدية، وفي عهد الملك العادل سُمي المماليك بالعادلية نسبة إلى العادل، ولما توفي خَلَفه أبناؤه الأشرف: موسى العادل، والكامل، وغيرهم، ونُسب عدد من المماليك لكل واحد منهم، فعُرف المماليك الأشرفية، والمماليك الكاملية[٢١].

طريقة جديدة لتنشئة المماليك

ظلت طريقة جلب المماليك، سواء للخدمة الفردية، أو للاستعانة بهم في الجيوش، تحدث على مدار عشرات أو مئات السنين، بطريق الشراء لهم، أو عن طريق الأسر في الحروب، ولكن عندما تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب - (٦٠٣ - ٦٣٧ / ٦٤٧ هـ = ١٢٠٦ - ١٢٤٩ م)، ابن محمد بن أبي بكر، الذي ولد ونشأ بالقاهرة، وولي الأمر بعد خلع أخيه العادل سنة ٦٣٧ هـ ضبط الدولة بحزم، واستحدث طريقة،

وأسلوباً جديدين، لإيجاد وتنشئة المماليك، وتبعه بعد ذلك سلاطين دولة المماليك، وذلك أنه كان لا يأتي إلا بالمماليك الصغار في السن، أي في مرحلة الطفولة المبكرة، وكان غالبهم من بلاد غير مسلمة، وكان أحياناً أن يُؤسر بعض الأطفال المسلمين غير الناطقين بالعربية، فلا يُعرفون، ولا يُعرف أصلهم أو دينهم، فيعاملون ويُربَّون تربية المماليك [٢٢].

وأعتباراً من السنوات العشر الأخيرة من عمر الدولة الأيوبية، وبالتحديد إلى سنة ٦٣٧ هجرية، تولى الملك الصالح أيوب حكم مصر، وكالعادة الجارية في تلك الأيام استعدّ الأمراء الأيوبيون في الشام لقتال الملك الصالح أيوب على خلافة مصر، وحدثت بينهم مناوشات وحروب، ووصل الأمر مداه في سنة ٦٤١هـ، عندما توحدت قوى الأيوبيين المتناثرة في الشام، وتحالفت مع الصليبيين لحرب الملك الصالح أيوب، وذلك في مقابل أن يتنازل أمراء الشام الأيوبيون عن بيت المقدس للصليبيين.

أخبار الملك الصالح أيوب والمماليك

الملك الصالح أيوب يستولي على الشام

لقد توحدت قوى أمراء الشام الأيوبيين مع الصليبيين في جيش كبير، وبدأ الزحف في اتجاه مصر، فأعد الملك الصالح جيشه، ووضع على قيادته أكفأ قادته، وهو ركن الدين بيبرس، واستعد للمواجهة، ولم يكن الجيش المصري في وضع يسمح له بمواجهة تلك الجيوش بالأعدادها الكبيرة، الجامعة لجيوش الشام والصليبيين، ولذلك استعان الملك الصالح بالجنود الخوارزمية الذين كانوا قد فروا من قبل من منطقة خوارزم، بعد الاجتياح التتاري لها، وفرار وهلاك سلاطينهم [١].

وكان هؤلاء الجنود الخوارزمية جنوداً مرتزقة بمعنى الكلمة، بمعنى أنهم يتعاونون مع من يدفع أكثر، ويَعرضون خدماتهم العسكرية في مقابل المال، فاستعان بهم الملك الصالح أيوب بالأجرة، ودارت موقعة كبيرة بين جيش الملك الصالح أيوب وبين قوى التحالف الأيوبية الصليبية، وعُرفت هذه الموقعة باسم موقعة غزة، وكانت في سنة ٦٤٢ هجرية، وكانت هذه الموقعة بالقرب من مدينة غزة الفلسطينية، وانتصر فيها الملك الصالح انتصاراً باهراً، وقُتل من الصليبيين أعداد كبيرة وصلت إلى ثلاثين ألف مقاتل، وأسرت مجموعة كبيرة من أمرائهم وملوكهم، وكذلك أُسرت مجموعة من أمراء الأيوبيين، ولحق المنصور بدمشق في نفر يسير [٢].

وقدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين بذلك في خامس عشر جمادى

الأولى، سنة ٦٤٢هـ فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعتي الجبل والروضة، فبالغ الناس في الزينة، وضربت البشائر عدة أيام.

وقَدمت أسرى الفرنج ورءوس القَتلى، ومعهم الظهير بن سنقر وعدة من الأمراء والأعيان، وقد أركب الفرنج الجمال، ومن معهم من المقدمين على الخيول، وشقوا القاهرة، فكان دخولهم يوماً مشهوداً، وعُلقت الرءوس على أبواب القاهرة ومُلئت السجون بالأسرى، وسار الأمير بيبرس، والأمير ابن أبي علي بعساكرهما إلى عسقلان، ونازلاها فامتنعت عليهم لحصانتها فسار ابن أبي علي إلى نابلس، وأقام بيبرس على عسقلان، واستولت نواب الملك الصالح نجم الدين على غزة والسواحل، والقدس والخليل، وبيت جبريل والأغوار، ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والملقاء، والصلت وعجلون [٣].

هذه المدن التي كان الأيوبيون في الشام قد تنازلوا عنه للصليبيين، حازتها جيوش الملك الصالح أيوب واقتحمت حصون الصليبيين، وحرّر المدينة المباركة بجيشه المدعم بالخوارزمية في هذه ال سنة ٦٤٣ هجرية، وبذلك حُرّر بيت المقدس نهائياً، ولم يستطع جيشٌ نصراني أن يدخله أبداً لمدة سبعة قرون كاملة، إلى أن دخلته الجيوش البريطانية في الحرب العالمية الأولى في يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٧م، أيام مصطفي كمال أتاتورك.

جيوش الملك الصالح تفتح دمشق

أكملت جنود الملك الصالح أيوب طريقها في اتجاه الشمال، خرج بهم الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على العساكر من القاهرة، ومعه الدهليز السلطاني والخزائن، وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا في خدمته. فسار الصاحب معين الدين من القاهرة بالعساكر إلى غزة، وانضاف إليه الخوارزمية والعسكر، وسار إلى بيسان، فأقام بها مدة، ثم سار إلى دمشق فنازلها، وقد امتنع بها الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم صاحب حمص، وعاثت الخوارزمية في أعمال دمشق، واستمر

الصاحب معين الدين على محاصرة دمشق. فبَعث الخليفة بمحيي الدين بن الجوزي إلى الملك الصالح نجم الدين ومعه خِلعة. وهي عمامة سوداء، وفرجية مذهبة، وثوبان ذهب، وسيف بذهب، وطوق ذهب، وعلمان حرير، وحصان وترس ذهب. فلبس الملك الصالح نجم الدين الخِلعة على العادة [٤].

و وفي يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى، سنة ٦٤٣هـ دَخلَ الصاحب معين الدين دمشق، ومَنع الخوارزمية من دخولها، ودبر الأمور أحسن تدبير، وأقطع الخوارزمية الساحل بمناشير كتبها لهم، ونزل في البلد، وتسلم الطواشي شهاب الدين رشيد القلعة، وخَطب بها وبجامع دمشق وعامة أعمالها للملك الصالح نجم الدين [٥].

ودَخلت دمشق، ووحّد الملك الصالح أيوب مصر والشام من جديد، بل اتجه إلى تحرير بعض المدن الإسلامية الواقعة تحت السيطرة الصليبية، فحرر بالفعل طبرية وعسقلان وغيرهما [٦].

الخوارزمية ضد الملك الصالح

وأما الخوارزمية، فإنهم ظنوا أن السلطان إذا انتصر على عمه الملك الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد، فلما مُنعوا من دمشق، وصاروا في الساحل وغيره من بر الشام، تغيرت نياتهم، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان الصالح أيوب، وساروا إلى داريا وانتهبوها، وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس أحد مماليك الملك الصالح – وهو غير بيبرس الذي سيحارب مع قطز، ثم يقتله ويحكم مصر - وهو على غزة بعسكر جيد من عساكر مصر، وحسّنوا له أن يكون معهم يداً واحدة ويزوجوه منهم، فمال إليهم، وكاتبوا الناصر داود صاحب الكرك، فوافقهم ونزل إليهم واجتمع بهم وتزوج منهم، وعاد إلى الكرك واستولى على ما كان بيد الأمير حسام الدين بن أبي علي، من نابلس والقدس والخليل، وبيت جبريل والأغوار، واستمرت الأمور في المنطقة من غزة وحتى دمشق في قلاقل، حتى خرج إليها الملك الصالح نجم الدين أيوب بنفسه، في شوال سنة ٦٤٤هـ، فأعاد الأمور إلى نصابها، وأحكم

سيطرته على كل هذه المنطقة، وعاد من دمشق سنة ٦٤٥هـ [٧].

وفي هذه الأثناء ارتفعت الأسعار في دمشق، وشح الطعام، واستمر هذا الارتفاع ثلاثة أشهر حتى رحل الخوارزميين عن دمشق.

نجم الدين أيوب والمماليك

السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، هو الذي أدخل تشكيلات جديدة على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، فقد اتخذ مجموعة من الإجراءات العسكرية، لتقوية الجيش الذي كان يترأسه، ومن أهمها: اهتمامه الكبير بشراء المماليك والغلمان الأتراك، بشكل لم يسبق له نظير في التاريخ الأيوبي، فخلال مدة حكمه أضاف إلى الجيش في دفعة واحدة، ما تعداه من أكثر من ألف مملوكاً تركياً، جلبهم من إقليم التركستان (خوارزم)، ومن مناطق شمالي البحر الأسود وبحر قزوين، وغيرها من الأماكن [٨].

وذلك بعد أن انشقت عن جيشه الفرقة الخوارزمية المرتزقة، بعد أن استمالها أحد الأمراء الأيوبيين بالشام، مقابل دفع مال أكثر من المال الذي يدفعه لهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم تكتف هذه الفرقة بالخروج، بل حاربت الصالح أيوب نفسه، ولم يثبت معه في هذه الحرب إلا جيشه الأساسي الذي أتى به من مصر، وعلى رأسه قائده المحنك ركن الدين بيبرس، وخَرج الصالح أيوب من هذه الحرب المؤسفة وقد أدرك أنه لابد أن يَعتمد على الجيش الذي يدين له بالولاء لشخصه لا لماله، فبدأ في الاعتماد على طائفة جديدة من الجنود بدلاً من الخوارزمية، وكانت هذه الطائفة هي: المماليك [٩].

وقد أصبح العنصر التركي في عهد الملك الصالح هو الغالب والمميز في الجيش الأيوبي، وسرعان ما شكلوا نواة عسكرية وسياسية نشطة، تحولت هذه الأعداد من المماليك، إلى ما عُرف بدولة المماليك البحرية، بعد سنين قليلة على وفاة الملك الصالح، ولتختفي تدريجياً العناصر المتكون منها الجيش الأيوبي، كالبربر والسودان،

وقد كان من أهم معالم التطوير في البنية العسكرية الأيوبية في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب:

تكوين القوة العسكرية الجديدة

تكونت القوة العسكرية الجديدة للملك الصالح من المماليك الأتراك باسم (الصالحية) نسبة إلى نفسه. فهو صاحب الفضل في تكوين هذه الفرقة الجديدة من المماليك التي تحمل أيضاً اسم البحرية. والتي قُدِّر لها أن تقوم بدورٍ خطير في تاريخ مصر السياسي لما يقارب من قرنين ونصف. وكان الملك الصالح قد اشترى من المماليك الترك ما لم يشتره أحد من أهل بيته. حتى صار معظم عسكره منهم. فأرجحهم على الأكراد وأدناهم منه. وأجزل لهم العطاء. خاصة بعد ساندوه في فرض إرادته على الأقاليم الأيوبية. بعد أن لمس غدر الطوائف الأخرى من الجند المرتزقة [١٠].

وكان معظم هؤلاء المماليك من الأتراك المجلوبين من بلاد القفجاق شمال البحر الأسود. ومن بلاد القوقاز. قرب بحر قزوين. وقد كان للأتراك القفجاق. ميزاتهم الخاصة بين طوائف الترك العامة. من حيث حسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس. فضلاً عن الشجاعة النادرة. ولا شك في ولاء هؤلاء لسيدهم.

وكان هؤلاء المماليك قد شكلوا نواة لقوة عسكرية ضاربة في الجيش الأيوبي. واحتلوا رتباً عسكرية كبيرة في جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب. نتيجة لثقته بهم واعتماده عليهم. فصار لهم مثل مكانة مقدمهم ركن الدين بيبرس. والذي لعب دوراً كبيراً في صعود الملك الصالح إلى السلطنة. فيما بعد في المعارك ضد الصليبيين الفرنج. وخاصة معركة المنصورة [١١].

ثكنات المماليك الصالحية

اتخذ الملك الصالح أيوب لمماليكه قاعدة في جزيرة الروضة تُعرف بقلعة الجزيرة أو قلعة الروضة، وجَعلها مقراً لهم، وشَرع في حفر الأساس وبنائها بين عامي ٦٣٧هـ/١٢٣٩م و٦٣٨هـ/١٢٤٠م، ولتطوير هذه الثكنات هدم الكثير من الدور والقصور والمساجد التي كانت في الجزيرة، وأدخلها في نطاق القلعة، وشيد فيها مبانٍ كثيرة، منها ستين برجاً، وأقام بها مسجداً غرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار، وشحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال والأزواد والأقوات، وقد أنفق السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على عمارتها أموالاً كثيرة، وكان يقف بنفسه ويُرتب العمل بها، من أجل أن ينتقل من قلعة الجبال ويسكن مع مماليكه البحرية [١٢].

نظام التدريب والتربية والتعليم للمماليك

كان الصالح أيوب، ومن تبعه من الأمراء، لا يتعاملون مع المماليك كرقيق، بل كانوا يقربونهم جداً منهم، لدرجة تكاد تقترب من درجة أبنائهم، ولم تكن الرابطة التي تربط بين المالك والمملوك هي رباطة السيد والعبد، بل رابطة المعلم والتلميذ، أو رابطة الأب والابن، أو رابطة كبير العائلة وأبناء عائلته، حتى أنهم كانوا يُطلقون على السيد الذي يشتريهم لقب (الأستاذ) وليس لقب السيد، وكانت المدة التي يقطعها المملوك ليعتبر منتهياً من تعليمه تمر بمراحل ثلاث [١٣].

المرحلة الأولى من تعليم المملوك

تبدء من الصغر إلى سن البلوغ، حيث كان المماليك يجلبون صغاراً، تحقيقاً لرغبة الملوك والسلاطين، ثم يوزعون على طباق القلعة حسب أجناسهم، تحت إشراف جهاز إداري مُحكم، يتولى شئونه في التعليم والتدريب والإعداد العسكري، وكان هذا الجهاز يتكون من الموظفين المختصين بشئون الجيش، وبخلفيات الأمم التي ينتمون إليها، وبالدين الإسلامي الحنيف.

فيُبدأ بتعليمهم ما يحتاجون إليه من القرآن الكريم، بواسطة فقيه لكل طائفة، يأتيها كل يوم فيأخذ في تعليمها القرآن ومعرفة الخط، والتمرين بآداب الشريعة الإسلامية، وملازمة الصلوات والأذكار [١٤].

وكان من ضمن ما يتم الاهتمام به في هذه المرحلة، الاهتمام بالتمرينات والألعاب الرياضية مدة من الزمن، وكانت الصلاة تُؤدى في أوقاتها تحت المراقبة الدقيقة حتى تؤدى على وجهها الصحيح، وحتى تُصبح مَلَكة عند المماليك من صغرهم، ويؤمرون بحفظ بعض الأدعية المأثورة لتلاوتها في مناسباتها، وأهم ما في هذه المرحلة، إبراز التعاليم الدينية في صورة تعلقهم بها، حتى يُصبح أحب شيء إليهم هو الأخلاق الفاضلة [١٥].

لقد حرص الفقهاء والعلماء الذين تولوا مهام تربية وتعليم المماليك في نهاية عهد الدولة الأيوبية، على الإعداد الرباني لهم، وكانت خطواتهم تتم بكل هدوء وتدرج، وانصبَّت أهدافهم التربوية على تَعليمهم الكتاب والسُّنة، وتلاوة القرآن الكريم، وتطهير النفوس من أمراضها وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الجهاد، والدفاع عن حياض الإسلام والهجوم على أعدائه، فغرست فيهم قيم أخلاقية حميدة، كالإخلاص لله والصبر، والتوكل والاستعانة، وكثرة الدعاء والثبات والخوف والحذر من الله عز وجل، فشأوا على تعظيم أمر الدين الإسلامي، وتكونت لديهم خلفية واسعة عن الفقه وأمور الدين، وأصبحت مكانة العلماء عالية عندهم طيلة حياتهم، فكان هذا من أسباب النهضة الحضارية الثقافية العلمية الراقية التي تحققت في عهد المماليك.

المرحلة الثانية من تعليم المملوك

وهي وتبتدئ بسن البلوغ، حيث يُشرع في تعليم المملوك فنون الحرب، من رمي السهام ولعب الرمح والضرب بالسيف وركوب الخيل، ويُراعى في هذه المرحلة الأخذ بمبدأ الشدة، فلا يتسامح مع المملوك إذا أخطأ، إنما يُعاقب عقاباً قاسياً، إذا بدا

... التـ...ود في أخلاقه أو الانحراف ... المبادئ الدينية، ثم يُقسمون إلى فرق يتولى كل منهم معلم في العلوم الرياضية والتدريبات العسكرية، فيتمرنون على فنون من الرياضة العنيفة، مثل: السباحة والعوم لمسافات طويلة والمبارزة، ولعب الكرة راجلين وراكبين، وأما في أوقات الفراغ فإنهم يُتركون إلى هواياتهم العملية أو الدينية أو الأدبية، ومن هنا نُدرك السر في ظهور عدد من المماليك في صفوف الفقهاء والشعراء والكتاب البارزين [١٦].

وقد كان لهم خُداماً وأكابر من النواب يفحصون الواحد منهم فحصاً شافياً، ويؤخذونه أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عَثر أحد مؤدبيه الذي يُعلمه القرآن، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنباً، أو أخل برسم، أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة شديدة بقدر جُرمه، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جار أو تعدى [١٧].

المرحلة الثالثة من تعليم المملوك

وهي مرحلة ظهور المواهب العسكرية، ووضوح الاتجاهات والكفايات السياسية، وفي هذه المرحلة تعقد المبارزات بين المماليك، لمعرفة مقدار المهارة الفنية والعسكرية في صفوفهم، ثم يُرسلون إلى ميادين القتال لِيُعرف بلاؤهم هناك، ثم يُكافأ المبرزون منهم بمنحهم الحرية، وعِتقهم من الرق، وهناك من يبقى في الرق مع تولي المناصب، كالذين باعهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ثم اعتقهم ووضع أثمانهم في بيت مال المسلمين، وأيضاً كانوا يوضعون في وظائف عسكرية صغيرة، يترقى فيها المملوك حتى يبلغ الإمارة، فيمنحه السلطان لقبها، ثم يترقى في سلكها، حتى يصل إلى كبريات المناصب في الدولة، وكثيراً ما كانت ترتفع به مواهبه وعبقريته إلى منصب السلطنة ورياسة الدولة [١٨].

وبفضل هذه التربية المتميزة نبغ من بين هؤلاء من خلّد التاريخ بطولاتهم، كقطز وبيبرس، الذين عدهم أهل التاريخ، كالرشيد وصلاح الدين، واعتُبرعصرهما أحد العصور الذهبية في الإسلام [١٩].

نظام الأكل والثياب والراحة

كان لتعليم المماليك نظام دقيق، فليس لهم أن يَخرجوا من مقرهم، إطلاقاً، لا سيما ليلاً، وكان عليهم أن يَذهبوا إلى الحمام يوماً في الأسبوع، ويكون أكلهم اللحم والأطعمة والفواكه والحلوى، والفول المسلوق وغير ذلك، وكانوا يتسلمون كسوات فاخرة، وقد يأخذون مرتباً قليلاً، قد يصل إلى ثلاث أو عشرة دنانير في الشهر [٢٠].

وكان السلطان يذهب ليتفقد أحوال طعامهم وغيره، ولكن منذ عهد السلطان برقوق سمح للمماليك بالخروج من الطباق، [الثكنات العسكرية]، والمبيت خارجها في القاهرة، بحيث أصبحت فقط مكاناً لتعليمهم، وقد جرَّ هذا المستوى من الحرية للمماليك، إلى نسيان تقاليد المماليك في التعليم بالطباق، وأنهم أخلدوا إلى البطالة، وسعوا إلى نكاح النساء، حتى صارت المماليك أرذل الناس وأدناهم [٢١].

نظام التخرج وإنهاء الدراسة

كانت الدراسة في الطباق بين أربعة أو خمسة عشر شهراً، وإن كانت أحياناً تمتد إلى عدة سنين، فإذا انتهت الدراسة، أُعتق المملوك، ويكون الإعتاق بالجملة، ويُقام له احتفال خاص بحضره السلطان والأمراء، وذلك بُناء على شهادة تسمى إعتاق أو عتاقه [٢٢].

وعند ذلك يُسلم المملوك سلاحاً وفرساً ولباساً خاصاً من القماش، ويُمنح إقطاعاً يبقى له مدى الحياة، وحينئذ يُسمى عتيقاً أو معتوقاً، جمع معاتيق، ومُعتقه يُسمى أستاذه، أما رفاقه المتحررون معه، فيسمون خشداشية، مفردها

خشداش [٢٣].

وكان المماليك المتخرجون يُقسمون أقساماً، لكل جماعة منهم باش أو نقيب، أما الذين يَصلون إلى الإمارة وهي مرتبة تُهيء الوظاف الكبرى الحاكمة في البلاط والجيش، أو حتى للسلطنة نفسها، وكان من المفروض أن المملوك لا يَحصل على الإمارة إلا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة، فلا يليها إلا وقد تهذبت أخلاقه، وكثرت آدابه، وامتزج بروح الإسلام، وبَرع في الشئون الحربية، بحيث من كان منهم من يصير من كثرة علمه في مرتبة فقيه أو أديب أو حاسب،، لذلك كانوا سادة يديرون المماليك وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة.

لغة المماليك

هي اللغة التركية، وهي لغة مملوءة بالفارسية والعربية، حتى لو لم يكونوا تُركاً، فعدد كبير من سلاطين المماليك وأمرائهم وصلوا إلى السلطنة ووظائفها العالية، دون أن تكون لهم معرفة بالعربية، ومع ذلك، فكثير من المماليك أتقن العربية، وأصبح فصيح اللسان، وله مسائل في الفقه عويصة، يَرجع له فيها العلماء [٢٤].

رابطة الأستاذية بين المماليك

كانت أقوى الروابط بين المماليك هي رابطة الأستاذية، بين الأستاذ ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم، كما كان يوليهم عناية كاملة، بل إن الأستاذ كان يتناول طعامه مع مماليكه ويَحرص على مجالستهم وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم، لكي يضمن ولاءهم. وكان الملك المنصور قلاوون، يَخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك، ويأمر بِعَرضه عليهم ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فإن رأى فيه عيباً اشتد على المشرف والاستادار، نهرهما، وحلَّ بهما المكروه [٢٥].

وكان يقول: كان الملوك يعلموا شيئاً يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمرت

أسواراً، وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين. وهما المماليك. وكانت المماليك تقيم بهذه الطباق، [الثكنات العسكرية]. لا تبرح فيها. وقد قام هؤلاء المماليك بأدوار جيلية في خدمة مصر وبلاد الشام والإسلام، كما قاموا بالتصدي للمشروع المغولي، وقضوا على الوجود الصليبي في بلاد الإسلام [1] الطباق: [الثكنات العسكرية] [٢٦].

رابطة الخشداشية (الزمالة)

وهي من أقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصي في الدولة، وذلك أن هؤلاء الذين جُلبوا أطفالاً، ثم عُزلوا عن المجتمع في معسكرات صارمة القوانين، وعاشوا حياتهم المبكرة في سن الشباب سوياً، لم يكن الأمان موجوداً لهم والطمأنينة، إلا مع بعضهم البعض، ولهذا تميزت الفرقة المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصي، فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذي اشتراهم، فالمماليك الظاهرية مثلاً نسبة إلى الظاهر بيبرس، والمعزية نسبة إلى المعز آيبك، والناصرية نسبة إلى الناصر محمد بن قلاوون، وهكذا، ومن ناحية أخرى أدى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية في سبيل الوصول إلى الحكم [٢٧].

هل كل المماليك أجلاب؟

كلمة (المماليك) تعني الرقيق المجلوب من أسواق النخاسة، وهذا المعنى لا يمكن أن ينسحب بهذا المدلول على كل هؤلاء المماليك، لأننا نعلم أن جماعات من الأتراك الفارين من وجه المغول إلى الشرق الأدنى، دخلوا في خدمة سلاطين مصر، ولم تمض سوى فترة وجيزة حتى نشأ بين هذه الجموع التركية، جيل جديد من الحكام، بسط سلطانه على مصر وسوريا حتى الفتح العثماني، كما أن بعض هؤلا المماليك، كان من سلالة ملكية يتصل في نسبه إلى ملك خوارزمشاه، مثل السلطان (قطز) بطل موقعة عين جالوت، ولقد كفل نظام تربيتهم الدقيق، الذي يناظر نُظم التعليم الداخلية الآن في أي مدرسة أو جامعة أو كلية عسكرية، كفل لهؤلاء القوم، صيانة

مركزهم الأدبي، كما أتى ثماره في الحفاظ على أخلاقهم، وأتاح لهم فرصة الظهور في المجالات المختلفة مما عاد على البلاد بالخصب والغنى، وعلى العلم والثقافة والفنون، بما فاق كل إنتاج علمي وثقافي وفني في العالم الإسلامي [٢٨].

موقف ابن عبد السلام من المماليك

رأى الشيخ عز الدين عبد السلام، أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب، ودَفع ثمنهم من بيت مال المسلمين، واستغلهم في خدمته وجيشه، وتصريف شئون الدولة يمارسون البيع والشراء وهو تصرف باطل، لأن المملوك لا يَنفذ تَصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً ولا شراء، فضايقهم ذلك وشجر بينهم وبينه كلام حول هذا المعنى، فقال لهم بائع الملوك: أنتم الآن أرقاء لا ينفذ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستصحب عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمت على بيعكم فاحتدم الأمر، وبائع الملوك الشيخ عز الدين عبد السلام مصمم على رأيه، ولا يُصحح لهم بيعاً ولا شراء، ولا نكاحاً.

وتعطلت مصالح المماليك بهذا الفعل، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي اشتاط غضباً، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى الشيخ عز الدين عبد السلام، فقال: نعقد لكم مجلساً ويُنادىَ عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرَفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يَرجع فخرجت من السلطان كلمة فيها غلظة حاصلها الإنكار على الشيخ، في دخوله في هذا الأمر، وإنه لا يتعلق به [٢٩].

وهنا أدرك الشيخ العز أن أعوان الباطل تمالؤوا عليه، ووقفوا في وجه الحق وتطبيق الشرع، فلجأ إلى سلاحه الضعيف في ظاهره القوي في حقيقته، وأعلن الانسحاب، وعزل نفسه عن القضاء، وقرر الرحيل عن القرية الظالم أهلها، والتي ترفض إقامة شرع الله، ونفذ العز قراره فوراً، وحَمل أهله، ومتاعه على حماره، وركب حماراً آخر وخَرج من القاهرة، وما إن انتشر الخبر بين الناس في مصر حتى تحركت

جموع المسلمين وراءه. فلم يبق امرأة ولا صبي ولا رجل يؤوبه إليه إلا خرج خلفه. ولا سيما العلماء والصالحين. والتجار. وأمثالهم. ولسان حالهم يقول: لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله. القائمون بالكتاب والسنة.

ورُفعت التقارير إلى السلطان بالقاهرة. وقال المخلصون للسلطان: متى راح ذهب ملكك. فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيَّب قلبه. فرَجع أن ينادى على ملوك مصر وأمرائها ويبيعهم. وأرسل إليه كبيرهم. نائب السلطان. بالملاطفة والشيخ لم يتغير. لأنه يريد إنفاذ حكم الله. عندئذ إنزعج نائب السلطان وأصدر قراره بقتل الشيخ جسدياً وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض والله لأضربنه بسيفي هذا بنفسه في جماعته. وجاء إلى بيت الشيخ والسيف في يده صلتاً وطرق الباب فخرج إليه ولد الشيخ. فرأى أمراً جلداً. وعاد إلى أبيه. وأخبره الحال. فقال الشيخ ممتلئاً إيماناً بربه: يا ولدي أبوك أقل من أن يٌقتل في سبيل الله. فلما رآه نائب السلطان اهتزت يده وارتعدت فرائصه وسقط أرضاً. فبكى. وسأل الشيخ أن يدعو له قائلاً: يا سيدي. خيراً أي العمل؟ فقال الشيخ أنادي عليكم وأبيعكم. قال نائب السلطان: ففيما تصرف ثمننا؟ قال الشيخ: في مصالح المسلمين. قال ناب السلطان: من يقضبه؟ قال الشيخ: أنا وأنفذ الله أمره على يد الشيخ. فباع الأمراء منادياً عليهم واحد تلو الآخر. وغالى سلطان العلماء في ثمنهم وقَبَضه وصَرفه في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد. وسجل التاريخ موقاف فريدة للشيخ العز بن عبد السلام. لم يشهد العالم أجمع مثلها [٣٠].

أخبار شجرة الدر

وفاة الملك الصالح

خَرج الحملة الفرنسية السابعة، من دمياط في ١٢ شعبان ٦٤٧ هجرية متجهين جنوباً عبر النيل صوب القاهرة، وكان من المؤكد أنهم سيمرون على المنصورة. كما توقع الصالح أيوب. ولكن سبحان اللّه في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ. توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه اللّه، وهو في المنصورة يُعد الخطة مع جيوشه لتحصين المدينة

ولو لم يكن من محاسن السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلا جلده عند مقابلة العدو بالمنصورة، وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد والذبّ عن المسلمين لكفاه ذلك. فما كان أصبره وأغزر مروءته!

وكان موته مصيبة خطيرة كبيرة على المسلمين. ليس فقط لفقد الزعيم الصالح، ولكن لفقدان البديل والخليفة له، وخاصة في ذلك التوقيت. والبلاد في أزمة شديدة، وميناء دمياط محتل، وجنود الصليبيين في الطريق.

كانت زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب هي، السيدة: شجرة الدر. ولقد تصرفت هذه الزوجة في هذه الظروف بحكمة بالغة. وشجرة الدرّ هذه كانت جارية من أصل أرمني أو تركي، اشتراها الصالح أيوب ثم أعتقها وتزوجها، ولذلك فهي في الأصل أقرب إلى المماليك، منها إلى الأيوبيين [٣١].

في كل هذه الفترات التي دخل فيها المماليك مصر، وهي من أيام الطولونيين، والذين حكموا من سنة ٢٥٤ هـ إلى سنة ٢٩٢ هـ أي قبل هذه الأحداث بحوالي أربعة

قرون كاملة. وحتى الآن، كان الجيش يعتمد تقريباً على المماليك. ومع ذلك لم يفكروا مطلقاً في حكم ولا سيادة. بل كانوا دائماً أعوان الملوك. وكانت فكرة الملك بعيداً عن أذهانهم. على الأقل في تلك الفترة. لكونهم من المماليك الذين يُباعون ويُشترون. ولم تكن لهم عائلات معروفة ينتمون إليها. مما كان يُشعرهم بالغربة في البلاد الجديدة التي يعيشون فيها. كما أن الخطر لم يكن يمسهم شخصياً. فهم تبع للسلطة الجديدة. ولا يُستهدفون لذواتهم [٣٢].

ولكن الآن وفجأة، وفي حالة لم تظهر من قبل. صار الأمر والنهي في يد هؤلاء المماليك. وصاروا طرفاً في المنافسة على السلطة. باعتبارهم القوة الضاربة واليد الباطشة. وطالما دخلوا حلبة الصراع على السُّلطة. فلابد من أن تسعى القوى المضادة والمعادية للنيل منهم. وإبعادهم. وبالفعل بدأت المؤمرات تدبر لهم. والدائرة تدور عليهم. والملوك القائمين بالأمر ضعفاء. والقوة كلها بأيدي المماليك إلى حين الفوز بالأمر. أو يُفلت من أيديهم. وساعتها تدور عليهم دائرة البطش والانتقام.

ولقد فكر المماليك. إذا كان الأمر على كل حال لن يخلو من المخاطر. فلماذا لا يجربون حظهم في الحكم؟! لكن صعود المماليك مباشرة إلى الحكم. لن يكن مقبولاً. بل سيكون مستهجناً جداً في مصر. فالناس لا تنسى أن هؤاء المماليك ما هم إلا عبيد. يُباعون ويشترون. والحرية حسب الفقه الإسلامي شرط أساسي للحاكم. وحتى لو أُعتقوا فإن تقبُّل الناس لهم كحُكام. سيكون صعبًا. وحتى لو كثرت في أيديهم الأموال. وتعددت فيهم الكفاءات. وحكموا الأقاليم والإقطاعات. فهم في النهاية مماليك. وصعودهم إلى الحكم يحتاج إلى حجة مُقنعة للشعب الذي لم يألفهم في كراسي السلاطين.

كل هذا دَفَعَ المماليك البحرية الصالحية إلى التفكير الجاد في مقتل طوران شاه. في فترة انتقالية تُمهد الطريق لحكم المماليك الأقوياء. وفي ذات الوقت لا تَقْلِب عليهم الدنيا في مصر أو في العالم الإسلامي [٣٣].

شجرة الدرّ بعد وفاة الصالح أيوب

لقد كتمت شجرة الدرّ خبر وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقالت أن الأطباء منعوا زيارته، وأرسلت بسرعة إلى ابنه، طوران شاه، وكان في هذا الوقت يحكم مدينة كيفا من مدن تركيا الآن، فأبلغته بخبر وفاة أبيه، وضرورة حضوره بسرعة، لاستلام مقاليد الحكم في مصر والشام، ثم اتفقت مع كبير وزراء الملك الصالح: فخر الدين يوسف على إدارة الأمور إلى أن يأتي طوران شاه، وكلّفت فارس الدين أقطاي، وركن الدين بيبرس بالاستمرار في الإعداد للمعركة الفاصلة في المنصورة.

وقيل إن الملك الصالح نجم الدين أيوب لم يعهد إلى أحد بالمُلك، بل قال للأمير حسام الدين بن أبي علي: إذا مت لا تُسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله، ليَرى فيها رأيه، فإنه كان يَعرف ما في ولده المعظم طوران شاه من الهوج. فلما مات السلطان أحضرت زوجته شجر الدر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والطواشي جمال الدين محسن، وكان أقرب الناس إلى السلطان، وإليه القيام بأمر مماليكه وحاشيته، وأعلمتهما بموت السلطان، ووصتهما بكتمان موته، خوفاً من الفرنج. وكان الأمير فخر الدين عاقلاً مدبراً، خليقاً بالملك، جواداً محبوباً إلى الناس، فاتفقا مع شجرة الدر على القيام بتدبر المملكة، إلى أن يقدم الملك المعظم طوران شاه. فأحضرت شجر الدر الأمراء الذين بالمعسكر، وقالت لهم: إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له، ولابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه صاحب حصن كيفا، أن يكون سلطاناً بعده، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر، والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة، فقالوا كلهم سمعاً وطاعة، ظناً أن السلطان حي، وحَلفوا بأسرهم، وحلفوا سائر الأجناد والمماليك السلطانية [٣٤].

وهكذا سارت الأمور بصورة طيبة بعد وفاة الملك الصالح، ولم يحدث الاضطراب المتوقع نتيجة هذه الوفاة المفاجئة، وفي هذه الظروف الصعبة، ومع كل احتياطات شجرة الدرّ إلا أن خبر وفاة الملك الصالح أيوب تسرب إلى الشعب، بل ووصل إلى الصليبيين، مما أدى إلى ارتفاع حماسة الصليبيين، وانخفاض معنويات الجيش

المصري. وإن ظل ثابتاً في منطقة المنصورة. ووضع فارس الدين أقطاي وركن الدين بيبرس خطة بارعة. لمقابلة الجيش الفرنسي في المنصورة. وعرضاها على شجرة الدر. وكانت شجرة الدرّ تمثل الحاكم الفعلي لحين قدوم طوران شاه ابن الصالح أيوب. وأقرت شجرة الدرّ الخطة. وأخذ الجيش المصري مواقعه. واستعد للقاء [٣٥].

المماليك والحملة الصليبية السابعة

عندما قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة. توفي الملك الصالح أيوب كما قلنا. وكانت محنة عظيمة ألمت بالمسلمين [٣٦].

وكان عُمره عند وفاته ٤٤ سنة. وقد عهد لولده الملك المعظم طوران شاه. ولم يكن موجوداً في مصر. وظهرت على مسرح الأحداث زوجته شجرة الدر وأدركت خطورة إذاعة خبر وفاة زوجها نجم الدين على الجُند. فقررت إخفاء خبر الوفاة. ولم يَعرف ذلك إلا الخاصة. وقدمت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين تورنشاه قائداً عاماً للجيوش. ونائباً للسلطان أثناء مرضه. وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً ووصلوا إلى مدينة فارسكور. في الثاني عشر من ديسمبر ١٢٤٩م. ومنها تقدموا إلى شار مساح ثم البرامون. وأصبح بحر أشمون هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين

وعند ذلك توقفت القوات الصليبية. وأقامت معسكرها على الضفة الشمالية. وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس. وظلوا على هذا الحال قرابة شهر ونصف. ثم شَرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه على الضفة الجنوبية لبحر أشمون. ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين. فقد أمطرهم المسلمون وابلاً من القذائف ولم يتمكنوا من إقامته. وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة. دلّهم عليهارجل بعدما رشوه بالمال [٣٧].

وتمكنوا من العبور إلى المعسكر الإسلامي. وكانت خطة الملك لويس أن يعبر هو وإخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب. ويقوم بتعمية الجيش الصليبي

بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور، تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة، يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة.

وبالفعل عبرت القوات الصليبية في الثامن من فبراير عام ١٢٥٠م، وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عُمق المخاضة، وكان في طليعة القوات الصليبية الكونت آرتو، الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجوماً، وحقق نصراً عليها، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة، وقع فيها فخر الدين شهيداً، فغَسل بذلك عار إنسحابه من جزيرة دمياط، واغتر الكونت آرتو بالنصر الذي أحرزه، ولم يبال بأوامر الملك لويس التاسع ونصائح للقادة الصليبيين بالتريث، حتى تتكامل القوات الصليبية، وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه [٣٨].

معركة المنصورة

اغتر الكونت روبرت آرتو بقوته، وتابع زحفه إلى المنصورة لاقتحامها، والقضاء على الجيش الأيوبي، وأعرض عن توسلات الراوية بأن ينتظر وصول الملك والجيش الرئيسي، ونصحه بعضهم بالحيطة والحذر، ثم بادر باقتحام المنصورة [٣٩].

وتحولت المنصورة إلى ساحة لحرب الشوارع، وتولى قيادة المسلمين الأمير بيبرس البندقداري، فأقام جنده في مراكز منيعة داخل المدينة، وانتظروا حتى تدفق الصليبيون بجموعهم إلى داخلها، ولما أدركوا أنهم بلغوا أسوار القلعة التي اتخذها المصريون مقراً لقيادتهم، خَرج عليهم المماليك في الشوارع والحارات والدروب، وأمعنوا في قتالهم، ولم يستطع الصليبيون أن يلتمسوا لهم سبيلاً إلا الفرار، فوقع الاضطراب بين الفرسان، ولم يُفلت من القتل إلا من ألقى بنفسه في النيل، فمات غريقاً أو كان يُقاتل في أطراف المدينة، فكانت المنصورة أول النصر، ومقبرة الجيش الصليبي [٤٠].

وجزع لويس التاسع بتلك الصدمة، لكنه تملك نفسه، وبادر إلى إقامة خط إمامي لمواجهة ما توقعه من هجوم، من قبل فُرسان المماليك ضد قواته. كما أقام جسراً من الصنوبر على مجرى البحر الصغير، عَبَرَ عليه النيل مع رجاله. كما ووزع رُماته على الطرف البعيد للنهر حتى يكفلوا الحماية للجند عند عبورهم، متى دعت الضرورة إلى ذلك. لكن المماليك لم يتركوه وشأنه وبادروا إلى شن هجوم على المعسكر الصليبي، وقاد الملك الفرنسي المعركة بنفسه، وأجبر المسلمين على التراجع نحو مدينة المنصورة، وعلى رغم من الانتصار الصليبي، إلا أن موقف الصليبيين ازداد سوءاً بسرعة، بعد أن فقدوا نسبة كبيرة من فرسانهم في معركة المنصورة، وقلت المؤن، وانتشر المراض في معسكرهم، وظل الملك الفرنسي زهاء ثمانية أسابيع، في معسكره أمام المنصورة، آملاً في أن يحدث انقلاب في مصر، أو يقوم المصريون بثورة على الحكم الأيوبي [٤١].

وصول الملك المعظم طوران شاه

هو ابن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي ابن مروان، سار من حصن كيفا إلى دمشق، لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، سنة ٦٤٧هـ فنزل عانة في خمسين فارساً من أصحابه، يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة ٦٤٧هـ وخَرج منها يوم الأحد بريد دمشق على طريق السماوة في البرية، فنزل القصير في دهليز ضربه له الأمير جمال الدين موسى بن يغمور نائب دمشق، يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر رمضان [٤٢].

ودَخل المعظم طوران شاه من الغد، وهو يوم السبت إلى دمشق، ونَزل بقلعتها، فكان يوماً مشهوداً، وقام الأمير جمال الدين بخدمته، وحَلف له الأمراء، وتسلطن في يومئذ، وخَلع المعظم على الأمراء وأعطاهم أموالاً جزيلة، بحيث أنه أنفق ما كان في قلعة دمشق، وهو ثلاثمائة ألف دينار، واستدعى من الكرك مالاً آخر حتى أنفقه، وأفرج عمن كان بدمشق في حبس أبيه، وأتته الرسل من حماة وحلب تهنئه بالقدوم

[٤٣].

ولأربع مضين من شوال سنة ٦٤٧هـ. سقطت البطائق إلى العسكر والقاهرة. بوصول الملك المعظم إلى دمشق وسلطته بها فضُربت البشائر بالمعسكر وبالقاهرة.

وسار السلطان من دمشق يوم الأربعاء السابع عشر من شوال. من نفس العام يُريد مصر. بعدما خَلع على الأمير جمال الدين، وأقره على نيابة السلطة بدمشق. وقدم معه القاضي الأسعد شرف الدين هبة اللّه بن صاعد الفائزي، وكان مقيماً بدمشق عند الأمير جمال الدين. وقدم معه أيضاً هبة اللّه بن أبي الزهر بن حشيش الكاتب النصراني، وقد وعده السلطان بوزارة مصر. فأسلم وتلقب بالقاضي معين الدين. وسيَّره السلطان أول يوم من ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ. إلى قلعة الكرك ليحتاط على خزائنها. فأنهى أشغاله بها ولحقه في الرمل، وأسلم على يده هناك [٤٤].

وعندما تواترت الأخبار في القاهرة بقدوم السلطان. خَرج قاضي القضاة بدر الدين السنجاري، فلقيه بغزة وقَدِم معه. وخَرج الأمير حسام الدين بن أبي علي نائب السلطان إلى الصالحية. فلقيه بها يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة. ونَزل السلطان المعظم طوران شاه في قصر أبيه. ومنه يومئذ اُعلن بموت الملك الصالح نجم الدين أيوب. ولم يكن أحد قبل هذا اليوم يَنطق بموته. بل كانت الأمور على حالها، وكان الدهليز الصالحي والسماط ومجيء الأمراء للخدمة. على ما كان عليه الحال في أيام حياته. حتى لا يتسرب خبر الموت. وشجر الدر تدبر أمور الدولة كلها، وتقول: السلطان مريض، ما إليه وصول. فلم يتغير عليها شيء. إلى أن استقر الملك المعظم بالصالحية [٤٥].

فتسلم مملكة مصر، وخَلع على الأمير حسام الدين بن أبي علي خلعة سنية. ومنطقة وسيفا فيهما ثلاثة آلاف دينار مصرية. وأنشده الشعراء عدة تهاني، وجرت

بين يديه مباحثات ومناظرات في أنواع من العلوم، وكان السلطان المعظم قد مهر في العلوم، وعرف الخلاف والفقه والأصول، وكان جده الملك الكامل يُحبه لميله إلى العلم، ويُلقي عليه المسائل المشكلة، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها في مجلسه. ولازم المعظم الاشتغال إلى أن برع، إلا أنه فيه هوج وخفة، مع غرامه بمجالسة أهل العلم من الفقهاء والشعراء.

ثم إنه رحل من الصالحية ونزل تلبانة، ثم نزل بعدها منزلة ثالثة، وسار منها إلى المنصورة، وقد تلقاه الأمراء المماليك، فنزل في قصر أبيه وجده يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة، سنة ٦٤٧هـ. فأول ما بدأ أن أخذ مماليك الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الصغار، وكثيراً من مُخلفه، بدون القيمة، ولم يُعط ورثته شيئاً، وكان ذلك بنحو الخمسة عشرة ألف دينار، وأخذ يسب فخر الدين ويقول: أطلق السكر والكتان، وأنفق المال وأطلق المحابيس إيش ترك لي [٤٦].

طوران شاه يقود المعركة

وصل طوران شاه إلى المنصورة يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة، وقيل في ١٧ ذو القعدة ٦٤٧هـ/٢١ شباط ١٢٥٠م، بعد أن أعلن سلطاناً في دمشق، وهو في طريقه إلى مصر، وسُلمته شجرة الدر مقاليد الأمور، فأعد خطة عسكرية كفلت له النصر النهائي على الصليبيين [٤٧].

وبوصول طوران شاه إلى مصر ارتفعت الروح المعنوية عند المصريين، وبين صفوف المماليك، واستبشر الناس بطلعته خيراً، وسُرعان ما أمر بإنشاء أسطول من السفن الخفيفة، نقلها إلى فروع النيل السفلى، وأنزلها في القنوات المتفرعة، فأخذت تعترض طريق السفن الصليبية التي تجلب المؤن للجنود من دمياط، فقَطَعَ بذلك الطريق عليها، وحالَ دون اتصال الصليبيين بقاعدتهم دمياط [٤٨].

وفَقد الصليبيون عدداً كبيراً من سفنهم، قيل أن عددها قارب الثمان وخمسين سفينة، وانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا

محصورين لا يطيقون المقام، ولا يقدرون على الذهاب وتشجع المسلمون وطمعوا فيهم وأدرك لويس التاسع استحالة الزحف نحو القاهرة، في ظل هذه الأوضاع. وبدأ يُفكر في العودة إلى دمياط، وفعلاً أمر بالارتداد، وأحرق الصليبيون ما عندهم من الخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، كما أدرك أن عملية الانسحاب لن تكون سهلة، وأن المماليك سوف يُطاردون جيشه، لذلك لجأ قبل أن يبدأ بعملية الانسحاب إلى فتح باب المفاوضات مع طوران شاه، على أساس ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس [٤٩].

غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة، وكان طبيعياً لأن يَرفض طوران شاه هذا الإقتراح، وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك، في ليلة الأربعاء ثالث المحرم عام ٦٤٨ هـ / نيسان عام ١٢٥٠م، رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينة دمياط، وانحدرت مراكبهم في البحر قبالتهم، وبدأت عملية المهندسون الصليبيون، بقصد تدمير الجسر الذي أقاموه لإجتياز البحر الصغير، فركب المسلمون أقفيتهم، بعد أن عدوا برهم واتبعوهم، فطلع صباح نهار يوم الأربعاء وقد أحاط بهم المسلمون، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وبلوا فيهم سيوفهم، واستولوا عليهم قتلاً وأسراً، وهاجموه من كل ناحية [٥٠].

وبفضل ثبات الملك الفرنسي لويس التاسع وحُسن إدارته لعملية الانسحاب، وصل الصليبيون إلى شرمساح عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط، ولكن كان هذا الملك مريضاً، وأحاط المماليك بجيشه من كل جانب، وراحوا يتخطفونهم، وشنوا عليهم هجوماً عاماً في فارسكور ولم يقو الملك على القتال، وتم تطويق الجيش بأكمله، وحلت به هزيمة منكرة، والتجأ الملك وعدة من أكابر قومه إلى تل المنية، وطلبوا الأمان فأمَّنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي، ونزلوا على أمانه، ووقع كل الأفراد ممن كان بصحبته بين قتيل وجريح وأسير، وسيق الملك الفرنسي لويس التاسع مكبلاً بقيدٍ من حديد إلى المنصورة، وسُجن في دار فخر الدين إبراهيم بن لقمان، ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظمي، واعتقل معه

أخوه، وأُجري عليه راتب في كل يوم. وتقدم أمر الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطودي، أحد من وصل معه من بلاد الشرق، بقتل الأسرى من الفرنج. فكان سيف الدين يَخرج كل ليلة منهم ما بين الثلاثمائة والأربعمائة، فيضرب أعناقهم ويرميهم في البحر، حتى فنوا بأجمعهم.

وكانت معظم الحرب في فارسكور، وبلغت عدَّة القتلى بين: عشرة آلاف في قول المقل وثلاثين ألفاً في قول المكثر، وأُسر من الفرنج عشرات الألوف، بما فيهم صُنَّاعهم وسوقتهم، وغَنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يُحصى كثرة، وأبلت الطائفة المملوكية البحرية، لا سيما قائدهم بيبرس البندقداري، في هذه المعركة بلاء حسن، وبان لهم أثر جميل [٥١]

وطُرحت القتلى فستروا وجه الأرض من كثرتهم، وكان الفارس العظيم يأتيه وشاقي يسوقه وراءه كأذل ما يكون، وكان يوماً لم يشاهد المسلمون ولا سمعوا بمثله، ولم يقتل في ذلك اليوم من المسلمين مائة نفس [٥٢].

صور من شجاعة المماليك

تعددت صور شجاعة المماليك البحرية، وشهد التاريخ ببسالة الدور الذي لعبه المماليك في مقاومة الصليبيين، فذكر جوانفيل أن الكونت بواتييه، والكونت فلاندر، وبعض قادة قواتهم، كان يُرسلون إلى الملك لويس يتوسلون إليه: أن يقصر عن الجريمة، لعجزهم عن متابعته لضغط المماليك الشديد عليهم [٥٣].

ويقول ثم جاء للكونتابل جندي كان يعمل صولجاناً، جاء وهو يرجْف خوفاً، وأخبره أن الترك قد أحدقوا بالملك، وأنه في خطر عظيم فرَجعنا، وأبصرنا بيننا وبينه ما لا يقل عن ألف مملوك، والملك قريب من النهر والمماليك يَدفعون قواته ويَضربون السيوف والصولجانات، وأرغم القوات الأخرى على التقهقر [٥٤].

وقد وصفهم أحد المؤرخين عن تلك المعركة بقوله: والله لقد كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف،

فلله درهم لقد أحيوا في ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل فارس من الترك قلبه من حديد. فلم تكن إلا ساعة وإذا بالأفرنج قد ولوا عل أعقابهم منهزمين. وأسود الترك لأكتاف خنازير الأفرنج ملتزمين [٥٥].

وتضمنت انتصارات المماليك على الصليبيين، أنهم استطاعوا الاستيلاء على ثمانين سفينة من سفن الصليبيين، بعد أن قاموا بسحب بضعة سفن من سفن المسلمين إلى اليابسة، وأنزلوها ثانية إلى الماء على بعد فرسخ من شمال معسكرهم. فاستحالت عودة الفرنج الذين ذهبوا إلى دمياط لجلب المؤنة، وتم قتل جميع بحارة الثمانين سفينة. كما استولوا على اثنين وثلاثين مركباً، مما أضعفهم وطلبوا الصلح [٥٦].

لويس التاسع وشروط الصلح

لم يهتم المسلمون كثيراً، بعد انتصارهم، بأمر دمياط. ونظروا إلى أبعد من ذلك ففكروا في استرداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام. فاستغلوا وجود الملك الفرنسي لويس التاسع، في الأسر لتحقيق هذه الغاية. لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه، بل تخص الملك كونراد ابن الإمبراطور فريدريك الثاني [٥٧].

وعبثاً حاول طوران شاه إرغامه على الاعتراف، وأصرَّ لويس التاسع على رأيه، وقال: أنه أسيرهم، ولهم أن يَفعلوا به ما يشاؤون. فبادر تورنشاه إلى إغفال هذا الموضوع، لكنه قرَّر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح. إذ كان لزاماً على الملك الفرنسي أن ينفذ عدة شروط:

- يفتدى نفسه بأن يؤدي مليون بيزنتة وهذا مبلغ كبير.
- يُطلق سراح الأسرى المسلمين.
- يُسلم دمياط إلى المسلمين.

- عدم إطلاق سراح الأسرى الصليبيين إلا بعد استكمال دفع الفدية.

- يستمر الصلح مُدة عشر سنوات.

وقد وافق الملك الفرنسي لويس التاسع على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها [٥٨].

وانتظر لويس لبعض الوقت، حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين، ودَخلت القوات المدينة في يوم الجمعة، وقيل السبت لثلاث مضين من صفر، سنة ٦٤٨هـ السابع من عام ١٢٥٠م، بعدما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام، ودَفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه،بعد أن تم جمعه بصعوبة، وأُطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط، ثم تابعهم باقي الصليبيين.

وفي يوم الأحد الربع من صفر عام ٦٤٨هـ الموافق الثامن من مايو عام ١٢٥٠م، أقلعت سفن الفرنج واتخذت طريقها إلى عكا، حاملة فلول الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم، وحلت بها الكوارث [٥٩].

ولقد ترتب على هزيمة لويس التاسع عام ١٢٥٠م/٦٤٨هـ ارتفاع شأن ومكانة المماليك، وظهر بوضوح الدور البارز الذي قاموا به في معركة فارسكور، وكيف كلّل جهادهم لأعداء الإسلام بالنجاح، ولقد كان لذلك أثره في ارتفاع شأنهم وسيصبح سندهم التاريخي في الوصول إلى العرش، وليس غريباً أن العام الذي شهد الانتصار على الغزاة، وهو عام ١٢٥٠م/٦٤٨هـ هو ذاته الذي شهد نهاية طوران شاه حريقاً غريقاً لتنتهي الدولة الأيوبية، ويتم إفساح الطريق لدولة المماليك، لتدافع عن الإسلام بقوة وعزيمة رائعة [٦٠].

مقتل طوران شاه وزوال الدولة الأيوبية

بعد هذيمة الفرنسيين، ثم رحيلهم، أخذ الملك المعظم طوران شاه في أبعاد رجال الدولة، فأخرج الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل، من قلعة

الجبل إلى الشوبك، واعتقله بها. وأخرج الملك السعيد فخر الدين حسن بن الملك العزيز عثمان بن العادل أبي بكر بن أيوب من مصر إلى دمشق. فلما وصل دمشق قَبض عليه ابن يغمور واعتقله.

وفي يوم الجمعة لخمسٍ من المحرم: ورد إلى القاهرة كتاب السلطان. إلى الأمير حسام الدين أبي علي نائب السلطنة بالقدوم عليه. وأقام بدلاً منه في نيابة السلطة بالقاهرة الأمير جمال الدين أقوش النجيبي، ووصل الأمير أبو علي إلى المعسكر، فنزل به مطرح الجانب. بعدما كان عدة الملك الصالح وعمدته. وبَعث الملك المعظم طوران شاه إلى شجر الدر يتهددها. ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر. فداخلها منه الخوف. لما بدا منه الهوج والخفة. وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته في حقه. من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر. وتسلم المملكة. وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها. فأنفوا لها. وحنقوا من أفعال السلطان. وكان السلطان المعظم طوران شاه قد وعد الفارس أقطاي، لما أتاه في حصن كيفا بأن يؤمّره. فلم يف له بذلك. ولما ذكره بوعده. على لسان بعض خواصه رد قائلاً: أعطيه جباً مليحاً يليق به. فتنكر له أقطاي وكتم الشر إلى وقته. فلما جاءه كتاب شجرة الدر. حرك منه ساكناً [٦١].

وانضاف إلى هذه الأمور. أن السلطان المعظم طوران شاه. أعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته. وأهمل الأمراء والأكابر. أهل الحل والعقد في البلاد. وأبعد غِلمان أبيه. ولاذ بجماعته الذين قدموا معه. وولاهم الوظائف السلطانية. وقدم الأراذل: وجعل الطواشي مسروراً. هو خادمه. جعله أستادار السلطان. وأقام صبيحاً. وكان عبداً حبشياً فحلاً. أقامه أمير جاندار. وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة. وأمر أن يُصاغ له عصاً من ذهب. وأساء السلطان إلى المماليك جميعاً وتوعدهم. وصار إذا سكر في الليل جمع ما بين يديه من الشمع. وضرب رءوسها بالسيف حتى تنقطع. ويقول: هكذا أفعل بالبحرية. يقصد المماليك البحرية. ويُسمي كل واحد منهم باسمه. واحتجب أكثر من أبيه عن الناس وعن

رجاله، مع الانهماك الشديد على الفساد بمماليك أبيه، ولم يكونوا يألفون هذا الفعل من أبيه، وكذلك فعل بخطايا أبيه [٦٢].

وقد حذره أبوه في وصيته بترك شرب الخمر، ولكن يبدو أنه لم يسمع النصيحة وقد جاء في الوصية: يا ولدي قلدت إليك أمور المسلمين، فأفعل فيهم ما أمرك به اللّه وبه رسوله يا ولدي إياك والشراب فإن جميع الآفات، وما تأتي على الملوك إلا من الشراب [٦٣].

ومن ضمن تصرفات طوران شاه التي أثارت حفيظة البحرية ضده، أنه حين علم أن الملكة زوجة الملك لويس التاسع المعتقل لديه ولدت له إبناً في دمياط، سيَّر إليها عشرة آلاف دينار ذهباً، ومَهداً للطفل ذهبياً وحللاً ملكية [٦٤].

وصار مع هذا جميع الحل والعقد، والأمر والنهي لأصحابه الذين قدموا معه، فنفرت قلوب المماليك البحرية منه، واتفقوا على قتله.

كيف قُتل السلطان طوران شاه

قرر المماليك البحرية التخلص من طوران شاه، وتزعم المؤامرة مجموعة من الأمراء البحرية، منهم فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأيبك التركماني، وتم تنفيذ المؤامرة في صباح يوم الاثنين ٢٨، وقيل ٢٦ محرم ٦٤٨هـ / ٢ أيار ١٢٥٠م وكان السلطان آنذاك في فارسكور يحتفل بإنتصاره ويتهيأ لإستعادة دمياط [٦٥].

وما هو إلا أن مُدَّ السماط بعد نزوله بفارسكور، في صباح يوم الأثنين ٢٨، وقيل ٢٦ محرم ٦٤٨هـ / ٢ أيار ١٢٥٠م، وجَلس السلطان على عادته، تقدم إليه واحد من البحرية – وهو بيبرس البندقداري، الذي صار إليه مُلك مصر فيما بعد، وضربه بالسيف: فتلقاه السلطان المعظم طوران شاه، بيده فبانت أصابعه، والتجأ إلى البرج الخشب الذي نُصب له بفارسكور، وهو يَصيح: من جرحني؟

قـالوا: الحشيشـة. فقـال: لا والله إلا البحريـة! والله لا أبقيـت منـهم بقيـة. واستدعى المزين ليداوي يده. فقال البحرية بعضهم لبعض: تمموه وإلا أبادكم. فدخلوا عليه بالسيوف. ففر السلطان المعظم طوران شاه. إلى أعلى البرج وأغلق بابه. والدم يسيل من يده. فأضرموا النار في البرج. ورموه بالنشاب فألقى نفسه من البرج. وتعلق بأذيال الفارس أقطاي. واستجار به فلم يُجره. وفر السلطان المعظم طوران شاه. هارباً إلى البحر. وهو يقول: ما أريد مُلكاً. دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمين. ما فيكم من يصطعني ويجيرني!

فلم يُجبه أحد من جموع المماليك الواقفون. ينظرون الواقعة. والنشاب يأخذه من كل ناحية. وسبحوا خلفه في الماء. وقَطَّعوه بالسيوف قطعاً. حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً. وفر أصحابه واختفوا.

وتُرك السلطان المعظم طوران شاه. على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخاً. لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه. إلى أن شَفع فيه رسول الخليفة. فحُمل إلى ذلك الجانب. فدفن. فكانت مدة ملكه أحداً وسبعين يوماً [٦٦].

وبوفاة طوران شاه انقضت دولة بني أيوب. بعد أن أقامت إحدى وثمانين سنة وسبعة عشر يوماً. وكان طوران شاه آخر من تولى السلطنة من بني أيوب [٦٧].

وافترض البعض بقاء الدولة الأيوبية إلى يوم خلع شجرة الدر. حيث اعتَبروا أن حكم شجرة الدر استمراراً للحكم الأيوبي. وأما في بلاد الشام فقد حكم الدولة الأيوبية لعدة سنوات أخرى [٦٨].

وبالرغم من الانتصار الإسلامي الرائع على الحملة الصليبية. فإن السلطان الأيوبي طوران شاه كان إخفاقاً أيوبياً جديداً. مهد الطريق لنهاية الدولة الأيوبية. وصُعود دولة المماليك البحرية الجديدة. فلقد فشل طوران شاه في الاستجابة للتحديات التي فرضها الظروف التاريخية الراهنة. وبدلاً من العمل على توحيد جهوده المسلمين وكلمتهم. للقضاء على الخطر الصليبي تماماً. بدأ يُدبر للتخلص

من شجرة الدر وكبار أمراء المماليك [٦٩].

علاوة على أن كل المماليك، عدا المقربون منه بالطبع، شعروا باختلاف شديد في معاملة، فقد كان السلطان الملك الصالح، يعاملهم كأبناءٍ وإخوة، ويهتم بهم ويُغدق عليهم الكثير من الأموال، وقد بلغ من شدة اهتمامه بهم أنه ذكرهم في وصيته لابنه طوران شاه: الولد يتوصى بالخدم محسن ورشيد والخدم المقدمين، لا تغيرهم فما قدمت أحد من الخدم ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نُصحه وشفقته، وأستاذ الدار وأمير جاندار تتوصى بهم، وكذلك الحسام لا تغييرهم، فإني اعتمد عليهم في جميع أموري [٧٠].

وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك نُقدمهم، وتُعطي كل واحد منهم كوس وعلم، وتُحسن إليهم وتتوصى بالمماليك غاية الوصية، فهم الذين كنت أعتمد عليهم واثق بهم، وهم ظهري وسَاعدي، تتلطف بهم وتطيب قلوبهم وتوعدهم بكل خير، ولا تخالف وصيتي، ولولا المماليك ما كنت قدرت أركب فرسي ولا أروح إلى دمشق ولا إلى غيرهم فتكرمهم، وتحفظ جانبهم [٧١].

وجاء في الوصية أيضاً: والوصية بجميع الأمراء، وأكرمهم واحترمهم، وأرفع منزلتهم، فهم جناحك الذي تطير به وظَهرك الذي تركن إليه، وطيب قلوبهم، وزيد في إقطاعهم، وزيد كل أمير على ما معه من العدة عشرين فارساً، وأنفق الأموال، وطيب قلوب الرجال يحبوك وتنال غرضك في دفع هذا العدو[٧٢].

وبالطبع فقد توقع هؤلاء المماليك توقعوا بعد الانتصارات التي حققوها والصعاب التي واجهوها في سبيل تخليص البلاد من ذلك الخطر الصليبي، وحِفظ البلاد للسلطان، حتى مجيئه وحلفهم له وتنصيبهم إياه سُلطاناً على البلاد، أن يُقدِّر ذلك الجميل ويكافئهم كما تعودوا من أبيه. ولكن للأسف جاءت توقعاتهم على عكس ما تم على أرض الواقع، فقد آثر مماليكه ودأب على تهديد هؤلاء

ووعيدهم، فلم يستطيعوا تقبل الأمر كما هو فقتلوه.

وكانت من أهم أخطاء طوران شاه أنه الأمير جمال الدين أقوش النجيبي، بدلاً من الأمير حسان الدين أبي علي بنيابة السلطنة، وهذا الأمير المخلوع هو الذي كانت له الهيبة في عهد الملك الصالح، وهو الذي كان قد أمر الخطباء بالدعوة لطوران شاه على المنابر يوم الجمعة بعد الدعاء لأبيه، وهو الذي حرَّضَ على استدعائه في سرعة حتى لا يتغلب الأمير فخر الدين على البلاد عقب وفاة الصالح، ولكنه بدلا من أن يستمع لوصية أبيه، عمل على عكسها، وتنكر لكل من أوصاه أباه بهم، فقتلوه [٧٣].

نتيجة مقتل طوران شاه

لقد حدث فراغ سياسي كبير بقتل طوران شاه، فليس بمصر أيوبي في مصر مؤهل لقيادة الدولة، في نفس الوقت كان الأيوبيين في الشام مازالوا يطمعون في مصر، وبالطبع سيحاولون ضمها إلى الشام، خاصة وقد داخل الأيوبيين في الشام حنق كبير على المماليك لأنهم تجرءوا وقتلوا أيوبياً، ولا شك أيضاً أن المماليك كانوا يُدركون أن الأيوبيين سيحرصون على الثأر منهم، كما أنهم كانوا يُدركون أن قيمتهم في الجيش المصري كبيرة جداً، وأن القوة الفعلية في مصر ليست لأيوبي أو غيره إنما هي لهم، وأنهم قد ظُلموا بعد موقعة المنصورة وفارسكور، لأنهم كانوا السبب في الانتصار ومع ذلك هُمّش دورهم، على يد طوران شاه.

وبُنا على تلك الملابسات، وكل هذا الخلفيات، كان تفكير المماليك ولأول مرة في تاريخ مصر، أن يُمسكوا هم بمقاليد الأمور مباشرة، وهم قادرون على أن يغلبوا، فلماذا لا يكون الحكم لهم؟

لقد استُخدم المماليك في مصر من أيام الطولونيين، والذين حكموا من سنة ٢٥٤ هجرية إلى سنة ٢٩٢ هجرية، أي قبل هذه الأحداث بحوالي أربعة قرون كاملة، وكذلك استُخْدموا في أيام الدولة الأخشيدية من سنة ٣٢٣ هجرية إلى سنة ٣٥٨

هجرية، و استُخدموا أيضاً في أيام الفاطميين الشيعة الذين حكموا من سنة ٣٥٨ هجرية إلى زمان صلاح الدين الأيوبي، حيث انتهت خلافتهم في سنة ٥٦٧ هجرية (ما يزيد على قرنين كاملين). واستُخدِموا أيضًا وبكثرة في عهد الأيوبيين [٧٤].

أسباب سقوط الدولة الأيوبية

لقد تعددت أسباب سقوط الدولة الأيوبية، وجامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله في أمور الحكم وغيرها، فقد وقع الظلم على الأفراد وتورط بعض السلاطين في الترف وحدث بينهم نزاع عظيم سفكت فيه الدماء، وأدى ذلك إلى زوالهم [١].

فمن دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات، نعرف أنها لا تَسقط بسببٍ واحد، كما لا تقوم بسبب واحد، بل بتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها، ثم سقوطها، ولا تسقط الدولة والحضارة بضربة واحدة، بل تتضافر جملة من العوامل لإسقاطها، وهذا ما حدث للدولة الأيوبية التي زالت من الوجود في مصر عام ٦٤٨هـ وأهم هذه الأسباب في نظري: [٢].

١ ـ **توقف منهج التجديد الإصلاحي:** حيث اتجه العمل بعيداً عن منهج التجديد والإصلاح الذي بدأه نور الدين محمود، وأكمله بجدارة صلاح الدين الأيوبي، حب الجهاد والعلم وتقريب العلماء، وإشاعة العدل، وسرى هذا في الأمراء والوزراء، ولكن المعضلة الرئيسية التي بقيت هي أن هذا التجديد لم يتحول إلى مؤسسات راسخة، وعام في الدولة، غير مرتبطة بحياة شخص أو موته، وللأسف للأن تعيش المجتمعات العربية على نفس النهج، حيث شخصنة السياسات، وتوحدها بمنفذها، فإن مات انقطعت، وهذا ليس على مستوى الرئيس أو الأمير فقط، بل وعلى مستوى الوزير والمحافظ ورئيس المدينة، لا خطط بل رؤى شخصية، قد تكون صالحة أو فاسدة [٣].

٢- **عدم اهتمام بالفقه الحركي:** فقد ركزت المدارس المملوكية في هذا العصر نشاطاتها على تحقيق عنصر الإخلاص في العمل، أي أنها ركزت على التربية

والإخلاص أكثر من الاستراتيجية. فافتقدت العناصر التركية العلم اللازم لتنظيم مؤسسات السياسة. والإدارة والاقتصاد وتنظيم مسئوليات العاملين فيها وأدائهم. وحُسن إستثمار الموارد البشرية والمادية بما يناسب حاجات المكان والزمان. وكانت الفكرة السائدة والمسيطرة على عقول الأيوبيين والمماليك. هي تحرير البلاد في كل من مصر والشام من الصليبيين [٤].

٣ ـ **تسلل قيم العصبية:** لقد تسللت قم التعصب الأسري إلى مدارس الإصلاح نفسها. بما ساهم في توقف حركة التجديد والإصلاح. إذ أن الأبناء والأحفاد تسلموا مشيخات هذه المدارس بعد وفاة المصلحبن الآباء. دون أن يكون لأولئك الأبناء والأحفاد المؤهلات العلمية والدينية والأخلاقية المؤهلة لذلك. الأمر الذي أحال مدارس الإصلاح إلى إقطاعات دينية. وعصبيات مذهبية. وأدى إلى انصراف النابهين المثقفين من صفوفها واجتماع العامة فيما عرف باسم (الطرق الصوفية) التي اشتُقت أسماءها من أسماء الآباء المؤسسين. كالطريقة القادرية. والطريقة البيانيه. والطريقة الرفاعية التي راحت تركز على الطقوس والأشكال بدل التربية والعلوم والأعمال. وكان هذا بداية لدخول الشعوذة وأعمال النصب في الدين. بحجة أنه ذكر للّه. وما هي إلا طرقاً للشحاذة والتضليل. وادعاء الكرامات [٥].

٤- **انتشار الظلم:** فلقد حدثت مظالم عظيمة في عهد الأيوبيين. فقد سفكوا الدماء فيما بينهم. فقاتل الأخ أخيه والعم بني أخيه ظلماً وجوراً. وتَسلَّطناً على العباد والبلاد. وحُصرت دمشق وتَعرَض أهلها للمجاعة بسبب الأهواء والنزوات. وأسراف بعض سلاطينهم في المال العام. وتم الإعتداء في بعض الأحوال على أموال الرعية بدون وجه حق.

٥ ـ **الانغماس في الشهوات:** ومن سنة اللّه تعالى هلاك الأمة بفسق مترفيها. ولقد ظل أمر بني أيوب مازال مستقيماً في عهد صلاح الدين. حتى أفضي أمرهم إلى إبنائه. فوقع بعضهم في الترف وآثروا الشهوات. وأقبلوا على اللذات والدخول في

المعاصي [٦].

٦ ـ **النزاع الداخلي في الأسرة الأيوبية:** وكان لهذا الاختلاف والنزاع الذي وقع في البيت الأيوبي أسباب منها: ضعف الوازع الديني عند بعض الأمراء الأيوبيين الأنانية، وحب الذات والتكالب على المصالح الدنيوية، والتناحر من أجلها، والحرص على السلطة والجاه والمنصب، وتحكيم بعض الأمراء الأيوبيين أهواءهم في الأمور، واستغل الملك العادل الأيوبي، هذا الجهل والطيش الذي اتسم به أبناء صلاح الدين، ولقد كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية، أمراء صلاح الدين، والأمراء الأسدية، أمراء أسد الدين شيركوه الذين ورثهم صلاح الدين في جيشه، ونجح العادل في الإيقاع بين الفريقين فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الأيوبي، فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف، وتلاشي الدولة [٧].

٧ ـ **التعاون مع الخصوم:** لقد كانت الدولة الأيوبية عصر صلاح الدين، معتزة بإيمانها، متوحدة على الإسلام، أما في عصر الملك الكامل فقد ضعف الولاء، ويَظهر ذلك في تسليم القدس للإمبراطور فريدريك الثاني دون قتال، وقد استعظم المسلمون ذلك وأكبروه، وكان الملك الكامل لديه استعداد للتحالف مع النصارى لقتال أخيه المعظم، الذي تحالف مع الخوارزميين، كما أن الملك الصالح نجم الدين إسماعيل الذي دَخل في صُلح مع الصليبيين، وسلَّم لهم أحد الحصون، واعتَقل الشيخ عز الدين بن عبد السلام وابن الحاجب مدة ثم أطلقهما وألزمهما منازلهما، بسبب معارضتهما لسياسته المخالفة للشرع.

وتحالف الصالح إسماعيل صاحب دمشق مع الصليبيين، لقتال الملك الصالح نجم الدين أيوب، في مقابل تسليم القدس، وإعادة مملكة بيت المقدس الصليبية إلى ما كانت عليه قديماً، بما فيها الأردن، ولكي يبرهن صاحب دمشق على صدق نيته تجاه الصليبيين، بادر فوراً بتسليم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن قلعة

الشقيف وأرنون وأعمالها. وقلعة صفد وبلادها ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالهم وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل. وأمام هذا السخاء العجيب ثار الرأي العام الإسلامي في مصر والشام على الصالح إسماعيل. حتى إن حاميات بعض القلاع رَفضت طاعة الأوامر الصادرة إليها من الصالح إسماعيل صاحب دمشق. وفي تلك الأثناء أسرع الصليبيون إلى تَسَلم بيت المقدس. وأعادوا تعمير قلعتي طبرية وعسقلان. ثم رابطوا بعد ذلك بين يافا وعسقلان استعداداً للخطوة التالية. وهنا وعدهم الصالح إسماعيل بأنه إذا ملك مصر أعطاهم جزءاً منها. فسال لعابهم لذلك. واتجهوا صوب غزة عازمين على غزو مصر [٨].

وسار الصالح إسماعيل صاحب دمشق. والملك المنصور إبراهيم الأيوبي صاحب حمص على رأس جيوشهما في مهمة غزو مصر [٩].

ولكن قادة القوات الشامية رفضوا طعن إخوانهم المصريين. وما كادوا يلتقون بجيش الملك الصالح أيوب قرب غزة. حتى تخلوا عن الصالح إسماعيل والمنصور إبراهيم. وساقت عساكر الشام إلى عسكر مصر طائعة. ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم وأسَروا منهم خلقاً لا يحصون [١٠].

٨ ـ **ضعف الحكومة المركزية للدولة الأيوبية:** فلقد اتبع صلاح الدين سياسة اللامركزية في إدارته للدولة الأيوبية في عصره. حيث قسَّم دولته إلى أقاليم إدارية. يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز. مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز. وقضى أكثر سنين حكمه في ميادين القتال يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف. وتوجيه سياسة الدولة العُليا. ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية في الاستعداد والدفاع للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم. دون فرض رأي منه.

والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده. على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية. ويغلب الظن أنه أدرك أن توزيع

السلطات يَجعلُ من كل مسئول في دولته رقيباً على السلطة الأخرى، مما أشعرهم جميعاً بضرورة الجدية والالتزما، من أجل الحفاظ على المنصب بكفاءة، كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة انجازه [١١].

ولكن كانت هناك مشكلة لم تظهر إلا بعد موت صلاح الدين، وهو أن هذه الدولة الأيوبية التي بناها صلاح الدين الأيوبي، ارتبطت بصفاته وسجاياه وشخصيته الفذة، وبموت هذه الشخصية واختفائها من مسرح التاريخ في المنطقة، حدث فراغ كبير أضرّ بالجانب الإسلامي وعاد بالفائدة على الجانب الصليبي إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسي والعسكري هو الذي حفظ الدولة من التفكك، ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية، كما أن صلاح الدين قسَّم دولته، كما يُقسمَّ الإرث، بين أبنائه وأخوته وبني عمومته، وهذا شيء غريب وتصرف غير حميد من رجل في قامة صلاح الدين، فالدول ليست ملكاً خاصاً، ولا تركة لأبيه حتى يوزعها على من يشاء، فهذه شعوب وأمم يتحكم في مصيرها وحياتها، وقد سبب الفناء والمذلة للكثير من أهلها، فصارت حسناته السابقة سيئات، ولو تم تقييم إنجازاته وأخطائه لرجحت كفة الأخطاء بكثير! وهكذا تفككت عُرى الدولة الإقليمية الكبرى التي جاهدت ثلاثة أجيال في إقامتها بمنطقة العراق والشام ومصر، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي [١٢].

٩ ــ **ضعف نظام الاستخبارات الأيوبي:** فلقد اشتهرت المؤسسة البريدة والاستخباراتية في عهد صلاح الدين، واتسمت بالتفوق الدائم على ما كان عند الصليبين، واتصفت بالدقة والسرعة، حتى أن أخبار العدو كانت تتواصل إليه ساعة بساعة، إلى الصبح، لا خاصة أيام حصار عكا، وكان جهاز استخباراته يضم بعضاً من الصليبين الذين استأمنهم السلطان في مناسبات مختلفة، ووثق بهم، وتكمن أهمية هؤلاء أنهم كانوا يَعرفون لغة العدو، ولا يشك فيهم أنهم رجال

صلاح الدين، بسبب من سحنتهم ومظرهم الخارجي، فكانوا يزودون الجيش الأيوبي بأخبار العدو التي يَصعب الحصول عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين، وبالفعل تحصل صلاح الدين منهم على معلومات قيمة [١٣].

ثم بعد صلاح الدين، ضعف جهاز الاستخبارات، لدرجة أن الحملة الصليبية الخامسة قد وصلت إلى دمياط، ولم يَعلم بها الملك العادل إلا بعد وصولها، وهكذا كان ضعف الجهاز الإستخباراتي للدولة الأيوبية بعد صلاح الدين من أسباب سقوطها.

١٠- **وفاة الملك الصالح نجم الدين وعدم كفاءة وريثه:** لقد استطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب، أن يُدخل تشكيلات جديدة، على القوة العسكرية التي كان يتكون منها جيش السلطان الأيوبي، والتي ساهمت في تقوية الجيوش، وانْعَكس ذلك على الدولة بصورة إيجابية، فقد اهتمامه الملك الصالح نجم الدين أيوب اهتماماً كبيراً بشراء المماليك والغلمان والأتراك، بشكل لم يسبق له نظير في تاريخ السلطنة الأيوبية، فقد وصل عدد من أضافهم إلى الجيش في دفعة واحدة أكثر من ألف مملوكاً تركياً، وقد عمل منهم خلال مدة حكمه جيشاً قوياً، سانده في فرض إرادته على الأقاليم، والقضاء على حركات التمرد الداخلية، وكان ولاء له مطلقاً، وقد استطاع إعادة هيبة الدولة الأيوبية من جديد، وإعادة قوتها وسلطانها بدرجة كبيرة، إلا أنه توفي أثناء الحملة الصليبية السابعة وكان عمره عند وفاته ٤٤ سنة.

مقدمات ظهور سيف الدين قطز

طموحات شجرة الدر

شجرة الدرّ امرأة ذات طابع خاص جداً، لا تتكرر كثيراً في التاريخ، فهي امرأة قوية جداً، شجاعة، جريئة، لها عقل مدبر، وتتمتع بحكمة شديدة، كما أن لها القدرة على القيادة والإدارة، وكانت شجرة الدرّ ترى في نفسها كل هذه القدرات، وكانت شديدة الإعجاب بإمكانيتها وبنفسها، ولعل هذا من أهم ما جلب لها المشاكل، مما دفعها إلى تفكير جديد تماماً على الفكر الإسلامي، وخاصة في هذه الفترة من تاريخ الأمة، حيث فكرت في اعتلاء كرسي الحكم في مصر، وهذا أمر هائل فعلاً، وهذه سباحة عنيفة جداً ضد التيار، في ظروف وملابسات كهذه التي تعم مصر والشام، لكنها وجدت في نفسها الملكات التي تسمح بتطبيق هذه الفكرة الجريئة، شجعها على ذلك كونها حكمت البلاد سرًا أيام معركة المنصورة، فلماذا لا تحكمها جهرًا الآن؟

في نفس الوقت وجد المماليك البحرية في شجرة الدرّ الفترة الانتقالية التي يُريدونها، وبعدها يمكنهم تحويل الملك إليهم بسهولة، إنها زوجة الأستاذ، الملك الصالح أيوب الذي يكنّون له، ويكنُّ له الشعب كله كامل الوفاء والاحترام والحب، وهي في نفس الوقت تُعتبر من المماليك، ولو من وجهة نظرهم، لأن أصلها جارية وأُعتقت، كما أنها في النهاية امرأة، ويستطيع المماليك من خلالها أن يحكموا مصر، وأن يوفروا الأمان لأرواحهم، وبذلك توافقت رغبات المماليك مع رَغبة شجرة الدر، وقرروا جميعاً إعلان شجرة الدرّ حاكمة لمصر، بعد مقتل طوران شاه بأيام، وذلك في أوائل صفر سنة ٦٤٨ هجرية، وقامت الدنيا ولم تقع [١].

تفجرت ثورات الغضب في كل مكان، وعمّ الرفض أطراف العالم الإسلامي، بسبب فكرة تولي أمر المسلمين امرأة، وحاولت شجرة الدرّ أن تُجمل الصورة قدر استطاعتها، فنسبت نفسها إلى زوجها المحبوب عند الشعب الملك الصالح نجم الدين أيوب، فقالت عن نفسها إنها ملكة المسلمين الصالحية، ثم وجدت أن ذلك غير كافٍ، فنسبت نفسها إلى ابنها الصغير الخليل، ابن الصالح أيوب، فلَقبت نفسها بملكة المسلمين الصالحية، والدة السلطان خليل أمير المؤمنين، ثم وجدت ذلك أيضاً غير كاف فأضافت نفسها إلى الخليفة العباسي، المستعصم بالله، والذي سقطت في عهده بغداد في يد التتار، فقالت شجرة الدرّ عن نفسها: ملكة المسلمين المستعصمية، الصالحية، والدة السلطان خليل أمير المؤمنين [٢].

ومع كل هذه المحاولات للتزلف إلى العامة وإلى العلماء ليقبلوا الفكرة، إلا أن الغضب لم يتوقف، وظهر على كافة المستويات، وخاصةً أن البلاد في أزمة خطيرة، والوضع حرج للغاية، فالحملات الصليبية الشرسة لا تتوقف، والإمارات الصليبية منتشرة في فلسطين، وهي قريبة جداً من مصر، وأمراء الشام الأيوبيون يَطمعون في مصر، والصراع كان محتدماً بينهم وبين السلطان الراحل نجم الدين أيوب، كما أن التتار يجتاحون الأمة الإسلامية من شرقها إلى غربها، وأنهار دماء المسلمين لا تتوقف، والتتار الآن يطرقون باب الخلافة العباسية بعنف، ومصر في هذا الوقت الحرج على فوهة بركان خطير، ولا يدري أحد متى ينفجر البركان [٣].

وقامت المظاهرات العارمة على المستوى الشعبي في القاهرة في كل أنحائها، وشَرَع المتظاهرون في الخروج بمظاهراتهم إلى خارج حدود المدينة، مما اضطر السلطات الحكومية إلى غلق أبواب القاهرة، لمنع انتشار المظاهرات إلى المناطق الريفية، وقام العلماء والخطباء يندّدون بذلك على منابرهم، وفي دروسهم، وفي المحافل العامة والخاصة، وكان من أشد العلماء غضباً وإنكاراً الشيخ الجليل: العز بن عبد السلام رحمه الله، أبرز العلماء في ذلك الوقت، كما أظهر الأمراء الأيوبيون في الشام حنقهم الشديد، واعتراضهم المغلظ على صعود النساء إلى كرسي الحكم في

مصر.

وجاء رد الخليفة العباسي: المستعصم بالله قاسياً جداً، وشديداً جداً. بل وساخراً جداً من الشعب المصري كله. فقد قال في رسالته:

إن كانت الرجال قد عُدمت عندكم أعلمونا. حتى نُسير إليكم رجلاً. وهكذا لم تتوقف الاعتراضات على الملكة الجديدة، ولم تنعم بيوم واحد فيه راحة. وخافت الملكة الطَّموحة على نفسها، وخاصة في هذه الأيام التي يكون فيها التغيير عادة بالسيف والذبح، لا بالخلع والإبعاد. ومن هنا قررت الملكة شجرة الدرّ بسرعة أن تتنازل عن الحكم لرجل، أي رجل. لكن لمن تتنازل؟ كان هذا هو السؤال الأهم. إنها مازالت تَرغب في الحكم، وتتشوق إليه. وما زالت تعتقد في إمكانياتها العقلية والإدارية والقيادية، وهي إمكانيات هائلة فعلاً. فماذا تفعل؟ [٤].

شجرة الدر سلطانة لمصر

يَعتبر عدد من المرخين أن شجرة الدر أول سلاطين دولة المماليك البحرية في مصر، ولقد يُطلق عليها اسم دولة المماليك الأولى، بإزاء دولة المماليك الثانية التي هي دولة المماليك البحرية. اعتبروها أولى سلاطين المماليك كونها منهم أي من المماليك البحرية، جيء بها جارية مملوكة، فصارت حظيّة الملك الصالح أيوب. وإن كان من الأرجح عند البعض أنها ليست من المماليك، مملوكة من أصل أرمني، لا تركي، فهي ليست مملوكة تماماً، بما في كلمة مملوك من معنى. إنها قريبة من المماليك، بجهة النشأة، وإن كان المماليك البحرية الصالحية يأتمرون بأمرها، ويخضعون لها، كونها واحدة من أهم حريم الملك الصالح أيوب. هذا فضلاً عن كونها والدة ولده خليل، الذي مات وهو طفل صغير [٥].

بينما يعتبرها ابن إياس صاحب بدائع الزهور، آخر سلاطين بني أيوب، كونها زوجة الصالح نجم الدين أيوب، والد طوران شاه، وأم ولده خليل الذي توفي في حياة أبيه [٦].

الدور الذي ساعد شجرة الدر

كان للدور الذي لعبته شجرة الدر بعد وفاة زوجها نجم الدين أيوب، وتصرفها حيال الصليبيين، وأسر الملك لويس التاسع، أبلغ الأثر لدى المماليك، بعدما شاهدوا ما تتصف به من حماس سياسي وحُنكة، ومهارة في تصريف أمور الدولة، في ذلك الوقت العصيب، الذي اشتعلت فيه حروب خطيرة بالمنطقة، قادة إلى وقوع دمياط تحت الاحتلال، وكادت المنصورة أن تلحق بها، أن تفت في عضد أي حاكم آخر [٧].

لقد عملت شجرة الدرّ على تحرير دمياط من الصليبيين، لمّا أخفت موت نجم الدين أيوب على الجيش المصري، الذي كان يقاتل الغُزاة، إذ لو أعلنت نبأ وفاة الملك وقت اشتعال الحرب كان من المحتمل أن تُفلت الأمور من أيدي القادة المماليك، فنبأ وفاة الملك شيء خطير من المحتمل، بل من المؤكد أن يبث الضعف والتخاذل والتواكل في نفوس الجند، ولكن ذلك لم يحدث بسبب حنكة شجرة الدرّ، بعد فضل اللّه تعالى، وبحكمتها سلمت البلاد، وكتمها لخبر وفاة السلطان، وأمَرت العبيد أن يحمل الملك سراً في محفّة دون علمهم بموت الملك، ثم أن يوضع في قاربٍ حمله إلى قلعة الروضة، ريثما تنجلي المعركة، عن نصر قريب.

ولم يفت شجرة الدرّ أن تعهد إلى الأمير فخر الدين بقيادة الجيش، وأن تَبث فيه روح المثابرة والعزيمة والجهاد، ومواصلة الحرب لاسترجاع دمياط من أيدي الصليبيين، كما راحت، وبالاتفاق مع بعض الأعوان من الخدم والأطباء تَعمل على إدخال كبار الموظفين والأطباء إلى قاعة الملك، بحجّة أن السلطان حي يُرزق، بل راحت تُوقع الأوامر والمراسم بتوقيع السلطان، وكانت تحذق تقليده، وتحاكي خطه [٨].

وهكذا استطاعت شجرة الدر أن تحفظ للجيش وحدته وتماسكه، وأن تحول دون تصدّع صفوفه، وانفراط عقده، كما استطاعت أن تَبعث في الجنود روح مواصلة الجهاد، ومتابعة الكفاح، دونما ضعف أو خور أو ميل إلى الخضوع [٩].

فكان هذا الدور هو المؤهل الأكبر لشجرة الدر تتربع على كرسي السلطة بعد

مقتل تورنشاه. مع تلك الدوافع التي جعلت المماليك يرضون بها سلطانه عليهم. مثل تلك العلاقة التي تربطها بزوجها الراحل نجم الدين أيوب وابنها خليل؟ ولزعامتها العسكرية والسياسية وقت الأزمات؟ ولحاجة المماليك إلى وجود صلة بين الأيوبيين وبين وجودهم بصورة قانونية؟ لكل ذلك رفعوها لتتربع على عرش مصر وأطلقوا عليها لقب: أم خليل [١٠].

وهكذا أصبحت شجرة الدر، تلك الجارية، أمة السلطان صالح نجم الدين أيوب. والتي تزوجها بعدما أعتقها، صارت ملكة المسلمين في مصر، وسُلطانة المماليك البحرية، يُخطبُ لها على المنابر، ويَدعون لها عليها، من بعد الدعاء لخليفة المسلمين العباسي [١١].

فكان مما يُدعى به لشجرة الدرّ قول المصلين: اللهم أحفظ الجهة الصالحة ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين، أم خليل أمير المؤمنين، المستعصمة، صاحبة السلطان الملك الصالح [١٢].

أو قول الخطباء الذين كانوا يخطبون باسمها على منابر مصر وأعمالها، فيقولون من بعد الدعاء لأمير المؤمنين الخليفة العباسي: اللهم أحفظ الجهة الصلاحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل، والستر الجميل، والدة المرحوم خليل، إذ أن خليلاً هذا هو ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان توفي في حياة والده صغيراً [١٣].

وقيل إنه لما بُويع لها بالحكم، كانوا يدعون لها من بعد الدعاء للخليفة العباسي هي التالية: ربنا احفظ ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين، الجهة الصالحة، أم خليل المستعصية، صاحبة السلطان الملك الصالح [١٤].

تنصيب شجرة الدور

ما إن تمّ إعلان خبر تولية شجرة الدرّ ملكة على المصريين، حتى راح كبار القادة والأمراء يفدون على المليكة، وقد تربعت شجرة الدرّ على دست الحكم في قاعة

الإيوان، الذي كان بناه الملك الصالح حيث النقوش الذهبية، والأعمدة الشاهقة المغطاة بالأبنوس والرخام، وحيث الفُرش والزرابي والطنافس والأرائك، ولقد ضاقت باحة القصر الخارجية بعامة الناس، الذين أذهلهم الإعلان عن شجرة الدرّ أنها ملكة المصريين ما بين مصدِّق للخبر أو مكذب له، فكنتَ تَرى مواكب الصناع والتجار، والفلاحين والجند، والراقصين والمغنّيين والخدم والحشم [١٥].

وسواء صدق الناس أم كذَّبوا، لقد قَبَضت شجرة الدر على زمام الحكم بيدٍ من حديد، ووجهت إهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة، ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من رعاياها، وراح الناس يدعون لها، ويخطبون كما سبق [١٦].

ونَقشت شجرة الدُّر اسمها على النقود المتداولة في ذلك الزمان، وكانت صيغة النقش هي التالية: المستعصمة الصالحية، ملكة المسلمين، والدة المنصور خليل [١٧].

رد الفعل الأيوبي والصليبي

رفض أمراء بني أيوب الاعتراف بالنظام الجديد في مصر، وخَرج عن طاعة حاكمة مصر كل من: دمشق والكرك والشوبك والصبية، وغيرها من ممتلكاتها التابعة لها في الشام، وأصبح في الشرق الأوسط الإسلامي قوتان متنازعتان، ولايات الشام، ويهيمن عليها الأيوبيون، ومصر ويحكمها المماليك، وقد اعتبر الأيوبيون أنهم أصحاب السُّلطة الشرعية، وأن المماليك دُخلاء عليهم، وأنه لا بد من اتخاذ إجراء حاسم إعادة الأمور إلى نصابها من وجهة نظرهم، وشنوا حملة دعائية مركزة على المماليك، وقالوا بأنهم هم الذين سمحوا للملك الفرنسي بالخروج من مصر حياً، طمعاً في الفدية التي أعطاها لهم، وتلك التي تعهد بِدَفعها، وأنه لولا جشعهم لما أفلت لويس من قبضة المسلمين [١٨].

والحقيقة أن المماليك البحرية كانوا داوية الإسلام، وكانوا أصحاب الفضل الأول في إحراز النصر على لويس، والتنكيل به وبقواته على ضفاف النيل، وأنه لولا اجتهادهم في المنصورة وفارسكور ما تم النصر للمسلمين [١٩].

وما كان إخلائهم لسبيل لويس طمعاً في ماله، بل إنهم كانوا يخشون إن قتلوه أو أبقوه في الأسر، أن تثور ثائرة العالم المسيحي، ويقوم بحملة صليبية جامعة وجامحة ضد المسلمين، قد لا يستطيعون دفعها، خاصة وأن لويس كان محبوباً في أمم الغرب الأوروبي والشرق اللاتيني أيضاً، وما كان قتلهم لطوران شاه، ابن مولاهم الصالح أيوب، إلا لما اقترفه من إساءات في حقهم، وفي حق زوجة أبيه شجرة الدر، وكان من الضروري وضع حدٍ لها، قبل أن يُفلت الزمام من أيديهم ويبطش بهم، فيجر ذلك المفاسد على مصر، وقد جعلهم هذا يظنون أنهم أولى بحكم البلاد من غيرهم [٢٠].

شجرة الدُّر تُضطر للتنازل

لقد ثارت ضجة كبيرة حول تولي شجرة الدر لأمر البلاد، واضطربت الأمور على المستوى الشعبي العام، وعارض الفقهاء والمتعلمون جلوس شجرة الدُّر على عرش السلطنة، وأدركت السلطانة وزعماء المماليك أنهم يسبحون ضد التيار، ولا بد أن تكون النتيجة غرقهم لو استمروا في موجاته [٢١].

وبعد ثمانين يوماً من توليها، تنازلت شجرة الدُّر في الحكم، لواحدٍ اختارته بعناية من أمراء المماليك، هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي، الذي اشتهر بعزوفه عن الصِّراع، حتى ظن الجميع أنه ضعيف، وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجرة الدُّر وجلوسه على عرش السلطانة، بل إن بعضهم قال: متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته [٢٢].

زواج شجرة الدر

لقد قررت الملكة شجرة الدرّ أن تتزوج، أي أنها أرادت أن تُمسك العصا من منتصفها، فتحكم باطناً وتتنحى ظاهراً، ففكرت أن تتزوج من أحد الرجال، ثم تتنازل له عن الحكم ليكون هو في الصورة، ثم تحكم هي البلاد بعد ذلك من خلاله، أو من خلف الستار، فكم من الحكام ليس لهم من الحكم إلا الاسم، وكم من السلاطين ليس لهم من السلطة نصيب، وما أكثر الرجال الذين سيقبلون بهذا الوضع في نظير أن يبقى أطول فترة ممكنة في الكرسي الوثير: كرسي الحكم [٢٣].

شجرة الدرّ لا تبغي الزواج لذات الزواج، ولاتريد رجلاً حقيقة، إنما تريد فقط صورة رجل، لأن هذا الرجل لو كان قوياً لحكم هو، ولأمسك بمقاليد الأمور في البلاد وحده، ولذلك يجب أن يكون هذا الرجل من عائلة غير قوية وغير أصيلة، حتى لا تؤثر عليه عائلته، فيُخرج الحكم من يد الملكة شجرة الدر، وحبذا لو كان هذا المختار سعيد الحظ من المماليك، وذلك حتى تضمن ولاء المماليك، وهذا أمر في غاية الأهمية، فلو كان هذا الرجل هو السند الشرعي للحكم، فالمماليك هم السند الفعلي والعسكري والواقعي للحكم.

وبالفعل تزوجت شجرة الدُّر من عز الدين آيبك، ثم تنازلت له عن الحكم، وتم هذا التنازل في أواخر جمادى الثانية من السنة نفسها سنة ٦٤٨ هـ، وهكذا في غضون سنة واحدة فقط، جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك وهم: الملك الصالح أيوب، ثم مات، فتولى طوران شاه ابنه، ثم قُتل، فتولت شجرة الدر، ثم تنازلت، فتولى عز الدين أيبك التركماني الصالحي [٢٤].

السلطنة عز الدين آيبك

وضعت شجرة الدرّ كل هذه الأمور في ذهنها، ومن ثم اختارت رجلاً من المماليك اشتهر بينهم بالعزوف عن الصراع، والبعد عن الخلافات، والهدوء النسبي، وكلها صفات حميدة في نظر شجرة الدر، فوجدت في هذا الرجل ضالتها، وكان هذا الرجل

هو عزّ الدين أيبك التركماني الصالحي، وهو من المماليك الصالحية البحرية، أي من مماليك زوجها الراحل الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم تختر شجرة الدرّ رجلاً من المماليك الأقوياء أمثال فارس الدين أقطاي، أو ركن الدين بيبرس، وذلك لتتمكن من الحكم بلا منازع [٢٥].

إذا فقد تولى عرش مصر السلطان أيبك التركماني، وتلقب باللقب السلطاني: الملك المعز، ولم يكن أيبك في الواقع أكبر أمراء المماليك سناً ولا أقدمهم خدمة، ولا أقواهم مكانة ونفوذاً، إذ يوجد من هم أكبر وأقدم وأقدر منه مثل: فارس الدين أقطاي والظاهر بيبرس، وهذه الحالة الاستثنائية في نظام التدرج المملوكي، جعلت البعض، ينظر إلى أيبك على أنه ضعيف النفوذ والشوكة، وأن الأمراء لم ينتخبوه إلا لكي يتمكنوا من عزله متى شاءوا، ولكن هيهات [٢٦].

لقد برهنت الحوادث التالية، على أن أيبك ليس هذا الرجل الذي وصفه البعض من المؤرخين، بل لقد أثبت بعد زواجه من شجرة الدر، أنه رجل يمتاز بصفات السياسة والحزم والشجاعة، ولم يكن ضعيف الشخصية كما قيل عنه في بداية حياته معها، بل لقد وصف بعكس تلك الصفات تماماً، فقد وصف بالديانة والصيانة والعقل والسياسة، وأنه انقذ دولة المماليك من خطر محقق، وواجه المشاكلات والمصاعب التي واجهته، والمتمثلة في تهديدات الأيوبيين والصليبيين في الخارج، وفي ثورات الأعراب في الداخل، ثم خطر أقرانه وخصومه والمناوئين له من المماليك، في داخل البلاد وخارجها [٢٧].

وعندما تزوجت شجرة الدرّ من عز الدين أيبك، تنازلت له عن الحكم كما خططت لنفسها، بعد أن حَكمت البلاد ثمانين يوماً فقط، وتم هذا التنازل أواخر جمادى الثاني سنة، ٦٤٨ هـ. وهكذا في غضون سنة واحدة فقط جلس على كرسي الحكم في مصر أربعة ملوك، وهم الملك الصالح أيوب، ثم مات، فتولى طوران شاه ابنه، ثم قتل، فتولت شجرة الدرّ ثم تنازلت، فتولى عزّ الدين أيبك التركماني الصالحي.

وتلقب عزّ الدين أيبك بالملك المعز، وأخذت له البيعة في مصر، وكأن الله سبحانه أراد بتلك الأحداث أن يمهّد عقول المصريين لقبول فكرة صعود المماليك إلى كرسي الحكم [٢٨].

وبالفعل قبل الشعب في مصر بالوضع الجديد، فهو أفضل على كل حال من تولي امرأة، كما أن البديل من الأيوبيين في مصر غير موجود، والبديل من الأيوبيين في الشام غير موجود أيضاً، فأمراء الأيوبيين في الشام كانوا في غاية الضعف والسوء والعمالة والخيانة، وقد مرّ بنا قبل ذلك تخاذلهم وتعاونهم مع التتار، وكذلك تخاذلهم وتعاونهم مع الصليبيين، وهكذا استقرت الأوضاع نسبياً في مصر بعد أن آلت الزعامة بها إلى عزّ الدين أيبك، أول حاكم مملوكي في مصر، نظراً لتعارض الأقوال بشأن مدى صحة مملوكية شجرة الدر وأيوبيتها.

وبدأت شجرة الدرّ تحكم من وراء الستار، كما أرادت، وهي مؤيدة بالمماليك القوية، وخاصة فارس الدين أقطاي، وركن الدين بيبرس.

ولكن يبدو، وهذه عادة البشر، يبدو أن ذكاء شجرة الدرّ قد خانها عند اختيار ذلك الرجل، فالملك المعز: عزّ الدين أيبك لم يكن بالضعف الذي تخيلته شجرة الدرّ ولا المماليك البحرية، فقد أدرك الملك الجديد من أول لحظة ما في نفس شجرة الدر، وعرف خطورة إخوانه من المماليك البحرية في مصر وقوتهم، فبدأ يرتب أوراقه من جديد، ولكن في حذر شديد.

بداية ظهور لسيف الدين قطز

كان أول ظهور للبطل الإسلامي الشهير: سيف الدين قطز، في تلك الآونة، فقد كان يشغل مركز قائد مجموعة المماليك الخاصة بالملك المعز عز الدين أيبك، ومع أن عزّ الدين أيبك نفسه من المماليك البحرية، إلا أنه بدأ يحدث بينه وبينهم نفور شديد، أما هو فيعلم مدى قوتهم وارتباطهم بكلمة زوجته شجرة الدرّ التي لا تُريد أن تُعامله كملك بل كصورة ملك، وأما هم فلديهم ضده: الغيرة والحسد،

كانت قلوبهم تغلي كالمراجل حقداً على هذا الرجل، صاحب الكفاءات المحدودة في نظرهم، الذي يجلس الآن على عرش مصر، ويُلقب بالملك، أما هم فيلقبون بالمماليك، بما تعنيه الكلمة من تنقيص.

لكن عزّ الدين أيبك ظل هادئاً ولم يُستفز بفعلهم، يُعد عدته في رزانة، ويُكثر من المماليك الخاصة به، ومرت الأيام، وحدث أن تجمعت قوى الأمراء الأيوبيين الشاميين لغزو مصر، وذلك لاسترداد حكم الأيوبيين بها، وكانت الشام قد خَرجت من حكم ملك مصر، بعد وفاة طوران شاه مباشرة، والتقى معهم عزّ الدين أيبك بنفسه في موقعة فاصلة عند منطقة العباسية، وهي تقع على بعد حوالي عشرين كيلومترًا شرقي الزقازيق الآن، وذلك في العاشر من ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ ولم يُستفز مبكراً، أي بعد أربعة شهور فقط من حكمه، وانتصر عزّ الدين أيبك انتصاراً كبيراً، فأكسبه هذا الانتصار مكانة، ورفع أسهمه لدى المصريين، وثبت أقدامه على العرش [٢٩].

لويس التاسع يستغلال النزاع بين المسلمين

في هذا الوقت الذي كان فيه الشرق الإسلامي منقسماً على نفسه، كان الملك الفرنسي في عكا يَسعى لجمع حملة جديدة تهدف إلى امتلاك البيت المقدس، وكان المسيحيون يُدركون حقيقة الحال في مصر والشام، وكانوا ملمين إلماماً تاماً بأحوال العالم الإسلامي المضطربة في هذه، إذ سجل لويس ملك فرنسا في رسالته إلى شعبه أن هذا الشقاق قد انعش آماله، وأوجد له فرصة لتعويض خسائره في مصر [٣٠].

من هنا يتضح أن مهمة الملك لويس التاسع في هذه الفترة بالذات، والتي نشب فيها الخلاف بين بني أيوب في الشام، والمماليك في مصر، هي استغلال الفرصة، وترقب الأمور عن كثب، واتخاذ واستخدم الزكاء السياسي والدهاء، عسى أن يمكنه تعويض ما فاته في حملته الفاشلة، بل والمهينة على الديار المصرية [٣١].

تراسل ملوك مصر والشام ولويس التاسع

لقد ترددت الرُّسل وتعددت السفارات، بين كل من أمراء مصر والشام، وبين الملك الفرنسي في عكا وفي غيرها من بلاد الشام المحتلة، وكل منهما يُمنيه بالوعود المغرية، طمعاً في كسبه إلى جانبه، ولكنه اتخاذ سياسة الحرص والحذر، متوخياً في ذلك ما تُمليه عليه المصلحة المسيحية، قبل أن يتخذ قراراً حاسماً، فقد كان بوسعه الانضمام إلى أحد الفريقين، أو الوقوف موقف الحياد، أو أن يستمر على سياسة الخداع للجميع، أملاً في استنزاف قوى الفريقين إلى أقصى حد ممكن [٣٢]

وما إن استقر لويس التاسع بعكا، حتى أرسل إليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب مبعوثين من قبله، يَسألونه أن يقف إلى جانب مولاهم الناصر يوسف في قتاله ضد المماليك البحرية الذين قتلوا قريبه السلطان المعظم طوران شاه، على أن يتعهد له الناصر إذا تحقق له إعادة بيت المقدس، أن يُرجعه تحت إمرة المسيحيين كما يحبون [٣٣]

أيبك يُنَصّب صبياً أيوبياً على مصر

كان السلطان عز الدين آيبك يُراقب الأحداث عن كثب، وقرر مواجهة الخطر الأيوبي بالطُّرق السلمية أولاً، وحتى يمتص نقمة الأيوبيين، اختار بالاتفاق مع كبار أمراء المماليك صبياً صغيراً في العاشرة من عمره من بني أيوب، هو الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل محمد، وأقامهُ سلطاناً على مصر وما يتبعها، ليكون شريكاً له في السلطة، فكانت المناشير والتواقيع والمراسيم تخرج عنهما، ويُخطب باسميهما على منابر مصر وأعمالها، وضُربت لهما السكة على الدنانير، والدراهم [٣٤]

ووصلت أنباء المفاوضات بين الملك الناصر ولويس التاسع إلى عز الدين آيبك، وخشي وقوع الاتفاق بين الأيوبيين والصليبيين، فأرسل إنذاراً إلى الملك لويس التاسع يتهدده فيه بقتل الأسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر منذ أيام الحملة

الصليبية السابعة على دمياط، محتجزون بانتظار دفع الفدية المقررة لإطلاق سراحهم، إن اتفق مع الأيوبيين ضده، أو قام بأي عملٍ عدائي ضده، وفي نفس الوقت أبدى عز الدين آيبك، استعداده لتعديل معاهدة دمياط، والتنازل له عن نصف الفدية المقررة، مقابل تحالفه معه ضد الناصر يوسف، وعندما وصلت الأمور لهذا الحد من التشابك، آثر الملك الفرنسي أن لا ينضم لأي من الطرفين، وإن كان يؤثر التحالف مع دمشق لما لها من أهمية عسكرية وسياسية، لكن كان لزاماً عليه أن يُفكر في أسرى الصليبيين الذين مازالوا في مصر [٣٥]

ولما يئس الناصر يوسف من استقطاب الملك لويس التاسع، زحف بجيوشه نحو مصر، ونسي زعماء البحرية خلافاتهم الداخلية، وتكتلوا وراء عز الدين آيبك لصد الزحف الأيوبي الذي هدد مستقبلهم جميعاً، وخرج آيبك من القاهرة على رأس جيش المماليك للتصدي للتقدم الأيوبي، لكنه خشي من أن يقوم الصليبيون بمهاجمة دمياط مرة أخرى، مستغلين خلو مصر من المدافعين عنها، فأمر عز الدين آيبك بهدم ثغرها، حتى خُرِّب كله، ولم يبق من المدينة سوى الجامع وأكواخ من القش على شاطئ النيل، في منطقة سموها: المنشية، سكنها الصيادون وضعفاء الناس [٣٦]

الحرب بين المماليك والأيوبيين

التقى الجيشان الأيوبي وجيش المماليك في العاشر من ذي القعدة ٦٤٨هـ/ الثالث من شباط ١٢٥١م، عند العباسية بين مدينتي بلبيس، والصالحية، وفي بداية المعركة إنتصر جيش الناصر يوسف، على الرغم من استبسال المماليك، ولكن النخوة المملوكية دفعت فِرقة من جيش الناصر يوسف، وهم المماليك العزيزية أن تتخلت عن مواقعها في غمرة القتال وانحازت إلى الجيش المملوكي المعزي، وساعتها لم يتردد الناصر يوسف في الهرب، عائداً إلى الشام، ورجع جيش المماليك مكلل بالنصر، يصطحب الأسرى إلى القاهرة [٣٧]

فكان لهذه الموقعة أثرها وأهميتها في تثبيت أركان دولة المماليك البحرية الناشئة. فقد استثمر آيبك انتصاره هذا. فأرسل بعد شهرٍ جيشاً. بقيادة فارس الدين أقطاي. استولى على غزة. ثم قرر الزحف نحو بلاد الشام للسيطرة عليها. ولكي يَضمن النجاح لمهمته حاول استقطاب لويس التاسع. وكرر وعده بإعطائه بيت المقدس فور استيلائه عليه من الناصر يوسف. أما الناصر يوسف فقد وجد نفسه مضطراً للاعتماد على حليف قوي يضمن له الصمود واستمرارية الصراع مع المماليك. فأرسل سفارة إلى عكا يعرض على لويس التاسع التنازل له عن بيت المقدس. مقابل الحصول على مساعدته. فصار بيت المقدس الرشوة التي يلوح بها المماليك والناصر يوسف للملك الفرنسي لويس التاسع. لأخذه في جانبه [٣٨]

٣ ـ تحالف مملوكي ـ صليبي: استغل لويس التاسع هذا الصراع الإسلامي لمصلحة الصليبيين. ونجح في الضغط على آيبك. فأطلق سراح الأسرى الصليبيين. ثم عقد الطرفان معاهدة في سنة: ٦٥٠هـ/١٢٥٢م. بهدف مناوأة الناصر يوسف. جاء فيها:

- وافق آيبك على إطلاق سراح بقية الأسرى الصليبيين.
- إعفاء لويس التاسع من بقية المبلغ المتبقي عليه من الفدية.
- وعد آيبك الملك الفرنسي بأن يُعيد للصليبيين كل مملكة بيت المقدس. والتي كانت تمتد شرقاً حتى نهر الأردن.

ولكن هذا التحالف المملوكي/ الصليبي. لم يؤد لأي نتائج. فبعد توقيع المعاهدة إتفق كل من آيبك ولويس التاسع على القيام بحملة مشتركة لطرد الناصر يوسف من بلاد الشام. حيث يستولى لويس التاسع على يافا. في حين يستولي آيبك على غزة. ثم يتم الاتصال بينهما. ليقوم الجيشان بعد ذلك بهجوم مشترك على الإمارات الأيوبية.

وتنفيذاً لهذه الخطة. خرج لويس التاسع على رأس ألف وخمسمائة مقاتل إلى

يافا واستولى عليها دون مقاومة وكانت تحت الحكم الأيوبي، بينما تقدم الجيش المملوكي بقيادة فارس الدين أقطاي، نحو غزة، وعسكر في الصالحية، ويبدو أن الناصر يوسف علم بأنباء هذا التحالف، وما أعده من خطط لطرد الأيوبيين من بلاد الشام، فتحرك على وجه السرعة، ليحول دون التقاء الحليفين، فأرسل قوة عسكرية من أربعة آلاف مقاتل عسكرت على تل العجول، قُرب غزة، وبعد أن سيطرت على هذه المدينة، ارتدت إلى يافا لاستعادتها من يد لويس التاسع [٣٩]

الخليفة العباسي يتدخل لحل النزاع

بفعل سيطرت الأيوبيين على غزة، ظل جيش المماليك في الصالحية، وظهرت بين الطرفين بوادر احتكاك، واستمر كل منهما يتحفز بالآخر، حتى أضحت المواجهة المكشوفة وشيكة الوقوع، لكن الصُّلح تم بين الطرفين في أوائل سنة: ٦٥١هـ/١٢٥٣م [٤٠]

وذلك أن الخليفة العباسي ظهر له الخطر الجديد والذي يهدد المسلمين جميعاً في الشرق الأدنى، ويتطلب منهم أن يتحدوا ضده، عساهم أن يتمكنوا من صده، ألا وهو المغولي الذين اكتسحوا العراق، ووصلت طلائعهم قُرب بغداد، ولم يبق من قوة في العالم الإسلامي يمكنها أن دعم الخليفة سوى الشام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدين البادرائي لإعادة الصلح وتثبيته بين الناصر يوسف والمعز آيبك [٤١]

وبالفعل تمكن رسول الخليفة من عقد الصلح بينهما فيه:

- إعتراف الناصر يوسف بسلطة آيبك، وبسيادة المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن، على أن تدخل مُدن غزة وبيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني كله في حوزته.

- اعتراف المماليك بسيادة الأيوبيين على بقية بلاد الشام. والواضح أن موجة الرعب التي أثارها المغول أثناء زحفهم من قلب آسيا باتجاه العالم الإسلامي، وأخبار

وحشيتهم، جَعلت الطرفين يستجيبان بسهولة لدعوة الخليفة، وكان المعز آيبك قد استغل انتصاره على الناصر يوسف، وازدياد خطر المغول وتهديدهم لبلاد الشام ومصر، فتخلص من شريكه في الحكم، وهو الأشرف موسى، فحذف اسمه من الخُطبة، وقَبض عليه، وسَجنه في قلعة الجبل وذلك في عام ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، واستقل بالسلطنة [٤٢]

ومن مجمل تلك الأحداث الدائرة في الشرق الإسلامي، اتضح للملك الفرنسي أنه بوسع المسلمين في مصر والشام إذا اتحدت جهودهم، واتفقت كلمتهم، أن يدفعوا عنهم خطر الجماعات الصليبية، وأن يعملوا على مضايقتها بشتى الوسائل. وكان الصلح الذي تم بين الناصر والمعز آيبك في صفر ٦٥١هـ/أبريل ١٢٥٣م بمثابة ضربة وجهت إلى قلب القوى الصليبية، وإلى لويس التاسع نفسه، إذ أنه أتاح الفرصة للناصر يوسف بعد أن فرغ من جميع ما يشغل باله، لتلقين الفرنج درساً قاسياً [٤٣]

وكان من الطبيعي أن يبدأ الصدام بين قوات كل من الناصر يوسف ولويس التاسع ملك فرنسا، بعد أن كشف الأخير عن نياته واتخذ من أمراء مصر حُلفاء له ضد خصومهم في الشام، وساعد على ذلك أيضاً أن قوات صاحب حلب كانت ترابط قبالة غزة، على مقرُبة من المعسكر الصليبي بيافا، ومع أن هذا الصِّدام لم يكن فيه معركة حاسمة، إلا أنه كان مُقدمة أو بداية لسلسلة من الهجمات الشديدة التي ستكيلها القوات الناصرية للصليبيين وولاياتهم، بعد إقرار الصلح بينها وبين مصر [٤٤]

وهكذا فشل لويس التاسع في الاستفادة، من الإنشقاق الذي حدث بين الشام ومصر، واضطر أخيراً إلى مغادرة فلسطين والعودة إلى فرنسا، في ربيع الأول سنة ٦٥٢هـ/٢٤ نيسان ١٢٥٤م، مهزوماً، مجروحاً في كرامته وعزته وكبريائه، بعد هزيمته في مصر، وكان ذلك إيذاناً باضمحلال الروح الفرنجية العسكرية [٤٥]

القبائل العربية تتمرد على المماليك

من ضمن المشاكل التي واجهت السلطان آيبك، ثورة بعض القبال العربية، أو ما يُسمى بالعُربان في مصر سنة ١٢٥٣م. الذين استوطنت مصر بعد الفتح الإسلامي وتأثروا بالبيئة المصرية الزراعية، وأخذت تتحول تدريجياً إلى شعب زراعي مستقر، ولا سيما في أقاليم الصعيد والشرقية. وأُطلق عليهم اسم العرب المزارعة. وكان هؤلاء الأعراب يقومون بفلاحة الأرض على مقربة من القُرى القديمة الآهلة بالفلاحين من أهالي البلاد، غير أنهم كانوا يتمتعون بمركز اجتماعي أعلى من الفلاحين، بسبب تلك المساعدات الحربية التي كانوا يؤدونها للدولة في وقت الحرب الصليبية خاصة.

وكان مشايخ العُربان تقع عليهم تبعة حفظ النظام في القُرى والأرياف، وكذلك المساهمة في الإنتاج الزراعي ودَفع الخراج. وكان تعسف أمراء المماليك في تحديد أثمان المنتجات الزراعية واحتكارها، والتلاعب في أسعارها أحياناً، من الأسباب التي دفعت بهؤلاء المزارعين العرب إلى القيام بثورات متعددة طول العصر المملوكي، وهذه الثورات عُرفت في الكتب المعاصرة باسم: فساد العُربان، وكانت تنتهي في العادة بهزيمة العُربان، نظراً لبراعة المماليك في فنون القتال، وافتقاد العُربان لوسائل القتال الفعالة [٤٦]

فقد جاء في منشور صدر في عصر المماليك ما يلي:... فلا يمكن لأحدٍ من العُربان ولا من الفلاحين أن يركب فرساً، فإنما يعدها للخيانة مختلساً ولا يكون لها مرتبطاً ولا محتسباً، وكن لهم ملاقياً مراقباً، فمن فعل ذلك فانتقم منه بما رسمنا معاقباً، ولا تمكنهم من حمل السلاح، ولا ابتياعه ولا استعارته ولا استيداعه، وتفقد من بالأقاليم من تجارة وصناعة فخذ بالقيمة ما عند التجار، وأقمع بذلك نفس الفجار وأخرم نار العذاب على من أخرم لعمل ذلك النار [٤٧]

وورد في منشور آخر ما يلي:... ولا يُمكن أحداً من العُربان بجميع الوجه القبلي أن

يركب فرساً، ولا يقتنيه. ويكفي بذلك الأيدي المعتدية. فإن المصلحة لمنعهم من ركوبها مقتضية ... ومن وُجِد من العُربان خالف المرسوم الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان ضُرب عنقه، وأرهقه من البطش بما أرهقه ليرتجع به أمثاله. ولا يتسع لأحد في الشرق مجاله [٤٨]

ويَرجع أسباب الصراع القائم بين العرب والمماليك، إلى أن العرب بمصر يرون أن هؤلاء المماليك الذين أستولوا على الحكم لم يكونوا من أهل البلاد، وإنما كانوا مجرد وافدين لأغراض حربية فحسب، كما أنهم لم يرتبطوا مع الشعب المصري بروابط المصاهرة والنسب مثلهم، وظلوا منعزلين عن أفراد الشعب، بعكس العرب الذي اختلط معظمهم بالمصريين، كما أنه إذا كان للمماليك دورٌ فعَّال في الدفاع عن مصر وحمايتها من أعدائها، فإن للمصريين والعرب دورهم أيضاً في الدفاع بنفس القدر الذي كان للمماليك، من هنا فقد رأى العرب أنهم أحق بحكم مصر، من المماليك الغُرباء [٤٩]

فقامت الثورات من قبل العرب ضد المماليك، الذين استخدموا كل ما يمكنهم استخدامه من أجل قمع تلك الثورات، فكانت تلك الوسائل متعددة، وتنطوي على القسوة والقهر، كانت معروفة في ذلك العهد، سواء للقتل أو التعذيب والردع. وقد أدت هذه السياسة إلى هجرة عدد كبير من المزارعين إلى المدن الكبرى، بغية التسول أو السرقة أو الاشتراك في المنازعات والإضطرابات الداخلية التي كانت بين أمراء المماليك، بدوافعها اقتصادية وسياسية.

ولا شك أن الدافع السياسي، وسعي بعض القبائل العربية للقضاء على حكم المماليك ولّدَ ردة فعل لديهم، مما جَعلهم يستخدمون سياسة العنف والقسوة في قمع الثورات، خوفاً على سلطانهم. وكانت أول وأخطر ثورة قام بها الأعراب أيام المماليك، هي الثورة التي قاموا بها في عهد السلطان أيبك التركماني عام ٦٥١هـ /١٢٥٣م، فالمماليك منذ أن أنتصروا على الأيوبيين في وقعة العباسية، وتدخلت

الخلافة في صالحهم، اعتقدوا أن البلاد وما فيها صارت لهم ولا منازع، فبالغوا في الفساد والاستهتار وزيادة الضرائب، إلى درجةضج منها الناس، وكانت سبباً في تحريض البعض منهم على الثورة ضده [٥٠].

لقد كانت فترة حكم المماليك من الفترات القلقة في حياة مصر، والحقيقة المرّة هي أن تمزقاً كان يقوم بين طوائف المجتمع في عهد المماليك، بل وبين الأمراء المماليك أنفسهم وولاءتهم المتعددة، إلا أنه كان هناك إشراقة من الأمل تطل علينا، وشموعاً تضاء لدى هذا القائد أو ذاك، عندما يمس الإيمان شغاف قلبه، ويحرّك القرآن فيه روح الجهاد والاستشهاد، فليس من الإنصاف نسيان هذا الدور الذي قام به والمظفر قطز ومن بعده الظاهر بيبرس، في قيادة الجيش الإسلامي ووقفهم كالطود الشامخ في وجه الزحف التتاري، الذي كان يستهدف عقيدتنا وأنفُسنا وأموالنا، ويسعى لاجتثاث ذلك كله من الوجود، فنصر الله جيش المماليك، ومكنهم من هزيمة المعتدين، بفضله وبوحدة الصف والإيمان الصادق [٥١].

إلا إن أهل مصر ظلوا لم يرضوا بسلطان مسه الرق، وظلوا إلى أن مات السلطان أيبك وهم يُسمعونه ما يكره حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون لا نُريدُ إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة [٥٢].

وكان الذي يتزعم تلك الثورة الشعبية شريف علوي هو:حصن الدين بن ثعلب الذي طمع في السلطنة، وصرح بأن ملك مصر يجب أن يكون للعرب وليس للعبيد الأرقاء، وأقام دولة عربية مستقلة في مصر الوسطى، وفي منطقة الشرقية بالوجه البحري، وكانت قاعدة هذه الدولة بنواحي الفيوم في بلدةٍ تُعرفُ بذروة سريام، أو ذروة الشريف (نسبة إليه)، وتقع بين النيل وترعة المنهى، التي هي الآن بحر يوسف [٥٣].

واتصل الشريف حصن الدين بالملك الناصر يوسف الأيوبي صاحب الشام، يَطلب مساعدته في محاربة أيبك في ذلك الوقت، إذ كانت رُسل الخليفة المستعصم قد تدخلت لحسم النزاع بينهما، وكان العرب يومئذ في كثرة من الرجال والخيل والمال،

بفضل مشاركتهم في حروب الصليبيين. فكوّنوا جيشاً كبيراً والتفوا حول زعيم حصن الدين وحلفوا له. واضطر السلطان أيبك أن يُرسل حملة تأديبية للقضاء على هذه الثورة. ومن عجب أن يسند قيادتها إلى منافسه أقطاي. وذلك فيما يبدو لمهارته الحربية. وخَرج أقطاي من القاهرة بخمسة آلاف فارس من خيرة المماليك. وتوجه إلى الشرقية حيث كانت أكبر مظاهر العصيان. وعلى الرغم من قلة عدد المماليك بالقياس إلى الغرب. تغلب المماليك بسبب تفوقهم الحربي ومهارة قائدهم أقطاي. وتهدمت المقاومة العربية في بلبيس [٥٤].

وبهذه الهزيمة. تم القضاء على المقاومة العربية والتمرد القائم في بلبيس سنة ١٢٥٣م. وبذلك تغلب أيبك على أحد العناصر الهامة. المهددة لقيام دولة المماليك واستقرارها في مصر. وتبدد شمل عرب مصر وخمدت جمرتهم من حينئذ. غير أن حاله العصيان والتمرد في مصر الوسطى ظلت على حالها. حيث ظل حصن الدين طليقاً. وأقام حكومة مستقلة هناك. ولم يتمكن أيبك ومن جاء بعده من سلاطين من القبض عليه. إلى أن خدعه السلطان بيبرس البند قداري وقَبَض عليه وقتله بالإسكندرية [٥٥].

خطر المماليك وأقطاي على أيبك

لقد كان الملك المعز عزّ الدين أيبك من الذكاء. بحيث إنه لم يصطدم بشجرة الدرّ ولا بزعماء المماليك البحرية في أول أمره. بل بدأ يقوي من شأنه. ويُعد عدته تدريجياً. فبدأ يشتري المماليك الخاصة به. ليكون قوة مملوكية عسكرية تدين له هو وحده بالولاء. وانتقى من مماليك مصر من يصلح لهذه المهمة. وكوّن ما يُعرف في التاريخ بالمماليك المعزية. نسبة إليه. ووضَع على رأس هذه المجموعة أبرز رجاله. وأقوى فرسانه. وأعظم أمرائه مطلقاً وهو: سيف الدين قطز [٥٦].

ولقد مكنت تلك الأحداث المتلاحقة لعزّ الدين أيبك من التحكم في مقاليد الأمور في مصر. ومن ثم زاد نفور زعماء المماليك البحرية منه. وبخاصةٍ فارس الدين

أقطاي، الذي كان يُبادله الكراهية بصورة مُعلنة، لا يُخفيها بل يتعمد إبرازها. ولقد بالغ فارس الدين أقطاي في احتقار أيبك والاستهانة به، بحيث كان يُناديه باسمه مجرداً من أي ألقاب، بل كان اعتقاده أن هذا الملك عزّ الدين أيبك، ما هو إلا صورة لا قيمة لها. ومن صور تطاول أقطاي وهو قائد للجيش، أنه كان ينادي الملك هكذا: يا أيبك، وهذا ليس من باب الصداقة بل الاحتقاراً. كانت هذه المعاملة من أقطاي، علاوة على إحساس أيبك أن المماليك البحرية، ينظرون إليه على أنه مجرد زوج للملكة المُتحكمة في الدولة، هذا جَعله يُفكر جدياً في التخلص من أقطاي ليضمن الأمان لنفسه، وليثبت قوته للجميع، وهذه عادة الطغاة من الملوك، أن لا يدع أحداً يبرز إلى جوارهم، قد يعتقد الشعب في قوته أو حِكمته [٥٧].

أيضاً كان من الأمور التي هددت حكم أيبك ودولته الناشئة، غير تلك الثورة التي قام بها العرب، خطر زملائه المماليك البحرية وزعيمهم فارس الدين أقطاي، وكان أيبك بالفعل يتوجس بالفعل من هذه الطائفة، لعلمه بقوتها وخطرها، ومن ثم أخذ يَعمل على تقوية نفسه، فأنشأ فرقة من المماليك عُرفوا بالمعزية نسبة إلى لقبه الملك المعز، كما عيَّن مملوكه قطز المعزى نائباً للسلطنة بمصر، ثم لم يلبث أن أخرج المماليك البحرية من ثكناتهم بجزيرة الروضة، وعَزل الملك الأيوبي الطفل موسى شريكه في الحكم، وانفرد بالسلطنة [٥٨].

على أن هذه الإجراءات كلها لم تكن إلا مُجرد احتياطات شكلية، لم تُقلل من خطر أقطاي وزملائه البحرية، وبالفعل في هذه الفترة وصل أقطاي إلى قمة المجد، خصوصاً بعد تغلبه على ثورة العَرب، وأصبح لا يَظهر في مكان إلا حوله حرس عظيم من الفرسان المسلحين، كأنه ملك متوج، حتى كان يستصغر مُلك مصر، ويراه لا شيء عنده، وكان كثيراً ما يَذكر الملك المُعز أيبك في مجلسه ويستنقصه ولا يُسميه إلا أيبكاً، وقد بلغ ذلك المعز فكان يَتغاضى عنه لكثرة خشداشيته البحرية [٥٩].

ولقد اجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاي، والذي استولى على الأمور كلها، وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يَقدر أحد أن يفتح كتاباً ولا يتكلم بشيءٍ، ولا يُبرم أمراً، إلا بحضور أقطاي، لكثرة خشداشيته، وحدثته نفسه بالمُلك، وكان أصحابه يُسمونه الملك الجواد فيما بينهم، وعملوا على تزويجه من أحد أميرات البيت الأيوبي، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة، بل إنهم تآمروا على قتل أيبك ليخلو الجو لأقطاي [٦٠].

ولقد صار أقطاي نائب المملكة لعزّ الدين أيبك، وكان أقطاي بطلاً شجاعاً جواداً، مليح الشكل، كثير التحمل، وكان طائشاً ظلوماً عمّالاً على السلطنة، بقي، يركب في دست الملك، ولا يلتفت على المعز، ويأخذ ما شاء من الخزائن، بحيث إنه قال: اخلوا لي القلعة حتى أعمل عُرس بنت صاحب حماة بها [٦١].

انتظر أيبك الفرصة المناسبة، إلى أن علم أن أقطاي يتجهز للزواج من إحدى الأميرات الأيوبيات، وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود ملك حماة، فأدرك أن أقطاي يحاول أن يضفي على نفسه صورة جميلة أمام الشعب، وأنه يريد أن يَجعل له انتماءً واضحاً للأسرة الأيوبية التي حكمت مصر قرابة ثمانين سنة، وإذا كانت شجرة الدرّ حكمت مصر لكونها زوجة الصالح أيوب، فلماذا لا يحكم أقطاي مصر لكونه زوجاً لأميرة أيوبية، فضلاً عن قوته وبأسه وتاريخه وقيادته للجيش في موقعة المنصورة الفاصلة ضد الصليبيين.

وفهم المعز عزّ الدين أيبك أنه مُستهدف لإزالته من الحكم، وشعر بالخطر الشديد، وأن هذه بوادر انقلاب عليه، والانقلاب عادة يكون بالسيف، فاعتبر أن ما فعله أقطاي سابقاً من إهانة واحتقار، وما يَفعله الآن من زواج بالأميرة الأيوبية، ما هو إلا مؤامرة لتنحية أيبك عن الحكم، فقرّر التخلص منه، واتفق مع مماليكه على ذلك وأرسل إلى أقطاي يستدعيه، موهماً له أنه يستشيره في مهمات من الأمور، وأكمن له كميناً من مماليكه وراء باب قاعة الأعمدة بالقلعة، وقرر معهم أنه إذا مَرَّ مجتازاً بالدهليز يبتدرونه بسرعة [٦٢].

وفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من شعبان سنة ٦٥٢ هـ، وردت إلى أقطاي رسالة الملك المعز بادر بالركوب في نفر يسير من مماليكه، من غير أن يَعلم أحد من خشداشيته، لثقته بنفسه التي تجاوزت حد الغرور، وطلع القلعة آمناً ولم يدر بما كان له كامناً، فلما وصل إلى باب القلعة مُنع مماليكه من الدخول معه، فوثب عليه المماليك المعزّية فقتلوه.

وأمر المعز بغلق باب القلعة، فركبت مماليك وحاشية فارس الدين أقطاي، وكانوا سبعمائة فارس، ومعهم جماعة من البحرية وقَصدوا قلعة الجبل، بُناءً على أن المعز قُبض عليه، فبينما هم كذلك أرمي لهم برأسه من فوق السور، فالتفت بعضهم إلى بعض وقالوا: على من تقاتلوا!؟، فتفرقوا جميعهم، وهذا الحادثة شبيهة بحادث قتل عبد الملك بن مروان لعمرو بن سعيد، ولما شاع الخبر بقتل فارس الدين أقطاي، أجمع البحرية على الخروج إلى الشام، وكان من أعيانهم يومئذ ركن الدين بيبرس البندقدار ي، وقلاون الألفي، وسُنقر الأستقر، وبَيْسري، وسِكر، وبرامق، فشمروا وخرجوا ليلاً فوجدوا باب المدينة الذي قصدوا الخروج منه مُغلقاً، فأضرموا فيه النار، وهو الباب المعروف بباب القارطين فأحرقوه، وخَرجوا منه نحو الشام، فسُمي من يومئذ الباب المحروق [٦٣].

وبقتل فارس الدين أقطاي خَلت الساحة لعز الدين أيبك، وبدأ يُظهر قوته، ويُبرز كلمته، وبدأ دور الزوجة شجرة الدرّ يقل ويضمحل: فقد اكتسب الملك المعز الخبرة اللازمة، وزادت قوة مماليكه المعزية، واستقرت الأوضاع في بلده، فرضي عنه شعبه، واعترف له الخليفة العباسي بالسيادة، ورضي منه أمراء الشام الأيوبيون بالصلح، وبقتل فارس الدين أقطاي انقسم المماليك إلى حزبين كبيرين متنافرين: المماليك البحرية الذين يدينون بالولاء لشجرة الدر، والمماليك المعزية الذين يدينون بالولاء للملك المعز عزّ الدين أيبك [٦٤].

ولما قُتل فارس الدين أقطاي، وهو أكبر المماليك البحرية قَدراً، وأعظمهم هيبة،

صار احتمال قتل بقية زعماء المماليك البحرية قريباً. وباتت المماليك البحرية في توجس وريبة. وما استطاعت زعيمتهم شجرة الدرّ أن تَفعل لهم شيئاً. وهنا قرر زعماء المماليك البحرية الهروب إلى الشام خوفاً من الملك المعز عز الدين أيبك. فقصدوا الملك الناصر صاحب الشام ليكونوا عنده. وكان على رأس الهاربين ركن الدين بيبرس. الذي ذهب إلى الناصر يوسف. الذي كان يَحكم حلب ثم دمشق. ودخل ركن الدين بيبرس في طاعته. مع أن ناصر الدين هذا له تاريخ غير مشرف [٦٥].

ولما أصبح المعز بلغه هروبهم من المدينة. فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسوانهم وغلمانهم وأتباعهم. وأمرَ بتصفيت أموالهم وذخائرهم وشؤنهم وخزائنهم. واستتر من تأخر منهم. وحُمِّل من موجود الأمير فارس الدين أقطاي. الأحمال الكثيرة من الأموال. ونودي على البحرية في الأسواق والشوارع. وتمكن الملك المعز من المملكة وارتجع ثغر الإسكندرية إلى الخاص السلطاني. وأبطلَ ما قرره من الجبايات. وأعفى الرعية من المصادرات والمطالبات. وأما البحريةّ. فإنهم وفدوا على الملك الناصر. فأقبل عليهم وأحسن إليهم. وأعطى كلاً منهم إقطاعاً يلائمه. ثم عزم على قصد الديار المصرية. فجرَّد عسكراً صحبة البحرية. فساروا ونزلوا الغور واتخذوا العوجاء منزلاً. وبلغ المعزّ مسيرهم إليه واتفاقهم عليه. فبرز بالعساكر المصرية ومعه جماعة ممن حضر إليه من العزيزية. فنزل البارده بالقرب من العباسية وانقضت هذه السنة وهو مخيم به [٦٦].

وفي هذه السنة وصل الشريف المرتضى من الروم. ومعه بنت السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسروا صاحب الروم. وكان الناصر قد خَطبها لنفسه. فزُفت إليه بدمشق. ودَخل بها واحتفل بها احتفالا كبيراً [٦٧].

وهكذا صفا الجو في مصر تماماً لعز الدين أيبك. وإن كان العداء بينه وبين المماليك البحرية قد تجاوز مرحلة الشكوك والتوقعات. وأصبح مُعلناً وصريحاً. و من جديد توسط الخليفة العباسي المستعصم بالله ليضمن استقرار الأوضاع في

مصر والشام، لأن انضمام المماليك البحرية إلى الأمراء الأيوبيين بالشام قد يُشعل نار الفتنة من جديد بين مصر والشام، ونجحت وساطة الخليفة العباسي، واتفقوا على أن يعيش المماليك البحرية في فلسطين، التي كانت تابعة للملك عز الدين أيبك، ويبقى الملك أيبك في مصر، إلا أن ركن الدين بيبرس زعيم المماليك البحرية الآن بعد قتل فارس الدين أقطاي، آثرَ أن يبقى في دمشق عند الناصر يوسف الأيوبي.

ومرت السنوات، والملك المعز أيبك مستقر في عرشه، وقد أصبح قائده سيف الدين قطز قائداً بارزاً معروفاً عند الخاصة والعامة، واختفى تقريباً دور الزوجة الملكة القديمة شجرة الدر، وهذا كله جَعل الحقد يغلي في قلب شجرة الدر، وكان عزّ الدين أيبك يبادلها نفس الشعور، فهو يَعلم أنها ما تزوجته إلا لتحكم مصر من خلاله [٦٨].

مقتل عز الدين أيبك

في سنة ٦٥٥ هـ وبعد مرور ٧ سنوات كاملة على حكم الملك المعز عز الدين أيبك، تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجر الدر، فعزم على قتلها، وكان له مُنجم قد أخبره أن سبب قتلته امرأة، فكانت هي شجر الدر، ومن أجل أن تنفذ إرادة اللّه، أراد الملك المعز أن يُثَبّت أقدامه على عرش مصر بصورة أكبر، بل لقد تزايدت أطماعه في المناطق المجاورة له في فلسطين والشام، ولم تكن له طاقة على تنفيذ هذه الأطماع بمفرده، فأراد أن يُقيم حِلفاً مع أحد الأمراء الكبار في المنطقة لِيُساعده في ذلك، علاوة على شعوره بما بين المماليك البحرية بالكرك، من مراسلات واتفاقات، فعزم على الزواج من غيرها، ولما كانت الخيانة في العهود أمراً طبيعياً في تلك الآونة، فإنه أراد أن يوثق الحلف برباط غليظ وهو الزواج، فاختار بنت حاكم الموصل: الأمير بدر الدين لؤلؤ، والذي طالما تعاونه مع التتار، فأرسل إليه سنة ١٢٥٦م، يطلب منه زواج ابنته، كوثيقة لتحالف اجتماعي وسياسي، وقد يكون استخباراتي أيضاً، ليس من المعقول أن تكون الخطبة قاصرة على مجرد الرغبة في

الزواج. إذ ربما أراد من وراء ذلك الحلف معرفة تحركات المغول. عن طريق صاحب الموصل. وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه المسألة بداية الخاتمة ليس لعهد أيبك كحاكم. بل ولحياته كلها. وذلك أن شجرة الدر لما علمت ما يبيته أخذت هي تتزعم حركة المعارضة الداخلية والخارجية لسلطنته. فقام بعض من بقي في مصر من البحرية بمعارضة مشروع الزواج.

عند ذلك قَبض أيبك على عدد كبير. منهم: أيدكين الصالحي. وسيَّرهم لقلعة الجبل لسجنهم في الجب. فلما وصلوا إلى قرب نافذه القصر السلطاني حيث سكنت شجرة الدر. أحنى الأمير أيدكين رأسه احتراماً وقال بالتركية: (واللّه يا خوند - ومعناه: السيد أو الأمير ويخاطب به الذكور أو الإناث - ما عملنا ذنب يوجب مسكناً. ولكنه لما سيَّر يخطب بنت صاحب الموصل. ما هان علينا لأجلك. فانا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم"الصالح أيوب". فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين. فأومأت إليه شجرة الدر بمنديلها من الشباك. بما معناه"قد سمعت كلامك" وعندما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكين: إن كان قد حبسنا فقد قتلناه [٦٩].

وعلمت شجرة الدرّ بهذا الأمر. وكان لا بد لها أنت تَعلم به. فتملكتها الغيرة. وركبها الهم والغم. وعلمت أنه لو تم هذا الزواج الجديد فستُطوى صفحتها تماماً من التاريخ. وأعْمَتها الكراهية عن حُسن تقدير الأمور. وهي التي اشتهرت بالحكمة. فلم تُقدّر أن زعماء المماليك البحرية قد اختفوا. وأن القوة الحقيقية الآن في أيدي المماليك المعزّية الذين يدينون بالولاء والطاعة للملك المعز عز الدين أيبك. لم تُقدّر كل ذلك. وقررت بعاطفة متهورة غير مدروسة. ولكنها مألوفة لديها. قتل زوجها الملك عز الدين أيبك. فقد فعلتها قبل ذلك مع طوران شاه ابن زوجها السابق. وهي ستفعلها الآن مع زوجها الحالي. وليكن ما يكون [٧٠].

وكانت شجر الدر قد بعثت نصراً العزيزي بهدية إلى الملك الناصر يوسف. وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز. والتزوج به وتمليكه مصر. فخشي الملك

الناصر يوسف أن تكون هذا خديعة، فلم يُجبها بشيء. وأرسل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر الملك المعز من شجر الدر، وأنها باطنت الملك الناصر يوسف، فتباعد ما بينهما، وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة. وكانت شجر الدر قد استبدت بأمور المملكة ولا تُطلعه عليها، وتمنعه من الاجتماع بأم ابنه وألزمته بطلاقها، ولم تُطلعه على ذخائر الملك الصالح [٧١].

وأقام الملك المعز بمناظر اللوق أياماً، حتى أرسلت إليه شجرة الدر برسالة رقيقة تتلطفه بها، وتدعوه بالحضور إليها بالقلعة، فطلع القلعة، حيث اعدت له شجرة الدر خمسة من الغلمان الأشداء لاغتياله، منهم محسن الجوجرى ونصر العزيزي، وسنجر، وكان آخرهم من مماليك أقطاي.

فلما كان يوم الثلاثاء الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة٦٥٥ هـ/ أبريل سنة ١٢٥٧م، ركب الملك المعز من الميدان بأرض اللوق، وصعد إلى قلعة الجبل آخر النهار، ودَخل إلى الحمام ليلاً، فأغلق عليه الباب محسن الجوجري، والغلمان الذين اتفقت معهم شجرة الدر، وتم تنفيذ المؤامرة، وقتلوا عز الدين أيبك، بأن أخذه بعضهم بأنثييه وبخناقه، فاستغاث المعز بشجرة الدر فقالت اتركوه، فأغلظ لها محسن الجوجري في القول، وقال لها: متى تركناه لا يُبقي علينا ولا عليك، ثم قتلوه، لينتهي بذلك حكمه الذي دام سبع سنوات على عرش مصر، وهكذا تكون شجرة الدرّ قد قتلت اثنين من سلاطين مصر: طوران شاه، ثم ها هي تُثني بعز الدين أيبك [٧٢].

حاولت شجرة الدر إخفاء واقعة القتل، وأمرت بتجهيز جثمان عز الدين أيبك بملابس لائقة ووضعه على فراشه، والإدعاء بأنه سقط من فوق جواده أثناء عدوه، وتسبب ذلك في إصابات أنهت حياته، وسرعان ما أنتشر نبأ وفاة السلطان عز الدين أيبك، وبدأ أمراء المماليك يتوافدون على القصر، وكانت شجرة الدر ما تفتأ تروي واقعة سقوطه من على ظهر جواده، لكنهم استمعوا إليها في ريبة، فقد شهد أيبك معارك كثيرة خاضها وهو يحارب من على ظهر جواده، لكنها في كل مرة كانت

تصر وتؤكد الواقعة [٧٣].

ولم يكن من الممكن أخفاء هذه الجريمة الكبيرة. فعلم بها الجميع. فبعثت شجر الدر بإصبع المعز وخادمة إلى الأمير عز الدين أيبك الحلبي الكبير. وقالت له: قم بالأمر. فلم يجسر وأشيع أن المعز مات فَجْأَةً في الليل. وأقاموا الصائح في القلعة. فلم تُصدق مماليكه بذلك: وقام الأمير لهم الدين سنجر الغتمي. وهو يومئذ شوكة البحرية وشديدهم. وبادر هو والمماليك إلى الدور السلطانية. وقَبضوا على الخدام والحرم وعاقبوهم. فأقروا بما جرى. وعند ذلك قبضوا على شجر الدر. ومحسن الجوجري. وناصر الدين حلاوة. وصدر الباز. وفر العزيزي إلى الشام [٧٤].

وأُحيط بشجرة الدر. وواجها أمراء المماليك. فلم يكن أمامها إلا أن تعترف بأنها أرادت الانتقام. لكن لم يخطر ببالها أبداً أن ذلك سيؤدي إلى وفاته. وتشاور أمراء المماليك فيما يصنعون. لقد وقفوا مع شجرة الدر بادئ الأمر. وصنعوا منها ملكة وسلطانة. وأحاطوها برعايتهم وحمايتهم. حتى في أصعب الأوقات. وباركوا زواجها من عز الدين أيبك. وساعدوها على أن تُصبح زوجة السلطان. فكيف تفعل هذه الفعلة النكراء؟ وتتنكر على هذا النحو البغيض على أنهم انقسموا على أمرهم. وانحاز بعض الأمراء إلى جانبها وأعادوا ما كان لأيبك من قسوة وغلظة وجبروت. فضلاً عن أن وجود شجرة الدر يعتبر ضرورياً كرمزٍ للشرعية. فهي أرملة نجم الدين أيوب وأم أبنه خليل. ولها من الأيادي على مصر وعلى المماليك أنفسهم الشيء الكثير البادي للعيان.

ورأى البعض الآخر أنها قد ارتكبت جريمة مُرعبة. وكاد الأمر أن يتطور إلى حرب بين الفريقين. وأخيراً انتصر أعداؤها. وأرادوا قتلها. فحماها الصالحية. ونُقلت إلى البرج الأحمر بالقلعة [٧٥].

وأسرع سيف الدين قطز قائد الجيش. والذراع الأيمن للمعز عز الدين أيبك. ومعه ابن عزّ الدين أيبك من زوجته الأولى. وكان اسمه نور الدين علي. أسرعا ومعهما

فِرقة من المماليك المعزية، وألقيا القبض على شجرة الدرّ، وطلبت أمّ نور الدين علي وزوجة المعز عزّ الدين أيبك الأولى، أن يترك لها الأمر في التصرف مع ضرتها شجرة الدرّ، فحُملت شجر الدر إليها يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة٦٥٥ هـ، حيث كانت غريمتها أم علي، زوجة أيبك الأولى، وقد أصبحت أماً للسلطان الجديد، وتمايلت أم علي فرحاً فكانت تنتظر فرصة كهذه منذ سبع سنوات، منذ أن هجرها زوجها أيبك وهجر معهما أبنهما علي. إن ساعة الإنتقام قد أزفت، وكانت النهاية المأساوية المشهورة، أن أمرت أمّ نور الدين جواريها بالدخول على شجرة الدر وضربها بالقباقيب حتى تفارق الحياة، فضربنها بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق، وليس عليها غير سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياماً، وأخذ بعض أراذل العامة تكتة سراويلها، ثم دُفنت بعد أيام وقد نتنت، وحُملت في قفة بتربتها قُريب الشهد النفيسي [٧٦].

وصُلب محسن الجوجري على باب القلعة، ووسط تحت القلعة أربعون طواشياً وصُلبوا من القلعة إلى باب زويلة، وقُبض على الصاحب بهاء الدين بن حنا، لكونه وزير شجر الدر، وأُخذَ خطة بضمان تغرمه ستين ألف دينار [٧٧].

وفي خارج القصر هدأت الجموع التي أثارها انتشار النبأ، ورضي الجيش بالسلطان الجديد، بعد أن كان قد انقسم على نفسه بين مؤيد لشجرة الدر ومنكر لها، وتوقفت أعمال الشغب التي كانت قد انتشرت في القاهرة، وتجنّب أمراء المماليك شبح الفتنة التي كانت، تتهددهم، واقتيدت شجرة الدر إلى بلاط السلطان الجديد، فتم قتلها كما قدمنا [٧٨].

فكانت مدة سلطنة الملك المعز سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوماً، وعمره نحو ستين سنة، وكان ملكاً حازماً شجاعاً سفاكاً للدماء: قتل خلقاً كثيراً، وشنق عالماً من الناس بغير ذنب ليوقع في القلوب مهابته، وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده، ووزر له الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ثم صَرفه،

واستوزر القاضي الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي، فتمكن منه ممكناً زائداً وأحدث القاضي الأسعد حوادث شنيعة من المظالم، واستناب في الوزارة القاضي زين الدين يعقوب بن الزبير، وكان يَعرف اللسان التركي، ليحفظ له مجالس أمراء الدولة، ويطالعه ما يُقال عنه [٧٩].

ولعل حادث مقتل شجرة الدر، هو حادث القتل الوحيد في القصة الذي له خلفية شرعية مَقبولة، فقد قَتلت شجرة الدرّ زوجها عزّ الدين أيبك دون مُبرر معقول، فليس الزواج من امرأة أخرى جريمة، وليس الانفراد بالحكم دون الانصياع لحكم الزوجة جريمة، ولذلك فليس لديها مسوغ شرعي للقتل. فكان لابد أن تُقتل، ولكن المؤكد أن الطريقة التي قُتلت بها لم تكن طريقة شرعية، بل كانت طريقة نسائية بحتة، لم يُقصد منها القتل فقط، بل قُصد منها الإهانة والتحقير والذل والانتقام وإشفاء الغليل، على نحو ما فَعل التتار بالخليفة المستعصم بعد ذلك، عند سقوط بغداد، حيث تم قتل رفساً بالأقدام.

وكانت شجرة الدر بارعة الحُسن، ذات ذكاء وعقل ودهاء، نالت من السعادة أعلى المراتب، بحيث أنها خُطِبَ لها على المنابر، وملّكوها عليهم أياماً. فلم يتم ذلك، وتملك المعز أيبك فتزوج بها، وكانت ربما تحكم عليه، وكانت تُركية ذات شهامة وإقدام وجرأة وآل أمرها إلى أن قتلت [٨٠].

وأما غريمتها أم علي، أم السلطان الجديد، فكانت قد نَذرت أن تدعو كل سُكان القاهرة، إلى وجبة من الحلوى في نفس اليوم الذي تتخلص فيه من غريمتها، وعندما ماتت شجرة الدر، أمَرت طُهاة القصر بإعداد تلك الوجبة، لكن الوقت لا يَسمح بالانتهاء في نفس اليوم، فجاءتهم بوصفة طهي بسيطة للغاية، وهي تلك الأكلة من الحلوى التي سميت بأم علي فيما بعد على اسمها، فجَمعت كميات ضخمة من الخبز، تم تسخينها إلى درجة الاحمرار ثم غمرها في اللبن والعسل، ثم تغطيتها بطبقة سمكية من اللوز والزبيب والصنوبر، وهي وجبة الحلوى اللذيذة التي تقدم

في المطاعم في هذه الأيام. وقد سُميت باسمها(أم علي) [٨١].

سلطنة علي بن المعز

صمم المماليك المعزية. وعلى رأسهم سيف الدين قطز. على أن يُقيموا على العرش الذي بات شاغراً بمصرع آيبك. صبياً في الخامسة عشر من عمر وهو نور الدين علي ابن سيدهم المعز آيبك. وتم ذلك في يوم الخميس السادس عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. ولقبوه الملك المنصور علي. وعُمره خمس عشرة سنة تقريباً. وحلفوا له واستحلفوا العسكر. ماخلا الأمير عز الدين أيبك الحلبي المعروف بأبيك الكبير. فإنه توقف وأراد الأمر لنفسه. ثم وافق خوفاً على نفسه. وأُقيم الأمير سيف الدين قطز نائب السلطة على عادته. وصار مدبر الدولة الملك المنصور علي [٨٢].

وقد رَفض المماليك الاعتراف بالسلطان الصبي. وتجسد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة. استنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام. وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك. في دولة الأردن الحالية. حاول غزو مصر مرتين. مستغلاً هذا القلق بمصر. لكن الفشل كان من نصيبه [٨٣]..

إلا أن هذه الاضطرابات كانت فرصة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز. الذي ركب هو والأمراء. وقبض على الأمير سنجر الحلبي. يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر. واعتقله. وحَبسه في الجب بقلعة الجبل. لأنه كان يَطمع في السلطنة بعد مقتل المعز آيبك. ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش. وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطرابات والفوضى. فقد ركب الأمير أيبك الحلبي الكبير في الأمراء الصالحية. فتقنطر عن فرسه خارج باب زويلة فسقط. فأدخل إلى القاهرة ميتاً. وهرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام. وطاردهم المماليك المعزية وقَبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة. وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان. وصار مدبر دولة الملك المنصور علي [٨٤].

وأقيم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب الصالحي أتابك العساكر، عوضاً عن الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذي قتله قطز، واستمر الوزرة لشرف الدين الفائزي على عادته، فوشى به الأمير سابق الدين الصيرفي، والأمير ناصر الدين محمد بن الأطروش الكردي أمير جاندار، أنه قال: المملكة ما تمشي بالصبيان، والرأي أن يكون الملك الناصر، فتوهمت أم المنصور من أنه يُراسل إلى الملك الناصر، وقبضت عليه وأدخلته إلى الدور، وأخذت خطة بمائة ألف دينار، واستقر في الوزارة بعده قاضي القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري، مضافاً إليه القضاء، وأحيط بأموال الفائزي، وقُبض على جماعة بسببه، ثم إن قاضي القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري استعفى من الوزارة، وتركها في ربيع الآخر، فتقلد الوزارة قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن خلف العلائي، المعروف بابن بنت الأعز، بعد السنجاري [٨٥].

وفي هذه السنة ٦٥٦هـ، بَلغَ المماليك البحرية الذين كانوا ببلاد سلاجقة الروم موت الملك المعز، فساروا في البر والبحر، ووصلوا إلى القاهرة، فلم تطل مدتهم، حتى كرهوا المنصور بن المعز، لكثرة لعبه بالحمام، ومناقرتهِ بالديوك، ومعالجته بالحجارة، وركوبه الحمير الفرء في القلعة، ومناطحته بالكباش، و في جمادى الأولى من هذه السنة دخل الصارم أحمد عينه الصالحي بجماعةٍ، فقتلوا الوزير الفائزي، وأُخرج في نخ، وقد دخل القاضي برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا على شرف الدين الفائزي وهو مُعتقل، فسأله الفائزي أن يتحدث في إطلاقه، على أنه يَحمل في كل يوم ألف دينار إليهم، فسأله القاضي برهان الدين: وكيف تقدر على ذلك، فقال: أقدر عليه إلى تمام السنة، وإلى أن تمضي سنة يَفرج الله تعالى، فلم يلتفت مماليك الملك المعز إلى ذلك، وعَجّلوا بهلاكه وخنقوه، وحُمل إلى القرافة فدُفن بها [٨٦].

ولعل هذه البيعة التي تمت في ربيع الأول من سنة ٦٥٥ هـ، لنور الدين علي، ابن عزّ الدين أيبك كسلطانٍ لمصر، ولم يكن قد بلغ بعد الخامسة عشر من عُمره، لم تكن لتكون في هذه الظروف 'التي تتهدد فيها البلاد الكثير من الأخطار، إلا لوقف

النزاع المتوقع بين زعماء المماليك على الحكم. وقد تلقب السلطان الصغير بلقب بالمنصور، وتولى الوصاية الكاملة عليه أقوى الرجال في مصر في ذلك الوقت وهو سيف الدين قطز قائد الجيش، وزعيم المماليك المعزّية، وأكثر الناس ولاءً للملك السابق المعزّ: عزّ الدين أيبك [٨٧].

وكان جلوس السلطان الصبي على العرش مسألة قُصد بها كسب الوقت، حتى يمكن لواحد من كبار المماليك الطامعين في عرش السلطنة أن يَحسم الصراع لصالحه، وهو نفس المشهد الذي تم رسمه عندما تواطأوا، وسكتوا على اعتلاء شجرة الدر لعرش البلاد من قبل، بل لقد وقد تكرر هذا مشهداً كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال ذلك العصر. ونشير هنا إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش، إذ طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعاً سواء في ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعاً يستحقون العرش الذي يفوز به أقواهم، وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين، متبعين مبدأ: الحكم لمن غلب. وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء المماليك، لا سيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان.

وكان هذا هو الحال، عندما مات عز الدين آيبك، ولم يشأ سيف الدين قطز أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركاً للسلطان الصبي شعار السلطنة ولقبها فقط، وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى من قطز، ثم جاءت له الفرصة تسعى، وكان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه [٨٨].

وعلى حين كانت الإشاعات تملأ القاهرة بأن السلطان الصبي نور الدين علي بن المعز آيبك، يُريد خلع قطز مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء في توليه عرش البلاد،

اجتمع الأمراء في بيت أحد كبارهم. وتكلموا إلى أن نجحوا في إصلاح الأمور بين الملك المنصور علي وبين مملوك أبيه الأمير قطز. وخلع الملك المنصور عليه. وطيَّب قلبه. وهكذا توطدت مكانة سيف الدين في الدولة [٨٩].

في هذا الوقت كانت الأحوال في مصر متردية تماماً بسبب الفتن التي أثارتها طوائف المماليك في القاهرة. كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التي قام بها المغيث عمر صاحب إمارة الكرك في ذي القعدة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م. وفي ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م يقلق سيف الدين قطز. بحيث خَرج في المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبي وبفضل شجاعته تم القضاء عل هذا الخطر الأيوبي. وفي نفس الوقت كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة في الداخل. وبعد أن واجه الخطر الخارجي. قام بالقبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى الملك المغيث عمر صاحب إمارة الكرك. بالأردن الحالية. في نفس الشهر. وهم: الأمير: عز الدين آيبك الرومي الصالحي. والأمير سيف بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي. والأمير بدر الدين بكتوت الأشرفي. والأمير بدر الدين بلغان الأشرفي. وغيرهم. وضَربَ أعناقهم في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. واستولى على أموالهم كلها [٩٠].

وكان هولاكو قد ملك بغداد في السادس من صفر سنة ٦٥٥ هـ. وقَتل الخليفة المستعصم بالله عبد الله. فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام. وانقرضت بمهلكه دولة بني العباس من بغداد. وصار الناس بغير خليفة إلى سنة ٦٥٩ هـ.

وقُتل الناس ببغداد وتمزقوا في الأقطار. وخَرب التتار الجوامع والمساجد والمشاهد. وسفكوا الدماء حتى جرت في الطرقات. واستمروا على ذلك أربعين يوماً. وأمر هولاكو بِعَد القتلى. فبلغت نحو الألفي ألف قتيل. وتلاشت الأحوال بها. وملك التتار أربل. ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في طاعتهم.

وفي هذه السنة ٦٥٥ هـ. كثر الوباء ببلاد الشام. فكان يموت من حلب في كل يوم

ألف ومائتا إنسان. ومات من أهل دمشق خلق كثير. وبلغ الرطل التمر هندي ستين درهماً [٩١].

سيف الدين قطز يحكم مصر

السلطان الملك المظفر سيف الدين قُطُزْ بن عبد اللّه المعزي. الثالث من ملوك الترك بالديار المصرية. وقُطُزْ لفظ مغلي. تسلطن بعد خَلع الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك. في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ. وذلك بعد أن عظمت الأراجيف بتحرك التتار نحو البلاد الشامية. وقَطعهم الفُرات وهُجُمهم بالغارات على البلاد الحلبية [٩٢].

يُعدُ سيف الدين قطز من أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين. اسمه الأصلي محمود بن ممدود. وهو من بيت مسلم ملكي أصيل. فهو ابن أخت السلطان الكبير جلال الدين الخوارزمي. الملك الخوارزمي المشهور. الذي قاتل التتار فترة طويلة وانتصر عليهم في عدة مواقع. وقَتل أحد أبناء جنكيز خان. ثم هُزم منهم. وفرّ إلى الهند. وعند فراره إلى الهند أمسك التتار بأسرته فقتلوا معظمهم. واسترقوا بعضهم. وكان محمود بن ممدود أحد أولئك الذين استرقهم التتار. وأطلقوا عليه اسماً مغولياً هو: قطز. وهي كلمة تعني: الكلب الشرس. ويبدو أنه كانت تبدو عليه من صغره علامات القوة والبأس. ثم باعه التتار بعد ذلك في أسواق الرقيق في دمشق. واشتراه أحد الأيوبيين. وجاء به إلى مصر. ثم انتقل من سيد إلى غيره. حتى وصل في النهاية إلى عزّ الدين أيبك لِيُصبح أكبر قُواده [٩٣].

نشأة سيف الدين قطز

نشأ سيف الدين قطز على تربية دينية قويمة. وامتلأت نفسه بالحمية الإسلامية القوية. وتمرس منذ صغره على فنون الفروسية والقتال. وتدرب على أنواع الإدارة. وطُرق القيادة. فنشأ شاباً فتياً أبياً محباً ومعظماً لدينه. وهكذا صنعت

هذه العوامل مجتمعة من قطز رجلاً ذا طراز خاص جداً فلقد كان صبوراً جلد، تَحمَّل الكثير منذ صباه، وحتى تمكن من دحر التتار وقائدهم، فلقد كانت طفولته طفولة الأمراء، فقد وُلد في بيت ملكي، مما أعطاه ثقة كبيرة في نفسه، فلم يكن غريباً عليه من ثم أمور القيادة والإدارة والحكم، علاوة على وعيه الكامل والجيد لمأساة أسرته مع التتار [٩٤].

أحوال مصر بعد مقتل أيبك

لقد قُتل عز الدين أيبك، ثم قُتلت شجرة الدر، وتولى الحكم المنصور نور الدين علي بن عز الدين أيبك، وتولى سيف الدين قطز الوصاية عليه، وتكررت نفس أحداث صعود شجرة الدرّ إلى كرسي الحكم، فلقد اضطربت الأحوال في مصر بصعود الطفل نور الدين إلى كرسي الحكم، وكانت أكثرها من قِبل بعض المماليك البحرية الذين مكثوا في مصر، ولم يهربوا إلى الشام مع من هرب منها عز الدين أيبك، وتزعم هؤلاء المماليك البحرية سنجر الحلبي، وكان يَرغب في الحكم لنفسه بعد مقتل أيبك، فَقَبض عليه قطز هو وبعض رؤس الثورة وحُبسهم، فأسرع بقية المماليك البحرية إلى الهرب إلى الشام، فلحقوا بزعمائهم الذين فروا قبل ذلك إلى هناك أيام أيبك.

ولما وصل المماليك البحرية إلى الشام شَجعوا الأمراء الأيوبيين على غزو مصر، واستجاب لهم بالفعل بعض هؤلاء الأمراء، ومنهم مغيث الدين عمر أمير الكرك (الأردن حالياً)، والذي تقدم بجيشه لغزو مصر، وكان أميراً ضعيفاً جداً، ومع ذلك كان صاحب أطماع كبيرة، ووصل مغيث الدين بالفعل بجيشه إلى مصر، فَخَرج له قطز في ذي القعدة من سنة ٦٥٥ هـ، فصدّه عن دخولها، ومرة أخرى عاد مغيث الدين تراوده أحلام غزو مصر، فصدّه قطز مرة أخرى في ربيع الآخر سنة ٦٥٦ هـ، بعد سقوط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية بأقلّ من شهرين فقط، فقد سقطت بغداد في صفر سنة ٦٥٦ هجرية، وهذا من العجائب، ومن أكبر الأدلة على عدم

وطنية هذا الرجل، بل وخيانته لدينه وبلاده، أنه بدلاً من توجيه كل طاقته إلى التتار، إذا به يتوجه لحرب المسلمين، إنه مرض الحَوَل السياسي الذي كثيراً ما يصيب القادة المسلمين، وفي تلك الأيام خاصة [٩٥].

وبدأ هولاكو في هذه الأثناء في الإعداد لغزو الشام، وسير ولده أشموط بن هولاكو إلى الشام، وأمره بقطع الفرات وأخذ البلاد الشامية، وسيره في جمع كثيف من التتار، وحاصر أشموط ميافارقين، بداية من شهر رجب سنة ٦٥٦ هـ، وبدأ هولاكو في التحرك من فارس إلى الشام، مروراً بشمال العراق في سنة ٦٥٧ هـ، واحتل نصيبين والرها والبيرة، واقترب من حلب، وأصبح واضحاً أن هولاكو لن يتوقف حتى يُسقط الشام بكامله، وطبيعياً أن بعد الشام تكون مصر هي الخطوة التالية. ووصل الخبر إلى حلب من البيرة بذلك، وكان نائب السلطان صلاح الدين يوسف بحلب، ابنه الملك المعظم طوران شاه، فجفل الناس بين يدي التتار إلى جهة دمشق وعظم الخطب، واجتمع الناس من كل فج عند الملك الناصر بدمشق [٩٦].

أما مصر، فإن قطز وإن كان يُدير الأمور فعلياً بها، إلا أن الذي يَجلس على كرسي السلطان هو الطفل: " نور الدين علي " وهذا بالطبع كان يُضعف من هيبة الحُكم في مصر، ويزعزع من ثقة الناس بملكهم، ويقوي من عزيمة الأعداء، إذ يرون الحاكم الذي من المفترض أن يقف في وجههم طفلاً.

عزل السلطان الطفل نور الدين علي

في يوم السبت السابع عشر، في الرابع والعشرين ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ، وفي ضوء الخطر التتاري الرهيب، والمشاكل الداخلية الطاحنة، واضطرابات وثورات المماليك البحرية، وأطماع الأمراء الأيوبيين الشاميين، بعد أن عظمت الأراجيف بتحرك التتار نحو البلاد الشامية وقطعهم الفرات وهجمهم بالغارات على البلاد الحلبية، وكان وصل إليه بسبب ذلك الصاحب كمال الدين عمر بن العديم رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام يطلب منه النجدة

على قتال التتار في ضوء كل ذلك. لم يجد قطز أي معنى لأن يُبقي السلطان الطفل نور الدين علي على كرسي أهم دولة في المنطقة. وهي مصر. والتي لم يعد هناك أمل في صد التتار إلا فيها. ولم يكن بوسع السلطان الصبي نور الدين علي أن يَفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم. فقد كان يقضي وقته في ركوب الحمير والتنزه في القلعة. ويلعب بالحمام مع الخدم [٩٧].

عندما وصل الصاحب كمال الدين عمر بن العديم رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام. يَطلب من قطز النجدة على قتال التتار. أنزله قطز بقلعة الكبش. وجَمع القُضاة والفُقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في أمر التتار وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم. فحضروا في دار السلطنة بقلعة الجبل. وحُضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام. والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي الديار المصرية وغيرهما من العُلماء.

وجَلس الملك المنصور علي في دست السلطنة. وأفاض المجتمعون في الحديث. فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام. وخُلاصة ما قال: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام. وجَبَ على العالم قتالهم. وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم. بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء. وتبيعوا مالكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة. ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه. وليتساووا هم والعامة. وأمَّا أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا. وانفض المجلس على ذلك. ولم يتكلم السُّلطان بكلمة في المجلس. لعدم معرفته بالأمور ولصغر سنه. فلهج الناس بخلع السلطان المنصور. وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر المهم [٩٨].

عند ذلك اتخذ قطز القرار اللازم والجريء. قبل وصول هولاكو إلى حلب بأيام. قام بعزل السلطان الطفل نور الدين علي. واعتلى عرش مصر. وساعده على الوصول لتحقيق هذا الهدف. أن مفاسد الملك المنصور علي كانت قد زادت. حتى انفض الجميع من حوله. واستهتر في اللعب. وتحكمت أمه فاضطربت الأمور. وجاءت

الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز. وفي يوم السبت ٢٤ ذو القعدة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م. وبينما خَرج أمرا ء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد في منطقة العباسية بالشرقية وفي غزة. وعلى رأسهم سيف الدين بهادر. والأمير علم الدين سنجر الغتمي. وقَبضَ قُطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما. واعتقلهم في أحد أبراج القلعة. فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام [٩٩].

ولم يكن القرار غريباً. فقطز هو الحاكم الفعلي للبلاد. والجميع بمن فيهم السلطان الطفل نفسه يوقنون بذلك تمام اليقين. وما فعله قطز هو فقط أنه رفع هذه الصورة الهزلية للسلطان الطفل. ليظهر من ورائها الرجل القوي الذي على يديه ستتغير معالم الأرض. وتتغير جغرافية العالم. وتتغير كثيرٌ من صفحات التاريخ. ومنذ ذلك التاريخ. وقطز يعدّ العدّة للقاء التتار [١٠٠].

الإعداد لعين جالوت

مصر وما حولها، قبل المعركة

كان الوضع في مصر عندما بدأ التتار في اجتياح الشام والاقتراب من الديار المصرية متأزماً جداً. فالمسرح السياسي الداخلي كان يموج بالاضطرابات العاصفة، والأزمات الشديدة، وكانت الفتن الناجمة عن التصارع على كرسي الحكم، في السنوات العشر الأخيرة، عنيفة ومتكررة. نعم استقرت الأوضاع نسبياً عندما تولى الملك المعز عز الدين أيبك، وذلك لفترة سبع سنوات متصلة، ولكنها عادت من جديد للاشتعال بمقتله، ثم مقتل شجرة الدر، ثم ولاية الطفل نور الدين علي، ثم خلعه بواسطة قطز. وإن كان قطز الآن قد استقر على كرسي الحكم، لكن لا شك أن هناك الكثير من الطامعين في الكرسي، ولا شك أيضاً أن هناك الكثير من الحاقدين على قطز شخصياً، ومن المؤكد أن هؤلاء وهؤلاء سوف يتحركون، أو يحاولون التحرك، لإقصاء قطز عن العرش، أو قتله إذا لزم الأمر، كما اعتاد كثير من المماليك أن يفعلوا.

ولا ننسى أن الفتنة ما زالت دائرة بين المماليك البحرية الصالحية، الذين كانوا يؤيدون شجرة الدرّ، والمماليك المعزية الذين يؤيدون الآن سيف الدين قطز، وقد فرّ كثير من المماليك البحرية الصالحية، إلى مختلف الإمارات الإسلامية في الشام، ومن بقي منهم في مصر بقي على وجل وترقب، وهذا الانقسام أضعف القوة العسكرية المصرية، لأن المماليك البحرية كانوا أساس الجيش المصري في ذلك الوقت [1].

ومع أن الوضع السياسي والعسكري داخل البلاد، كان على هذه الصورة الخطيرة، فإن العلاقات السياسية الخارجية كانت مليئة بالمشكلات الكبيرة، فقد كانت العلاقات بين مصر وجيرانها بلا استثناء ممزقة تماماً، فمع كل إمارات الشام كانت العلاقات مقطوعة، بل كان العداء الشديد هو السائد بين الطرفين، كما أن دول الشمال الأفريقي والسودان كانو بعيدين عن مصر تماماً، وهذه العزلة المقيتة ستُسهل مهمة احتلال التتار لمصر كغيرها.

وكما كان الوضع السياسي منهاراً، كان الوضع الاقتصادي والاجتماعي في مصر، فهناك أزمة اقتصادية طاحنة تمر بالبلاد من جراء الحملات الصليبية المتكررة، ومن جرَّاء الحروب التي دارت بين مصر وجيرانها من الشام، ومن جرَّاء الفتن والصراعات على المستوى الداخلي، كما أن الناس انشغلوا بأنفسهم وبالفتن الداخلية والخارجية، فضعف الاقتصاد إلى أبعد درجاته، وباتت البلاد على حافة هاوية شبه مؤكدة.

إذاً فالأمة المصرية في أزمة، وتواجه أخطاراً جسيمة، تُهدد بذهاب حُريتها، وفناء الكثير من شعبها، فالغرب الصليبي الحاقد مُني بهزائم قاسية في مصر منذ عشر سنوات تقريباً، في المنصورة وفارسكور، ويُريد الثأر والانتقام ورد الاعتبار، وقد يجِدُ أن الاضطرابات الأخيرة في مصر هي الفرصة السانحة لرد الاعتبار، ولتحقيق أحلام الغزو، وها هي الإمارات الصليبية المتمركزة في فلسطين منذ عشرات السنين، وهناك الشر المغولي القادم من الشرق.

قطز وخطوات التغيير

لقد آل الأمر في مصر إلى السلطان قطز، في يوم السبت السابع عشر، في الرابع والعشرين ذي القعدة سنة ٦٥٧هـ، فوجدها تركة مُثقلة بالهموم والمشاكل، وكان لابد من التصرف مع هذا الوضع شديد التأزم، ولكن ما هي الخطوات التي يمكن اتخاذها من أجل التغيير؟ وما هو نوع وشكل الاستعداد الذي يتوجب عليه القيام به

لمواجهة الهجمة التتارية الشرسة؟ إنه توحيد القوى والجهود. من خلال عدة خطوات: [٢].-

الخطوة الأولى

حرصاًمن قطز على استقرار الوضع الداخلي في مصر. وقطع أطماع الطامعين في كرسي الحكم. جمع الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر وتناقشوا في أمر القيادة التي تتصدى للمغول. وأجمع الحاضرون على أن الملك المنصور علي بن المعز أيبك. الذي كان صغير السن ضعيف الشخصية. ولم يكن لديه من الطاقة والقدرة ما يستطيع به مواجهة الأخطار والتحديات. التي باتت تهدد دولة المماليك في مصر. لذا قرروا عزل السلطان الصغير [٣].

وقال للحاضرين: إني ما قصدت من الجلوس على كرسي الحكم إلا لنجتمع على قتال التتار. ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو. فالامر لكم. اقيموا في السلطة من شئتم.

فاستطاع قطز أن يَجمع الناس على فكرة الجهاد والتصدي للغزاة وفوق ذلك أعلن بوضوح أنه سيَجعل الأمر في الناس. يختارون من يشاءون دون التقيد بعائلةٍ معينة أو مماليك بذاتهم [٤].

وسيرة الرجل تدل على أنه صادق فيما قال. وأن الانتصار لهذا الدين ورغبته في قتال التتار أعلى بكثيرٍ من رغبته في الملك. وقد جَعل اللّه نصر الأمة على يديه. وليس من سنة اللّه عز وجل أن يَكتب نصر الأمة على يد المنافقين. والفاسدين. ومع أن قطز قد استخدم الأخلاق الرفيعة. والأهداف النبيلة في تجميع القادة والعلماء حوله. إلا أنه لم يتخل عن حزمه في الإدارة وعن أخذه بأسباب النصر. فاختيار الفريق المساعد له وأبعاد من يراه غير مناسب. فعزل الوزير: ابن بنت الأعز. المعروف بولائه الشديد لشجرة الدر. وولىّ بدلاً منه وزيراً آخر يثق في ولائه وقدراته وهو: زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع. وحِفظ الأمانة ووسد الأمور إلى أهلها. وأقر قائد الجيش في

مكانه وهو: فارس الدين أقطاي الصغير الصالح. وفارس الدين أقطاي الصغير هذا. غير فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية. والذي قُتل في سنة ٦٥٢هـ قبل هذه الأحداث بست سنوات. إلا أنه وجد فيه كفاءة عسكرية وقُدرة قيادية وأمانة وصدق. وهي مؤهلات ضرورية لأي إمارة [٥].

لقد تميز قطز بذكاء سياسي تمكن به من أن يستميل المماليك البحرية الذين فروا في أنحاء الشام وتركيا. وبث الطمأنينة في نفوسهم. كما حرص على استقرار الوضع الداخلي في مصر. وقطع أطماع الطامعين في كرسي الحكم الذي يجلس عليه. لأن الطامع في الكرسي لن تهدأ له نفس ولن يخلص ضميره. وفي نفس الوقت يريد قطز أن لا يخسر هؤلاء. بل يُريد أن يجعلهم في صفه. وسنداً له. وهذا سيؤدي بالتأكيد إلى استقرار الأوضاع في مصر. كما أنه سيمكن المسلمين من الاستفادة من الخبرات العسكرية النادرة للمماليك البحرية [٦].

أيضاً كان حِرص قطز على أن لا يقطع أطماع الطامعين في كرسي الحكم بالتهديد والوعيد. أو بالخداع والغش والمؤامرات والتحايل. ولكنه ارتفع بأخلاقه. فَجَمعَ الأمراء وكبار القادة وكبار العلماء وأصحاب الرأي في مصر. وكل هؤلاء من المُحرِّكين الفعليين لطوائف الشعب المختلفة.

لقد أبرز لهم خطورة العدو القادم. وحرص على إظهار الغاية النبيلة التي من أجلها جَلسَ على كرسي الحكم. وأنه من تصدى لهذا الأمر رغبة في السلطة والجاه. بل لعزمه على مجاهدة أعداء الدين [٧].

وكما قام قطز ببذل المودة. وإظهار حُسن النية. قام أيضاً بالتزم الحزم في الإدارة. والأخذ بأسباب السيطرة على الأمور. لقد علم قطز أن الناس إن لم يُشغلوا بالجهاد شُغِلوا بأنفسهم. فقَبضَ على بعض رؤوس الفتنة الذين حاولوا أن يَخرجوا على سلطته وحكمه. وبذلك هدأت الأمور نسبياً في مصر. وبمجرد أن اعتلى عرش مصر أمر وزيره زين الدين. وكذلك قائد الجيش فارس الدين أقطاي الصغير أن يُجهزا الجيش. ويُعدا العدة وينظما الصفوف. فانشغل الناس بالإعداد لمواجهة العدو.

فساهمت هذه الخطوة في تقوية الوضع الداخلي، وإنشغل الناس بالجهاد، وقام السلطان بإقامة الشرع والدفاع عن البلاد، والقيام بشئون الرعية وحماية مصالح الناس، فاستقرت الأحوال المحلية، وتوحد الصف الداخلي، وهذه خطوة في تحقيق النصر [٨].

لقد استطاع السلطان المظفر قطز أن يحقق الخطوة الأولى في سياسته للسيطرة على الوضع الداخلي للبلاد، وشغَل الناس بالقضايا العامة للأمة، وإبراز الهدف الحقيقي من السَّلطانة، وهو إقامة الشرع والدفاع عن البلاد، والقيام بشئون الرَّعية، وحماية مصالح العباد، وليس مجرد التملك وجمع المال، وضمان توريث الكرسي للأبناء، بل وأبناء الأبناء، وعندما أحس الناس بذلك استقرت الأحوال الداخلية في مصر، وتوحد الصف الداخلي، وهذه خطوة عظيمة جداً في بناء الأمم [٩].

الخطوة الثانية

كما قام قطز بتنفيذ الخطوة الأول من خطته، في سبيل الإعداده لمحاربة التتار بتفوق وحكمة، قام بالخطوة الثانية، وكانت خطوة جيدة ومحكمة، فلقد أصدر قراراً بالعفو العام عن كل المماليك البحرية، بهدف إعلاء المُصالحة الحقيقية للبلاد، ويُبرهن على الصدق في إصلاح الأوضاع، ولَمّ الشمل، ودرء المفاسد، والاستفادة مما لديهم من خبرات، وضمان عدم استمرار ضغائنهم عليه [١٠].

لقد جاءت تصرفات قطز تصرفات رجلٍ متجرد إلى الله، محبًا لوطنه وأُمته، يَفعل ما فيه المصلحة ولو كان خطرًا على كرسيه وسلطته، فمنذ ست سنوات، وفي سنة ٦٥٢هـ كانت بدايات الفتنة بين المماليك البحرية وبين المماليك المعزية، عندما قُتل فارس الدين أقطاي زعيم المماليك البحرية، ثم تفاقمت الفتنة حتى وصلت ذروتها بمقتل الملك المعز عزّ الدين أيبك ثم شجرة الدرّ، حتى أن معظم المماليك البحرية، وعلى رأسهم القائد ركن الدين بيبرس، فروا من مصر إلى مختلف

إمارات الشام، ومنهم من شجّع أمراء الشام على غزو مصر، ووصل الأمر إلى حدٍ خطير، فلما اعتلى قطز عرش مصر أصدر قراره بالعفو عن المماليك البحرية، وبدعوتهم للعودة إلى بلدهم مصر.

لقد دلل هذا القرار بكل وضوح على سمو أخلاق قطز، وتجاوزه عن كل الضغائن السابقة، مع أنه يمتلك القوة في يديه، ولكنه أخذ بمبدأ: العفو عند المقدرة، فابرز النظرة السياسية العميقة عنده، فقوات المصريين من المماليك المُعزية وغيرهم قد لا تكفي لحرب التتار، والمماليك البحرية قوة عظيمة جداً وقوية جداً بلا شك، ولها خبرات واسعة في الحروب، وقد اشترك الكثير منهم في حروب الصليبيين السابقة، ومن أشهرها موقعة المنصورة العظيمة، والتي كانت منذ عشر سنوات: سنة ٦٤٨هـ إذن فإضافة قوة المماليك البحرية إلى قوة المماليك المعزية، ستكون جيشاً قوياً أقدر على مهاجمة التتار، لأن التنازع والتصارع والفرقة طريق الفشل والهزيمة [١١].

وإستطاع قطز أن يُقنع خصومه من أمراء المماليك البحرية الذين كانوا قد هربوا إلى بلاد الشام، وعلى رأسهم بيبرس البندقداري بالعودة إلى الأراضي المصرية، والانضواء تحت لوائه، متناسين ما بينهم من الخلافات، بعد أن ثبت لهم عجز أمراء الشام من البيت الأيوبي عن مقاومة المغول [١٢].

ولقد كان قطز يَعلم تماماً أن أوضاع المماليك البحرية في بلاد الشام غير مُستقرة، وما ذهبوا إلى هناك إلا مضطرين، وأملاكهم وحياتهم وقوتهم في مصر، وأن إعلانه العفو العام الذي قام به، قد منحهم فرصة يتمنونها، سيستقدم بها من عدداً لا بأس به، وبالفعل ومنذ أن أعلن هذا القرار والمماليك البحرية تتوافد على مصر من بلاد سلاجقة الروم، تركيا فيما بعد، ومن الكرك بالأردن، ومن دمشق، ومن غيرها، وهكذا توحد المماليك فصارو قوة واحدة من جديد، واستقبلهم قطز استقبالاً لائقاً، يبث الطمأنينة والثقة في نفوسهم، ولم يُشعرهم بتكبر عليهم

بعد تملكه واستتباب الأمر له، بل عاملهم كواحد منهم.

لم يكتف قطز بالنسبة لقائد المماليك البحرية ركن الدين بيبرس، بالعفو العام الذي أطلقه في حق كل المماليك البحرية، فبيبرس هو أخطرهم مطلقاً وأهمهم، بل وفارسهم المقدم، فكان لابد من معاملته معاملة خاصة.

وكان بيبرس قد فرَّ من مصر إلى الناصر يوسف صاحب دمشق، هذا الرجل الذي كان موالياً للتتار في فترات كثيرة، ومُدعياً الجهاد ضدهم في فترات أخرى، وقد أنكر عليه بيبرس خضوعه أمام التتار وعزمه على عدم القتال، ولكن الناصر يوسف لم يسمع له، وعندما قدم التتار في اتجاه دمشق، فرّ الناصر يوسف ومن معه إلى الجنوب، واضطر بيبرس وقد تركه الجُند أن يتجه هو الآخر إلى الجنوب ناحية فلسطين، أما الناصر يوسف، فقد واصل فراره إلى الكرك ثم إلى الصحراء، ووجد بيبرس نفسه وحيداً في غزة، ولم يدر ماذا يَفعل، وكان قائد المماليك البحرية بأكملهم، أي بمثابة وزير الحربية، وفي هذا الموقف الصعب يأتيه خطاب قطز يَعرض عليه القدوم إلى مصر معززاً مُكرماً محفوظ المكانة [١٣].

كان قطز يُدرك أهمية ركن الدين بيبرس، يُدرك كفاءته القتالية العالية جداً، كما يدرك ما لديه من قدرة كقائد فذ، يمتلك مهارة قيادية رفيعة المستوى، علاوة على الحمية الإسلامية، كما كان يعلم مدى الذكاء الحاد الذي يتميز به، وهذه كلها مقومات سيتم توظيفه لصالح معركة التتار، بدلاً من أن تُوظف في معارك داخلية ضد المماليك المعزية، أيضاً كان بيبرس على يقين بمدى ولاء المماليك البحرية لبيبرس، وأنه إن ظل شارداً عنه فلا يأمن أن تنقلب عليه المماليك البحرية في أي وقت، لذا كان من السياسة الحكيمة أن يستقطب بيبرس لصفه ويرفعه، حتى يتمكن من الاستفادة من قدارته وإمكانياته، وبذلك يضمن استقرار النفوس، وتجميع الطاقات المقاتلة لحرب التتار، بدلاً من الدخول في معارك داخلية تستنفذ طاقتهم لصالح العدو [١٤].

لذلك لما قدم بيبرس إلى مصر عظّم قطز من شأنه، وعرف له قدره وقيمته، وأنزله دار الوزارة، وأقطعه منطقة قليوب وما حولها من القُرى، وعامله كأمير مُقدمين، وجَعله على مقدمة جيوشه، وهكذا أفلت السلطان قطز من أخطاء كبيرة وقع فيها سلاطين كبار، فكانت سبباً في زوال أو تدمير دولهم، ولكن الحكمة ضالة المؤمن، والسياسة في الإسلام حلال ومطلوب، على أن لا تكون ظلماً، ولا كبراً، ولا مضيعة للضمير وخلفاً للعهد ونقضاً للمواثيق.

وفتح قطز أبواب مصر أمام فلول المماليك الإسلامية في الشرق الإسلامي التي تعرضت للغزو المغولي، فدخل جُموع الخوارزمية الفارة من وجه المغول لمصر، ورحب بهم سيف الدين قطز، وكذلك جُموع الشام، ومعه الملك المنصور صاحب حماه وغيرهم [١٥].

فلم يكن قطز بهذا الرجل المهزوز، الذي يخشى من ظهور قامات كبيرة بجواره كبيبرس، لقد كان على العكس مما يفعل كثير من الزعماء الضعفاء على مر التاريخ، بل والوزراء والمحافظين ورؤساء المدن، وأساتذة الجامعة، وكل الموظفين العموميين، كلهم يَخشى ضياع كراسيهم، فلا يَسمحون أبداً لأي كفاءة أن تُبدع إلى جوارهم، وذلك لكي لا يُصبح لهذه الكفاءات رصيد من الحب والاحترام عند الشعب فتقوى مكانتهم، ثم ينازعونهم الكرسي، وهذا نابع من إحساسهم بالضعف، وعدم الولاء لبلادهم وشعوبهم، وافتقادهم لرصيد حقيقي من الحب عند شعوبهم، أو عند جمهور الناس عموماً، إلا أن قطز لم يكن من هذه الزعامات الفارغة، بل كان زعيماً قوياً مخلصاً وطنياً، كان يَعرف ذلك من نفسه ويَعرفه الشعب، ومن ثم أمن المنافسة من أي أحد.

وهكذا انضمت قوة المماليك البحرية، وعلى رأسها القائد والأمير: ركن الدين بيبرس، إلى قوة الجيش المصري المسلم، ولا شك أن هذا رَفع من معنويات المصريين جداً.

وهكذا كانت خطوة العفو عن المماليك البحرية. واستقدام الفارّين منهم. والاستفادة من طاقاتهم وإمكانياتهم. وتقوية الجيش بهم. خُطوة موفقة في حياة قطز. كما كانت الخطوة الأولى له. وهي الاهتمام بالاستقرار الداخلي للبلاد[١٦].

الخطوة الثالثة: الوحدة مع الشام

بعد أن تحقق للسلطان المظفر قطز الاستقرار الداخلي في مصر. كخطوة أولى من خطوات الاستعداد للحرب. نفذ الخطوة الثانية. وهي إصداره قرار العفو العام عن كل المماليك البحرية. ثم كلنت الخطوة الثالثة. وهي تحقيق الاستقرار الخارجي. مع جيران مصر من المسلمين. فقد كانت العلاقات متوترة مع إمارات الشام الأيوبية. وقد وصل بهم التفكير أكثر من مرة أن يغزو مصر. ونقضوا الحلف الذي كان بين مصر والشام أيام الصالح أيوب. واستقطبوا المماليك البحرية عندهم. عندما وقع الخلاف بينهم وبين السلطان قطز وفروا من مصر. وهم يتربصون بمصر الدوائر في كل يوم. بل إن الناصر يوسف الأيوبي. أمير دمشق وحلب كان قد طلب من التتار بعد سقوط بغداد أن يعاونوه في غزو مصر. لهذا الحد وصل به الحقد والتهور.

ومع كل هذه الخلفيات المعقدة للعلاقة بين مصر والإمارات الأيوبية. إلا أن قطز سعى لإذابة هذه الخلافات التي بينه وبين أمراء الشام. وتحقيق الوحدة معهم. أو على الأقل يكونوا على الحياد في قتاله مع التتار. فيخلون بينهم. ولا يُقدمون على خيانته. وقد كان رأس الخلاف الناصر يوسف الأيوبي. صاحب إمارتي حلب ودمشق. فهو يحكم أعظم مدينتين في الشام. وكان قطز يَعلم تماماً كراهية الناصر يوسف له. ويَعلم أنه طلب مساعدة التتار في حرب قطز. ومع كل هذا أرسل إليه قطز رسالة تودد وتقارب. قبل قدوم التتار إلى حلب. يكسر بها حدة الحقد في قلبه. ويستميله لصف المسلمين [١٧].

كان قطز يَعلم أن الناصر ليس في تفكيره التنازل عن كرسي الحكم. فحاول تطمينه. وأنه باق على كرسي الحكم. بل لقد عرض عليه أن يكون. أي الناصر

يوسف الأيوبي هو ملك مصر والشام، ويكون قطز تابعاً له، مع أن موقف قطز العسكري هو الأفضل من موقف الناصر يوسف، بعد الإجراءات التي قام به، علاوة على أنه ليس من المنطق أبداً، أن تقارن مصر بمدينتي حلب ودمشق مهما كان فيهما من قوة، فهما مدينيتن من مصر أو أقل.

ومع كل هذا قال له قطز في رسالته، أنه لن ينازعه في الملك ولن يقاومه، وأنه فقط سيكون نائباً عنه في ديار مصر، وأن الناصر متى جاء إلى مصر أجلسه فوراً على كرسي الحكم فيها. هذه أمور ليست معتادة ولكن قطز كان أمامه طموح كبير أن يرد التتار ويكسر شوكتهم، ولا يعنيه إن كان هو أو غيره في الصدارة.

وعندما أحس قطز أن الناصر يوسف، قد لا يكون مطمئناً ويتشكك في أمر الوحدة الكاملة، أو في أمر قدومه إلى مصر، عَرضَ عليه أن يقوم بإمداده بالمساعدة وما يلزم لحرب التتار، فتتحقق المصلحة المشتركة في رد التتار. وكانت رسالة السلطان المظفر قطزله، كالتالي:

"وإن اخترتَني خَدَمْتُك، وإن اخترتَ قَدِمْتُ وَمَنْ معي من العَسْكر نجدةً لك على القادم عليك، فإن كنت لا تَأْمَن حُضوري سَيَّرْتُ لك العساكر صُحْبَةَ من تختاره".

فهو بهذا يُعطي الناصر يوسف صلاحيات اختيار قائد الجيش المصري الذي يذهب لنجدته في الشام. ولكن مع الآسف لم تأت كل تلك المحاولات للتوحد والتقارب أي نتائج إيجابية مع الناصر يوسف، وفضل الفُرقة والتشرزم [١٨].

ومرت الأيام، وسَقطت حلب، وهُدّدت دمشق، وفرّ الناصر فراراً مخزياً إلى فلسطين، وهناك خرج جيشه عن طوعه، وآثر الانضمام إلى الجيش المصر، بقيادة المظفر قطز، فمعه القضية واضحة والهدف الثابت، والجهاد في سبيل اللّه حقاً، لا في سبيل الأشخاص والكرسيّ، وعلى قدر نجاح قطز كان فشل الناصر يوسف، فقد فشل أمام التتار، وفشل أمام قطز، وفشل أمام جيشه، وفشل أمام شعبه، وها هو الجيش المصري بقيادة قطز، يستعد لمواجهة التتار، بينما فرّ الناصر يوسف وحيداً

إلى حصن الكرك بالأردن، ثم لم يطمئن هناك فترك الحصن، واتجه إلى الصحراء عند بعض الأعراب.

الخطوة الرابعة

أراد الملك سيف الدين قطز قبل الشروع في مواجهة المغول، أن يختبر الصليبيين على ساحل بلاد الشام، لمعرفة موقفهم من ذلك الصراع الذي أصبح مُحاذياً لهم، لتخوفه من انضمام هؤلاء الصليبيين إلى المغول عند نشوب الحرب، وبناء عليه توجهت سفارة مصرية إلى عكا تَطلب من الصليبين السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم، وشِراء ما تحتاجه من المؤن، والواقع أن الصليبيين لم يُخفوا مرارتهم وكراهيتهم وحقدهم للمغول، بعد أن قام المغول بمهاجمة مدينة صيدا ونَهبها، كما أنه لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من المذابح الجماعية، على حين أن الصليبيين اتصلوا بالحضارة الإسلامية وألفوها، ونتيجة لذلك أبدوا أول الأمر استعدادهم لبذل المساعدة العسكرية للسلطان قطز، إلا أن السلطان سيف الدين شكرهم حينما عرضوا عليه أن يُسيروا معه نجدة واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه [١٩].

واستطاع السلطان سيف الدين قطز أن يتحصل على موافقة الصليبيين، بالسماح لقواته باجتياز الأراضي الساحلية التي تحت أيديهم، وجَعلته في مأمن من ذلك الجانب، وتجنب خطر اشتباكه في أكثر من جهة في تلك اللحظات الحرجة [٢٠].

ولم يكتف قطز بمحاولته مع الناصر، بل راسل بقية أمراء الشام، فاستجاب له الأمير المنصور صاحب حماة، وجاء من حماة ومعه بعض جيشه للالتحاق بجيش قطز في مصر، أما المغيث عمر صاحب الكرك بالأردن، وهو ليس من أهل الجهاد، فقد آثر أن يقف على الحياد، فقد كان من الذين هم على رأي الناصر يوسف، ولما فر الناصر، عاد المغيث عمر مضطراً إلى حصن الكرك، وهوكاره للمماليك، وكان قد حاول مرتين قبل ذلك أن يحتل مصر، وصده قطز في المرتين، لذا آثر المغيث عمر أن

يَظل مراقباً للأحداث، وينتظر من سينتصر، ليلتحق به، سواء كانوا من المسلمين أو من التتار، ومع كل هذا تناسى السلطان قطز كل هذه المحاولات لاحتلال مصر من المغيث عمر، ولم يَجعلها حاجزاً بينهما، أو سبباً في الفرقة بين المسلمين.

وأما الأشرف الأيوبي صاحب حمص فقد رفض الاستجابة تماماً لقطز، وفضَّل التعاون المباشر مع التتار، وبالفعل أعطاه هولاكو إمارة الشام كلها ليحكمها باسم التتار، كذلك فعل حسن بن عبد العزيز صاحب بانياس، والملقب بالملك السعيد، فقد رفض التعاون مع قطز رفضاً قاطعاً، بل انضم بجيشه إلى قوات التتار يساعدهم في فتح بلاد المسلمين.

ومع هذا فقد خرج قطز من علاقاته الدبلوماسية الخارجية بإيجابيات مهمة، فقد تحالف مع أمير حماة: المنصور، وانضم إليه أيضاً جيش الناصر، وأوقف إلى حد كبير خطر المغيث عمر صاحب الكرك، وهذه النتائج تعتبر نتائج هامة جداً ومؤثرة للغاية، وحتى هذا الفعل الفاحش للأمير الأشرف الأيوبي، والملك السعيد بن عبد العزيز بالانضمامهما السافر إلى التتار، فقد كان مفيداً لقطز، حيث إنه كشفهما له، فبنى خطته على أساس واضح ورؤيا محددة [٢١].

عقبات في وجه هولاكو

العقبة الأولى

كان هولاكو بعد أن فرغ من أمر بغداد، يُريد أن يحتل سوريا بكل تأكيد، ولم يكن أمامه لتحقيق ذلك إلا أن يجتاز منطقة الجزيرة الواقعة تحت سيطرة الكامل محمد رحمه الله، وعلى ذلك فرغم خنوع وخضوع معظم أمراء المنطقة، إلا أن إخضاع إمارة ميافارقين بالقوة أصبح لازماً، وكانت هذه هي **العقبة الأولى** التي واجهت هولاكو، وكانت مشكلة حقيقية فعلاً، خاصةً أن مدينة ميافارقين مدينة حصينة، وتقع بين سلسلة جبال البحر الأسود، كما أن الشعوب المسلمة قد تتعاطف مع الأمير الكامل محمد الأيوبي.

العقبة الثانية

كانت عقبة ثانية تواجه هولاكو ولكنها بسيطة نسبياً. وهي أن أولئك الأمراء المسلمين الذي رغبوا في التحالف مع هولاكو كانوا يبتغون البقاء في أماكنهم. يحكمون بلادهم حُكماً ذاتياً. ولو تحت المظلة التتارية. بينما كان هولاكو يَرغب في السيطرة الكاملة على البلاد بطبيعة الحال. يُعين من يشاء. ويعزل من يشاء. فهولاكو لا يَريد أحداً من سادة العالم إلى جواره. فما بالكم بهؤلاء الأمراء المتضعفون؟

ولكن هولاكو كان يُحسن ترتيب الأولويات. وكان القضاء على حركة الكامل محمد الأيوبي في مقدمة أولوياته. ثم يستكمل طريقه بعد ذلك إلى الشام. وهناك إذا اعترض أحد هؤلاء الأمراء على ما يُريده هولاكو. فإن التعامل معه سيكون يسيراً [٢٢].

اجتياح التتار لبلاد الشام

حصار ميافارقين

في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، خَرج التتار من بغداد، بعد أربعين يوماً، قضوها في القتل والتدمير، وبدأ كل من: التتار والمسلمون والنصارى يُرتبون أوراقهم للمرحلة القادمة، على ضوء النتائج التي خرجوا بها من بغداد، أما هولاكو فقد انسحب من بغداد، إلى همذان بفارس، ثم توجه إلى قلعة شها، على شاطئ بحيرة أورمية، في الشمال الغربي لإيران الآن، وفي هذه القلعة تم وضع كل الكنوز التي نهبها من قصور العباسيين، ومن بيت مال المسلمين، ومن بيوت التجار وأصحاب رءوس الأموال، وقبل خروج هولاكو من بغداد ترك بها حامية تترية، وكانت خطوته التالية بعد العراق، هي بلاد الشام، فبدأ في دراسة الموقف في هذه المنطقة [١].

فرغ هولاكوا خان من مهمته، ثم توجّه بجيوشه بثقلها صوب الجزيرة، وهو على رأسها كقائد عام للعمليات في المنطقة، ولم يُضيع التتار الوقت، وذلك في عام ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وكلّف ابنه يشموط بقيادة فرقة أخرى من جيش التتار والسير باتجاه ميّافارقين، وكلّف معه القائدين إيلكا نويان، وسونتاي نويان، ووجّه فرقة أخرى بقيادة الصالح ابن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ إلى آمد [٢].

في عام ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م، كان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر شهاب الدين، صاحب ميّافارقين، قد عاد من زيارة منكوقاآن التتار الأعظم، بعد أن قدّم له فروض الطاعة، فعلم أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يُكاتب أهل آمد لتسليمه المدينة، فطلب نجدة الملك السعيد صاحب ماردين، وأرسل عسكره، فطردوا عسكر سلاجقة الروم واحتلوا آمد [٣].

آمد بمواجهة التتار

في عام ٦٥٧هـ وبينما كان التتار بقيادة يشموط ابن هولاكو، يُحاصرون ميّافارقين، وصل هولاكو إلى آمد واستدعى سيف الدين بن محلي، نائب الكامل فيها، فخَرج إليه، فطَلبَ منهم هولاكو تسليم المدينة، فلم يُمانع، وقام هولاكو بتسليمها إلى ابني كيخسرو سلطان سلاجقة الروم المتوفي، وهما: رُكن الدين وعز الدين، ولما اقتسما البلاد أصبحت آمد مع رُكن الدين قليبج أرسلان، وفيها نوّابه مع نوّاب التتار، ثم انتقلت بعد مقتله إلى ابنه غياث الدين [٤].

الملك الكامل يتحدى التتار

بعد عودة الملك الكامل من عند خان التتار إلى ميّافارقين، أعلن العصيان على التتار، وحبس نوّابهم بها، وخَرج بإتجاه دمشق لمقابلة الملك الناصر يوسف وقال له: إن هؤلاء التتار لا تُفيد معهم مُدارة، ولا تنجح فيهم خدمة، وليس لهم غرض إلا في ذهاب الأنفس، والاستيلاء على البلاد، ومولانا السلطان قد بذل لهم الاموال من سنة أثنتين وأربعين إلى اليوم (٦٥٦هـ)، فما أثر فيهم خلوص المودة؟ فلا يغتر مولانا بكلام بدر الدين صاحب الموصل، ولا بكلام رسولك الزين الحافظي، فإنهما جعلاك خبزاً ومعيشة، وأحذرك كل الحذر من رسولك، فإنه لا يَناصحك ولا يختارك عليهم، وغرضه إخراج ملكك من يدك، وأما أنا فقد علمت أنني مقتول سواء أكنت لهم أو عليهم، فاخترت بأن أكون باذلاً مهجتي في سبيل اللّه، وما الانتظار وقد نزلوا على بغداد، والمصلحة خروج السلطان الناصر بعساكره لإنجاد المسلمين وأنا بين يديه، فإن أدركناه عليها، فبها ونعمت، وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء وإن لم ندركه أخذنا بثأره [٥].

كان الكامل محمد الأيوبي، أمير منطقة ميافارقين، يَعرف أنه لا أمل في موالاة التتار، فوضع خطته على أساس المقاومة، التي إن لم تأتت بالنصر، فلا أقل من تكون الموتة غير مخزية.

ولقد أدرك الناصر أن نزول هولاكو على بغداد لحصارها، هو الهدف الأكبر للتتار، فبها تنهدم الخلافة العباسية، وبعدها يتوجهون إلى الجزيرة والشام.

وهو الأمر الذي كان الكامل على يقين منه، إن سقوط بغداد سيكون نهاية للدولة الإسلامية، بكل رموزها ومعانيها وممالكها وإماراتها. لكل ذلك كان مشروعه يبدأ من بغداد، فقد طَلب من الناصر يوسف التوجه بجيشه وسيكون هو معه إلى بغداد لنجدتها، فمعركة بغداد هي التي ستحسم الصراع مع بغداد.

كان الكامل يتكلم بثقة ويأمل بالنصر، فإن لم يمكن نجدة الخليفة وإنقاذه فالثأر له، أو على القل الموت الشريف، فقد رأى ما يفعله التتار في كل أمراء الدول التي يحتلونها، سواء من قاومهم، أو من سلم لهم، وظل الكامل يحذر الناصر من تضليل بدر الدين لؤلؤ المتعامل مع التتار، ومن خيانة رسول الناصر إلى التتار وزيره الزين الحافظي [٦].

لما علم الملك الناصر بتوجه الكامل، جَمع أرباب دولته واستشارهم، فكان رأي الأغلبية منهم استقبال الكامل، والاستماع إلى ما جاء من أجله، بينما عارض ذلك: الزين الحافظي، والصالح نور الدين بن المجاهد، والملك الاشرف بن المنصور صاحب حمص، وهؤلاء كانوا متفقين مع التتار، وقال الزين الحافظي للناصر: متى بلغ هولاكو خروجك إليه جَعلهُ سبباً إلى قصد بلادك، والمصلحة اعتذارك إليه، وردّه، فلم يمكن الناصر إلا موافقة الجم الغفير، فخرج إليه، وتلقّاه وأنزله بدار السعادة [٧].

عرض الكامل مشروعه بالمسير إلى بغداد، فأيّد جميع الحاضرين في المجلس هذا المشروع، ما عدا حزب التتار، فقد كانت لهم جرأة في المعارضة، أما الملك الناصر فكان ردّه متخاذلاً، بل لقد أخذ الأمر في ناحية أخرى، فقد عرض على الكامل أن يُرسل من طرفه رسولاً ليشفع له عند هولاكو، فأجابه الكامل قائلاً: جئتك في أمر ديني تُعوّضني عنه بأمر دنيوي؟ فقال: متى نزلوا عليك أرسلتُ لك عسكراً، فأجاب

الكامل: هذا لا ينفعني حينئذ، إذ لا وصول له إلا بعد هلاكنا [٨].

سقوط مدينة ميافارقين واستشهاد الكامل

بعد أن تمّ للمغول الاستيلاء على اربل، أمر هولاكو الأمراء يشموت وايلكا نويان وسونتاي بالتوجه إلى مدينة ميّفارقين، وبدأ هولاكو بالطرق السهلة وغير المكلفة، فحاول إرهاب الكامل محمد الأيوبي، وإقناعه بالتخلي عن فكرة الجهاد ومبين له مدى تهورها وعدم جدواها، وذلك أنه عندما بلغوا حدود ميّفارقين، أرسل إلى الملك الكامل الايوبي صاحبها يدعونه إلى الخضوع والتسليم غير المشروط، وإلى الدخول في زُمرة غيره من الأمراء المسلمين الذي أطاعوا، ويتوعدونه بالهلاك والدمار في حالة عصيانه لهم [٩].

ومع هذا الترهيب فقد قابل الملك الكامل ذلك التهديد بالرفض الشديد، وذلك لما كان يَعرفه عن المغول من الخيانة ونكث العهود، فرد عليهم قائلاً: إنني لن أنخدع بكلامهم المعسول، ولن أخشى جيش المغول وسأضرب بالسيف ما دمت حيا [١٠].

الكامل مع رسول هولاكو

كان هولاكو يحسن اختيار الرسول، فلم يُرسل رسولاً تترياً، وإنما أرسل: قسيس يعقوبي، وهو عربي مسيحي، وهذا يفيد من حيث أنه يستطيع التفاهم مع الكامل محمد بلغته، وينقل له أخبار هولاكو وقوته وبأسه، وهو من ناحية أخرى نصراني، وذلك حتى يلفت نظر الكامل محمد إلى أن النصارى يتعاونون مع التتار، وهذا له بُعد استراتيجي هام، حيث أن حدودها الشرقية تكون مع مملكة أرمينيا النصرانية، والمتحالفة في نفس الوقت مع التتار، وحدودها الشمالية الشرقية مع مملكة الكرج (جورجيا)، النصرانية أيضاً، والمرتبطة أيضاً بتحالف مع التتار.

ولكن الملك الكامل محمد الأيوبي، عندما وصله رسول التتار وأبلغه رسالة هولاكو، أمسك به وقتله، وقد قام الكامل بذلك، مع مخالفته للأعراف الحربية،

ليكون بمثابة الإعلان الرسمي للحرب على هولاكو، وكنوعٍ من شِفاء الصدور للمسلمين، انتقاماً من ذبح مليون مسلم في بغداد، ولأن التتار يحترمون تلك الأعراف ولو مرة في حياتهم، فكان قتل قسيس يعقوبي رسول التتار رسالة واضحة من الكامل محمد إلى هولاكو، وعلم هولاكو أنه لن يَدخل الشام إلا بعد القضاء على الكامل محمد [١١].

وهكذا أصبح الكامل محمد الأيوبي كالجزيرة الصغيرة المؤمنة، في وسط خضم هائلٍ من المنافقين والمشركين والعملاء، من الشرق أرمينيا النصرانية، ومن الشمال الشرقي الكرج النصرانية، ومن الجنوب الشرقي إمارة الموصل العميلة للتتار، ومن الغرب إمارات السلاجقة العميلة للتتار، ومن الجنوب الغربي إمارة حلب العميلة للتتار، وأصبح الموقف في غاية الخطورة [١٢].

ونتيجة لهذا الرد الحاسم من الملك الكامل، إتفق الأمراء المغول على مهاجمة ميافارقين، وإنتزاعها بالقوة من يد حكامها، وفي الوقت نفسه أخذ الملك الكامل يُعد نفسه وقواته لمواجهة ذلك الخطر، حيث عمد إلى تطييب خواطر سكان مدينته، ورَفع روحهم المعنوية، بإعطائهم وعداً ببذل كل ما يملك من الذهب والفضة والغلال الموجودة بالمخازن، في سبيل الدفاع عن مدينتهم، فاتحد معه سكان المدينة جميعاً وأعلنوا له أنهم رهن إشارته، وعلى إستعداد للجهاد [١٣].

واهتم هولاكو بالموضوع جداً، فهذه أول صحوة في المنطقة، ولم يُضَيع وقتاً، بل جهَّز بسرعة جيشاً كبيراً، ووضع على رأسه ابنه: أشموط بن هولاكو، وتوجه الجيش إلى ميافارقين مباشرة بعد أن فتح له أمير الموصل المتواطيء أرضه للمرور، فتوجه أشموط بن هولاكو بجيشه الجرار إلى أهم معاقل إمارة ميافارقين، وهو القلعة الواقعة في مدينة ميافارقين نفسها، وبه الكامل محمد نفسه، وكان الكامل محمد قد جمع جيشه كله في هذه القلعة، وذلك لأنه لو فرَّقه في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، فلن تكون له طاقة بجيوش التتار الهائلة، وفي في شهر رجب سنة

٦٥٦هـ جاء جيش التتار، وحاصر ميافارقين حصاراً شديداً، وجاءت جيوش مملكتي أرمينيا والكرج لتحاصر ميافارقين من الناحية الشرقية، وهو متوقع منهم، وكان هذا الحصار الشرس، بعد الانتهاء من تدمير بغداد بحوالي أربعة أشهر. وصمدت المدينة الباسلة، وظَهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة، يُشجع شعبه على الثبات والجهاد.

وكان من المنتظر في ظل هذا الحصار البشع لميافارقين، أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية المجاورة، لكنه لم يحدث، ولم تصله إليها أي أسلحة أو أطعمة أو أدوية، لقد خشي الأمراء المسلمون هذه القوة التي صارت الأولى في العالم، والتزم كل منهم الانزواء ينتظر دوره [١٤].

واستطاع مسلمو ميافارقين أن يصمدوا واستبسلوا في القتال، وظهرت فيها مقاومة ضارية، وقام الأمير الكامل محمد في شجاعة نادرة يشجع شعبه على الثبات والجهاد، وكان من المنتظر أن يأتيها المدد من الإمارات الإسلامية الملاصقة لها، ولكن لم يحدث، ولم تتسرب إليها أي أسلحة أو أطعمه أو أدوية، لقد تخاذلت الشعوب بتخاذل حكامها، فبدى عليهم الموت وهم أحياء [١٥].

أما المغول فقد فرضوا حصاراً شديداً على مدينة ميافارقين، اشتركت فيه فرق أرمينية ومسيحية شرقية، وقابله المسلمون داخل المدينة بصمود وصبر أعجز المغول مدة طويلة، وكان في جيش الملك الكامل فارسان بارعان أذهلا قادة المغول، وكان لبسالتهما وإحكامهما الرماية الأثر الكبير في إنزال أفدح الخسائر في الجيش المغولي، حتى اضطر هولاكو بعد أن عجزت قواته عن اقتحام المدينة إلى إرسال مدد جديد بقيادة الأمير أرقتو، وانضم هذا القائد الجديد بجموعه إلى الجهة التي فيها جيش الأمير المغولي إيلكيا نويان، ونظراً لطول الحصار الذي فرضه المغول على المدينة، ونفذت الأرزاق من داخل المدينة التي طال حصارها، وعم القحط وانتشر الوباء وتهدمت الأسوار من شدة ضرب المنجنيقات، حتى هلك أكثر سكان المدينة،

ووقعت فيهم المجاعة [١٦].

لقد تصرف أمير الموصل بدر الدين لؤلؤ بصورة مخزية تجاه الأمير: الكامل محمد الأيوبي، وكذلك أمراء السلاجقة (غرب تركيا). كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع. ولكن الانكسار والخزي الذي وصل إليه الأمير: الناصر يوسف الأيوبي. حاكم حلب ودمشق فهو ما يصعب فهمه أو قبوله. نظراً لما تربطه بالكامل محمد الأيوبي علاقات هامة جداً وخطيرة. ففوق علاقات الدين والعقيدة والجوار، وعلاقات البعد الإستراتيجي الهام لإمارة حلب، لإن ميافارقين تقع شمال شرق حلب. وبسقوطها يكون الدور على حلب. وفوق كل هذه هناك علاقات الدم والرحم، فكلا الأميرين من الأيوبيين، وجدهما صلاح الدين الأيوبي لا يزال العهد به قريب. (توفي في سنة٥٨٩ هجرية)، حيث لم يمر على وفاته سبعون سنة، ولكن ماذا تقول.

أيضاً لقد طلب الأمير الكامل محمد النجدة من الناصر يوسف الأيوبي، فرَفضَ رفضاً قاطعاً، وكأنه لا يَعلم أن التتار لا عهد لهم ولا أمان، ولم يكتف الناصر يوسف بمنع المساعدة عن الكامل محمد، ولم يكتف بالمشاركة في حصار ميافارقين. بل أرسل رسالة إلى هولاكو مع ابنه العزيز، يَطلب منه أن يُساعده في الهجوم على مصر، والاستيلاء عليها من المماليك، ولم ينس الناصر يوسف طبعاً أن يحمل ابنه العزيز بالهدايا الثمينة، والتحف النفيسة، إلى صديقه الجديد هولاكو [١٧].

وفي عام ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، سقط آخر معقل للمقاومة في الجزيرة، ودخل التّتار ميّافارقين، وسقطت مدينة ميافارقين تحت أقدام التتار بعد الحصار البشع الذي استمر عاماً ونصف عام، ثمانية عشر شهراً متصلة من النضال والكفاح والجهاد. وذلك دون أن تتحرك نخوة قلب أمير من الأمراء أو ملك من الملوك!، ثمانية عشر شهراً، و الناصر يوسف الأيوبي، حاكم حلب ودمشق، والأشرف الأيوبي أمير حمص، والمغيث عمر صاحب الكرك بالأردن، وغيرهم من الأسماء الضخمة يراقبون الموقف ولا يتحركون، سقطت مدينة ميافارقين الباسلة، واستبيحت حرماتها تماماً، فقد

جعلها أشموط بن هولاكو عِبرة لكل بلد يقاوم في هذه المنطقة. وعندما دخلها وجد جميع سُكنها موتى. ما عدا سبعين شخصاً نصف أحياء. فقتلهم جميعاً. وحرّق ديارها. ودمرها تدميراً. وقَبضوا على الكامل الأيوبي. وذهب به إلى أبيه هولاكو وهو في حصار مدينة حلب. واستجمع هولاكو كل شره في الانتقام من الأمير البطل الكامل محمد الأيوبي رحمه الله. فعنّفه هولاكو. وأمر بتقييده بتقطيعه. فأخذوا يقطعون لحمه قطعاً صغيرة. ويضعونها في فمه حتى مات. ثم قَطَعوا رأسه وحَملوه على رمح وطافوا به في البلاد حتى وصلت دمشق. فعلّقوها على باب الفراديس. حتى أنزلها الأهالي ودفنوها. وقَتل المغول كل من وجدوه في ميّافارقين وهدموها [١٨].

أذن لقد قُتل الكامل محمد الذي قاوم. كما قتل الخليفة المستعصم بالله الذي سلم ولم يقاوم. ولكن شتان بين من مات وهو يقاتل. ومن ومن مات ذليلاً منكسراً مطأطئ الرأس. يتشفع في أمة أو امرأة أو غلام. ونسي شعبه وبلاده ودينه.

وقد أصبحت مقاومة الكامل رمزاً لإرادة المقاومة ضد التّتار. ونبراساً لمن أراد الكرمة والعزة. وأصبح الكامل بموته قدوة ومثالاً للتضحية والشهادة. ولقد كانت جيوش الكامل الأيوبي تسيطر على شرق تركيا. بالإضافة إلى منطقة الجزيرة. وهي المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات من جهة الشمال. أي أنه يسيطر على الشمال الغربي من العراق وعلى الشمال الشرقي من سوريا [١٩].

قصة الملك الناصر مع هولاكو

سبق القول أنه لما طلب الأمير الكامل محمد النجدة من الناصر يوسف الأيوبي. صاحب حلب. رفض رفضاً قاطعاً. وكأنه لا يَعلم أن التتار لا عهد لهم ولا أمان. ولم يكتف الناصر يوسف بمنع المساعدة عن الكامل محمد. ولم يكتف بالمشاركة في حصار ميافارقين. بل أرسل في سنة ٦٥٦هـ. ابنه الملك العزيز إلى هولاكو. ومعه الهدايا الثمينة. والتحف النفيسة. إلى صديقه الجديد هولاك وبصحبته عدة من

الأمراء. فلما وصل الملك العزيز إلى هولاكو قدم إليه ما معه، وسَأله على لسان أبيه، أن يُساعده في الهجوم على مصر، والاستيلاء عليها من [٢٠].

ولكن هولاكو عظم عليه أن يُرسل إليه الناصر يوسف ابنه العزيز، ولم يأتي بنفسه، كما أتى الأمراء الآخرون بأنفسهم، كما غضب أيضاً من طلب الناصر يوسف أن يُكلَ إليه هولاكو أمر الاستيلاء على مصر لضمها لحكم الناصر يوسف. وكان هولاكو يريد للشام ومصر معاً، فكيف يَطلب الناصر حكم مصر وهو، أي هولاكو، يَطلبها لنفسه، من هنا غضب هولاكو، وأرسل رسالة شديدة اللهجة إلى الناصر يوسف، ومع هذا ظل العزيز بن الناصر يوسف في عسكر هولاكو ليهاجم معه المسلمين [٢١].

وهذه رسالة هولاكو إلى الناصر يوسف:

الذي يَعلم به الملك الناصر صاحب حلب ودمشق، أنَّا قد فتحنا بغداد بسيف اللّه تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسرنا سكانها، كما قال اللّه تعالى في كتابه العزيز: (قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعلون). واستحضرنا خليفتها، وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم، واستوجب منا العدم، وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نمى ذكره، وعظم قدره، ونحن نعوذ باللّه من التمام والكمال: [٢٢].

إذا تم أمر دنا نقصه	توقع زوالاً إذا قيل تم
إذا كنت في نعمة فارعها	فإن المعاصي تزيل النعم
وكم من فتى بات في نعمة	فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابي هذا، فسارع برجالك وأموالك وفُرسانك، قدر العشرين ألف فارس إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روي زمين (أي ملك الملوك على وجه الأرض)، تأمن شره، وتنل خيره، كما قال اللّه تعالى في كتابه العزيز: (وأن ليس

للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى)، ولا تعوق رُسلنا عندك كما عوَّقت رُسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى مصر، فإن كانوا في الجبال نسفناها، وإن كانوا في الأرض خسفناها.

أين النجاة ولا مناص لهارب   ولي البسيطان الندى والماء

ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت   في قبضتي الأمراء والوزراء

وانتهت الرسالة التتارية المرعبة، وسقط قلب الناصر يوسف في قدمه! [٢٣].

انزعج الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ودمشق من رسالة هولاكو، وسير حريمه إلى الكرك وخاف الناس بدمشق خوفاً كثيراً لعلمهم أن التتار قد قطعوا الفرات، وسار كثير منهم إلى جهة مصر، وكان الوقت شتاء فمات خلائق بالطريق، ونهب أكثرهم، وبعث الناصر، عندما بلغه توجه هولاكو نحو الشام بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر، يستنجد بعسكرها [٢٤].

الناصر يوسف يُعلن الجهاد

لماذا لا يُعلن الناصر يوسف الحرب، وقد وضحت نوايا هولاكو، فقد طلبها صراحة: التسليم الكامل، فماذا يبقى له بعد ذلك؟ ماذا يبقى له لو عزله هولاكو من على كرسي؟ لقد اضطر الناصر يوسف أن يتخذ قرار الجهاد مع أن الجميع يَعلمُ أنه ليس من أهل الجهاد، وليس عنده أي حمية للدين ولا للعقيدة ولا للمروءة، ورفع الناصر يوسف راية بلاده، وكتب عليها اللّه أكبر، وبدأ يُحمس شعبه على الجهاد.

هذا الناصر يوسف الذي راسل لويس التاسع ملك فرنسا قبل ذلك ليُساعده في حرب مصر، على أن يُعطيه بيت المقدس، يُعلن الجهاد، الناصر يوسف الذي أيَّد دخول التتار إلى بغداد، وهنأ هولاكو على نصره العظيم، يُعلن الجهاد، الناصر يوسف الذي تخلى عن الكامل محمد الأيوبي أمير ميافارقين، ولم يمده حتى بالطعام

يُعلن الجهاد. الناصر يوسف الذي كان يَطلب منذ أيام قلائل من هولاكو أن يُساعده على غزو مصر يُعلن اليوم الجهاد. الناصر يوسف بكل هذا التاريخ الفاضح يُعلن الجهاد على التتار. أي جهاد هذا؟ ولكن لا مانع. إذا كانت النية صادقة. وإذا كان الرجل قد رجع إلى رشده [٢٥].

فكم من حُكام حُسِبوا علينا أنهم من أهل الجهاد والنخوة. وأنهم أصحاب اليد الطولى في التخطيط لأكبر حرب تحرير في العصر الحديث. هي حرب ٦ اكتوبر١٩٧٣م. ثم هو يهنيء مغتصبي الأرضي العربية بعيد استيلائهم عليها. ثم ها هو يَقضي عُمره في قهر شعبه والتنكيل به. ثم تنكشف الخدعة الكبرى. لما يتبين للشعب وللقاصي والداني. بعد تلك الثورة الجيدة في ٢٥ يناير ٢٠١١م. يتبين كيف كان هذا الرجل مكب على فساد وتدمير وتجريف ثروات بلاده وشعبه. علاوة على هذا التنكيل والقهر والفقر والمرض الذي أعاشهم فيه فترة ٣٠ سنة بغيضة مثله

إذن لقد رفض الملك الناصر دعوة هولاكو. وأرسل إليه رداً مليئاً بالسباب وقلب سياسته تجاه المغول رأساً على عقب. وبالفعل أعلن الجهاد. وضَرب معسكراً لجيشه في شمال دمشق. عند قرية برزة. ولم يتقدم بجيشه إلى حلب لحمايتها. وكان هو الأولى. فهي من أهم المدن في مملكته من ناحية. ولاستقبال جيش هولاكو عند أولى محطات الشام من ناحية أخرى. أو كان عليه أن يَذهب بجيشه إلى ميافارقين ليضم قوته إلى قوة الأمير: الكامل محمد الأيوبي. أمير منطقة ميافارقين. فتزداد فرص النصر له. لكن هذا كله لم يكن في حساب الناصر يوسف. إنما ضرب معسكره في دمشق في عمق بلاد الشام حتى إذا جاءه هولاكو. ورأى أن الأمر سيأخذ مأخذ الجد. وجد لنفسه فرصة للهرب.

استنجاد الناصر بالمماليك

عندما بلغ الناصر يوسف الأيوبي. حاكم حلب ودمشق. عبور القوات المغولية نهر الفرات. سارع بإرسال رسول من قِبله. هو الصاحب كمال الدين بن العديم إلى

المماليك في مصر، يستنجد بهم ضد جيوش هولاكو التي بات هجومها وشيكاً على بلاد الشام. وأمام هذا التصرف الجريء للملك الناصر يوسف، أدرك هولاكو فشل سياسة التشدد التي إتبعها مع الملك الناصر، والتي أدت به إلى الارتماء في أحضان المماليك في مصر. وبَدأ هولاكو يُفكر في تلافي ذلك الخطأ حيث سارع بإرسال نجدة سريعة إلى الملك الناصر في دمشق. ولكن هذه النجدة لم تؤت ثمارها بالنسبة لهولاكو، بل زادت فكرة التصالح بين المماليك والأيوبيين. وذلك أن السلطان المملوكي المظفر قطز عندما علم بوصول تلك النجدة المغولية إلى الملك الناصر بدمشق، بعث إليه كتاباً أقسم له فيه بالايمان أنه لا ينازعه في الملك ولا يقاومه، وأنه نائب عنه بديار مصر، وختم كتابه هذا بقوله:

وإن إخترتني خدمتك، وإن إخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيَّرت إليك العساكر صحبة من تختار [٢٦].

وكما راسل الناصر يوسف أمير مصر، بدأ بعد أن استقر في الموقع الذي اختاره لنفس، يُراسل الأمراء من حوله لينضموا إليه لقتال التتار، فراسل المغيث فتح الدين عمر، أمير إمارة الكرك شرق البحر الميت- في الأردن حالياً. وكان على شاكلة الناصر يوسف، يحارب التتار تارة، ويَطلب عونهم تارة أخرى بحسب الظروف والأحوال [٢٧].

وفي هذه السنة ٦٥٦هـ. فر طائفة من الأكراد من وجه عسكر هولاكو، يقال لهم الشهرزورية، وقدموا دمشق وعدتهم نحو ثلاثة آلاف، ومعهم أولادهم ونساؤهم. فَسُر بهم الملك الناصر واستخدمهم ليتقوى بهم. فزاد عنتهم وكثر طلبهم حتى خافهم، وأخذ يداريهم وما يزيدهم ذلك إلا تمرداً عليه، إلى أن تركوه وساروا إلى الملك المغيث بالكرك، فسُرَّ بهم وتاقت نفسه إلى أخذ دمشق. فخاف الناصر وتخيل من الأمراء القيمرية اللذين في دمشق فاضطرب وتحير [٢٨].

وفي هذه السنة ٦٥٦هـ وقيل سنة ٦٥٧هـ نازل التتار ماردين فلم ينالوا منها شيئاً. فرحلوا عنها إلى ميافارقين وحاصروا أهلها. حتى أكلوا من عدم الأقوات جلود النعال التي تلبس في الرجلين.

وفيها خرج الملك المغيث من الكرك بعساكره يريد دمشق. فخرج الملك الناصر من دمشق إلى محاربته. ولقيه بأريحا وحاربه. فانهزم المغيث إلى الكرك. وسار الناصر إلى القدس فأقام بعد أياماً. ثم رحل إلى زيراء فخيم على بركتها. وأقام هناك مدة ستة أشهر. والرسل تتردد بينه وبين المغيث إلى أن وقع الاتفاق بينهما. على أن الناصر يتسلم الطائفة من المغيث البحرية جميعهم. وأن المغيث يُبعد عنه الشهرزورية. صارت الشهرزورية من بلاد الكرك إلى الأعمال الساحلية [٢٩].

وسيَّر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري. أمير المماليك البحرية الفارين من مصر. سيَّر إلى الملك الناصر يلتمس منه الأمان. فحلف له وحضر ركن الدين بيبرس إليه على بركة زيزاء. ومعه بدر الدين بيسري. وإيتمش المسعودي. وطيبرس الوزيري. وبلباي الرومي الدوادار. وأقوش الرومي ولاجين الدرفيل الدوادار. وكشتغدي المشرف. وأيدغمش الشيخي. وأيبك الشيخي. وبلبان المهراني. وخاص ترك الكبير. وسنجر المسعودي. وأياز الناصري. وسنجر الهمامي. وأيبك العلائي. وطمان الشقيري. ولاجين الشقيري. وسلطان الإلدكزي. وبلبان الإقسيسي. وعز الدين بيبرس. فأكرمه الملك الناصر. وأقطعه نصف نابلس وجينين وأعمالها. بمائة وعشرين فارساً. وبعث المغيث سائر البحرية إلى الملك الناصر. فرحل عن زيزاء إلى دمشق. وقبض على البحرية واعتقلهم [٣٠].

وفي هذه السنة ٦٥٦هـ طار خبر طلب هولاكو من الناصر يوسف بالتوجه إليه بعشرين ألفاً. فلما وصل الخبر إلى دمشق. رحل من كان بها من المماليك البحرية. وصاروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرضوه على أخذ مصر. فجمع الملك المغيث وسار.

فتجهز الأمير قطز، وخَرج من القلعة بالعساكر في، فلما وصل الصالحية، تسلل إلى الملك المغيث من كان كاتبه من الأمراء وصاروا إليه، فلقيهم قطز وقاتلهم. فانهزم الملك المغيث في شرذمة إلى الكرك. ومَضى البحرية نحو الطور، واتفقوا مع الشهرزورية من الشرق. واستولى المصريون على من بقي من عساكر المغيث وأثقاله، وأسروا جماعة، وعادوا إلى قلعة الجبل. وقد تغير قطز على عدة من الأمراء، لميلهم إلى الملك المغيث، فَقَبض على الأمير عز الدين أيبك الرومي الصالحي، والأمير سيف الدين بلبان الكافوري الصالحي الأشرفي، والأمير بدر الدين بكتوت الأشرفي، والأمير بدر الدين بلغان الأشرفي، وجماعة غيرهم، وضَربَ أعناقهم في السادس عشر من ربيع الأول، وأخذ أموالهم كلها [٣١].

محاولة أخذ مدينة ماردين

في آخر سنة ٦٥٧هـ، وبعد أن تمكن هولاكو من إنهاء الأمر في ميافارقين، أشار على أمرائه بالزحف على مدينة ماردين، التي كانت تتمتع الأخرى بحصانة كبيرة، ولها قلعة مرتفعة واستحكامات جيدة، لذلك عمد القادة المغول إلى اتباع نهجهم التقليدي فأرسالوا رسلهم إلى صاحبها الملك السعيد يتهددونه، إلا أن الملك السعيد نجم الدين ايلغازي الارتقي، رد قائلاً: كنت قد عزمت على الطاعة والحضور إلى الملك، ولكن حيث أنكم قد عاهدتم الآخرين، ثم قتلتموهم بعد أن اطمئنوا إلى عهدكم وامانكم، فإني الآن لا اثق بكم، وأن القلعة بحمد الله تعالى مشحونة بالذخائر والأسلحة ومليئة برجال الترك وشُجعان الكرد، فيأس منهم التتار، فرحلوا عنها إلى ميافارقين وحاصروا أهلها، حتى أكلوا من عدم الأقوات جلود النعال التي تلبس في الرجلين [٣٢].

ولقد استطاع هولاكو خلال تلك الفترة أن يستولي على آمد وحران والرها وسروج، وعدد كبير من مدن وحصون إقليم الجزيرة، ومن ثم قرر هولاكو إرجاء أمر ماردين ريثما يفرغ من أمر الشام، فعبر الفرات على رأس قواته قاصداً حلب.

عودة التتار لحصار مدينة ماردين

لم يعني انصراف التتار عن مدينة ماردين أنهم صرفوا النظر عنها، بل لقد عادوا فاستولى عليها في المحرم من عام ٦٥٨هـ /١٢٥٩م، وعاد الحصار من جديد واثناء الحصار تُوفي الملك السعيد بسبب وباء انتشر بين سكان القلعة، فهلك أكثرهم. فتولى الحكم ابنه الملك المظفر، وتمت مفاوضات بين الملك المظفر والمغول، وتم الصلح بينهما. وكان هولاكو قد أرسل بكوهداي، أحد كبار أمراء المغول إلى ماردين، وأعلن كوهداي إسلامه على يد الملك المظفر قطز، وزوَّجه الأخير أخته وأعقب ذلك مسير الملك المظفر بنفسه إلى هولاكو في رمضان من السنة ٦٥٨هـ يَحمل الهدايا إليه، فاجتمع به هولاكو وأكرمَه، ثم قال له: بلغني أن أولاد صاحب الموصل هربوا إلى مصر، وأنا أعلم أن أصحابهم كانوا سبب ذلك، فاترك أصحابك الذين رافقوك عندي، فإني لا آمن أن يحرفوك عني، ويرغِّبوك في النزوح عن بلادك إلى مصر، وإذا ما دخلت البلاد فاصطحبهم معي [٣٣].

فأجابه الملك المظفر إلى ذلك ثم قفل عائداً إلى بلاده، وفي الطريق أرسل هولاكو في طلبه يأمره بالعودة إليه ثانية، فعاد إليه يرجُف خوفاً، فلما اجتمع به قال له هولاكو: إن اصحابك أخبروني أن لك باطناً مع صاحب مصر، وقد رأيت أن يكون عندك من جهتي من يمنعك من التسلل إليهم، ثم عيّن لذلك الأمير أحمد بغا، وأعادهما إلى ماردين، بعد أن أضاف إلى الملك المظفر نصيبين والخابور، ومنطقة لا يستهان بها من ديار بكر، ضُمت إلى آمد وميافارقين، كما ألحق بإمارته بعض المدن التي سيطر عليها المغول في الجزيرة، كقرقيسيا حيث أبقى المغول قوة لحفظ المعابر.

وفي الوقت نفسه أمر هولاكو الملك المظفر بهدم أبراج قلعة ماردين، وما إن غادر الملك المظفر معسكر هولاكو حتى أقدم الأخير على ضرب رقاب أصحاب الملك السعيد، وكان عددهم سبعين رجلاً من كبار أمراء ماردين، ولم يكن لأي من هؤلاء ذنب يُذكر، ولكن قصد بقتلهم أن يقص جناح الملك المظفر، ويُضعف شوكته.

وصارت مدينة ماردين منذ أن استولى عليها هولاكو في المحرم من عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، ولاية مغولية، يُنفذ حكامها ما يَأمرهم به قادة المغول، ويلتزمون بالخطوط العامة لسياستهم الخارجية وتحرُّكاتهم العسكرية، ويقدمون لهم المال والإمدادات العسكرية، ويَضربون السكة باسمهم، ويَخطبون لهم. وقد حقق المغول بإدخالهم إمارة ماردين وغيرها تحت سيطرتهم هدفهم المنشود، وهو السيطرة على منطقة ديار بكر، واتخاذها مركزاً لتنظيم الهجمات على الجهات الغربية من العالم الإسلامي [٣٤].

أخبار هولاكو في هذه الفترة

عاد هولاكو من قلعة شها إلى مدينة همدان، حيث القيادة المركزية لإدارة شئون الحروب في منطقة الشرق الأوسط، وبدأ يُعيد ترتيب أوراقه نتيجة التطورات الجديدة، التي تتسارع في منطقة الشرق الأوسط، وقد تمثلت هذه التطورات السريعة، في: [٣٥].

١- تزايد الترابط التتار النصارني، بعد ظهور بعض النماذج الإسلامية المعارضة لوجود التتار، مما يستوجب استعانة التتار بالنصارى للمساعدة في إخماد الثورات، والاستفادة من خبرتهم، ولإدارة الأمور في الشام بعد إسقاطها، لذا أغدق هولاكو الهدايا والمكافئات على هيثوم ملك أرمينيا، وكذلك على ملك الكرج، وعلى بوهمندأمير أنطاكية.

٢- استمرار الحصار حول ميافارقين، بقيادة أشموط ابن هولاكو، فلم تستطع بسالة المقاومة وشجاعة الكامل محمد مقاومته، لشدته وإحكام، خاصة أن قوات الأرمن والكرج تشتركان فيه، ولم يحاول أي أمير مسلم المساعده على كسره.

٣- ظُهور الموقف العدائي من الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ودمشق، وضرب معسكره شمال دمشق، وبدأ في إعداد الجيش لمقابلة التتار، لكن هذا الإعداد لم يُقابَل بأي اهتمام من هولاكو، لمعرفته بإمكانيات الناصر ونفسيته.

٤- إعلان مدينة بغداد، وكل المنطقة الوسطى للعرق استسلامها الكامل للتتار، وأصبحت آمنة تماماً، كذلك ظهر ولاء أمير الموصل التام للتتار، وبالتالي أصبح الشمال الشرقي من العراق أيضاً آمناً تماماً بالنسبة لهولاكو.

٥- إذن لم يعد غير مدينتي حلب ودمشق، وهما أقوى المدن في الشام، وبسقوطهما يسقط الشام كله، ومدينة حلب تقع في شمال دمشق، على بعد ما يقرب من ثلاثمائة كيلومتر.

وحيث صار الموقف على هذه الصورة، فقد قرر هولاكو أن المناسب الآن هو التوجه مباشرة لإسقاط إحدى هاتين المدينتين: حلب أو دمشق [٣٦].

المغول يقصدون مدينة حلب

قرر هولاكوا أن يبدأ بمهاجمة حلب، وبدأ جيش التتاري في التحرك من قواعده في همدان في اتجاه الغرب، حيث اجتاز الجبال في غرب إيران، ثم دَخل العراق من حدوده الشمالية الشرقية، ثم اجتاز مدينة أربيل، ووصل إلى مدينة الموصل الموالية له، فعبر عندها نهر دجلة، وهو العائق المائي الأول في هذه المنطقة، ولحسن حظه كانت تلك المنطقة من آمن المناطق لعبور مثل هذا الجيش الجرار، ولم يكن هناك أفضل منها، ثم سار جيش التتار بحذاء نهر دجلة على شاطئه الغربي في أرض الجزيرة، ليصل إلى مدينة: نصيبين، في جنوب تركيا الآن، وهي تقع جنوب ميافارقين بحوالي ١٧٠ كيلو متر فقط، وبذلك اقترب هولاكو من جيش ابنه أشموط، إلا أنه لم يذهب إليه لاطمئنانه لقوته.

وقد أستطاع هولاكو أن يحتل مدينة نصيبين دون مقاومة تُذكر، ثم اتجه غرباً ليحتل مدن: حران، ثم مدينة: الرها، ثم مدينة: إلبيرة، وكلها جنوب تركيا، إذن فقد كان على هولاكو أن يخترق كل هذه المدن التركية لينزل على مدينة حلب من شمالها، وبذلك يطمئن لعدم وجود أي جيوب إسلامية في ظهره يمكن أن تنقض عليه، وعند مدينة إلبيرة، عبر هولاكو نهر الفرات الكبير من شرقه إلى غربه، وبذلك

عبر العائق المائي الثاني في المنطقة دون مشاكل تُذكر. ثم اتجه جنوباً غرب نهر الفرات فاخترق الحدود التركية السورية متوجهاً إلى مدينة حلب الحصينة، والقريبة من الحدود التركية، حيث لا تتجاوز المسافة بينهما الخمسين كيلو مترًا تقريباً.

استمرت هذه الاختراقات التتارية للأراضي الفارسية ثم العراقية ثم التركية ثم السورية لمدة عامٍ كاملٍ، وهو عام٦٥٧ هجرية [٣٧].

حصار مدينة حلب وسقوط

كانت مدينة حلب أول مدينة شامية واجهت العاصفة المغولية، فقد أصدر هولاكو أوامره لقواته بعبور نهر الفرات، ومهاجمة بلاد الشام. ووصل الخبر بذلك إلى حلب، وكان يحكمها الملك المعظم طوران شاه نائباً عن الملك الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ودمشق، فجحفل الناس خوفاً من المغول إلى دمشق، وعظم الخطب على من بداخلها، وقبل وصول القوات المغولية إلى حلب، أرسل هولاكو كعادته إنذاراً إلى صاحبها، إلا أن الملك المعظم طوران شاه الأيوبي رد علي بقوله: ليس لكم عندنا إلا السيف. ثم حصَّن مدينة حلب حتى صارت في غاية الحصانة والمنعة، بأسوارها المُحكمة البِناء، وقلعتها المنيعة، وبما نصبه عليها من آلات دفاعية [٣٨].

وفي آخر ذي الحجة سنة ٦٥٧هـ نوفمبر ١٢٥٩م، قَصد المغول مدينة حلب، فنزلوا على قرية سلمية، ووصلوا إلى قريتي حيلان والحاري وهما قري حلب، ثم سيَّروا فرقة من عسكرهم باتجاه حلب، فخرج عسكر المسلمين ومعهم جمعٌ غفير من العوام والسوقة، وأشرفوا على المغول وهم نازلون على تلك الأماكن، وقد ركبوا جميعهم لإنتظار عسكر حلب، فلما تحقق المسلمون كثرتهم كروا راجعين إلى المدينة، وأصدر الملك المعظم طوران شاه أوامره إلى قواته بالتحصن داخل حلب، وعدم الخروج منها أنهم لا يخرجون أصلا لكثرة التتار ولقوتهم وضعف المسلمين على لقائهم، فلم يوافقه جماعة من العسكر وأبوا إلا الخروج إلى ظاهر البلد لئلا يطمع العدو فيهم، فخرج العسكر إلى ظاهر حلب وخرج معهم العوام والسوقة واجتمعوا الجميع

جبل بانقوسا [٣٩].

وفي اليوم التالي تحركت القوات المغولية طالبةً حلب. ولما وصلت جموع المغول إلى أسفل الجبل نَزلت إليهم فرقة من جيش المسلمين لمقاتلتهم. فلما شاهد المغول ذلك تراجعوا أمام الجيش الإسلامي مكراً وخديعة لاجتذابهم بعيداً عن البلد. فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار، ثم كر الجيش المغولي. وخَرج من مكامنه فاندفع المسلمون أمامه إلى جهة البلد. والعدو في أثرهم. ولما حازوا جبل بانقوسا وعليه بقية الجيش الإسلامي إندفعوا جميعاً نحو المدينة والعدو مستمر في مطاردنهم، فقُتل من المسلمين جمع كثير من الجند والعوام. ونازل المغول حلب ذلك اليوم إلى آخره. ثم رحلوا عنها إلى أعزاز فتسلموها بالأمان [٤٠].

أهل حلب يضطرون إلى التسليم

في الثاني من صفر من ٦٥٨هـ/يناير ١٢٦٠م، وصل هولاكو إلى حلب. فعاود هجومه عليهاجيوشه الذين أحكموا حصارها بحفر خندق حولها عمقه قامة. وعرضه أربعة أذرع. وبنوا حائطاً بإرتفاع خمس أذرع. ثم نصبوا عليها عشرين منجنيقاً وشرعوا في رميها بالحجارة ونقب أسوارها ومهاجمتها من كل الجهات. ولكن أهل حلب رفضوا التسليم لهولاكو. وتزعم المقاومة فيها طوران شاه عم الناصر يوسف الأيوبي. وكان مجاهداً بحق وليس كابن أخيه. ولولا تهوره عندما آل إليه حكم مصر. لاستطاع أن يحكم سيطرته عليها. وبالطبع كان الناصر يوسف يُربض بجيشه بعيداً على مسافة ثلاثمائة كيلومتر إلى الجنوب في دمشق [٤١].

وفي التاسع صفر من ٦٥٨هـ/يناير ١٢٦٠م. اضطر أهل مدينة حلب للتسليم بعد أن فرغة كل قوى المقاومة لديهم. ولما ملكها التتار غدروا بأهلها وقَتلوا منهم خلقاً كثيراً. ونَهبوا الدور وسبوا النساء والأطفال. ثم إستباحوا المدينة خمسة أيام. عاثوا فيها فساداً حتى إمتلأت الطرقات بجثث القتلى. وقيل إنهم أسر من حلبٍ ما يزيد على مائة ألف من النساء والصبيان. ولم يَسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى

دار شهاب الدين بن عمرون، ودار نجم الدين أخي مردكين، ودار البازياد، ودار عَلَم الدين قيصر الموصلي، والخانقاه التي لزين الدين الصوفي وكنيسة اليهود بفرمانات كانت بأيديهم، وقيل أنه من سلم بهذه الأماكن من القتل يزيد عن خمسين ألف نفس، وبعد كل هذا القتل والتدمير، خرب التتار أسوار المدينة لئلا تستطيع المقاومة بعد ذلك [٤٢].

سقوط قلعة حلب

ولما دَخل التتار المدينة، لجأ الملك المعظم طوران شاه إلى القلعة، ومعه جمع كثير من حلب، واستمر الحصار على القلعة وشدد المغول مضايقتهم لها نحو شهر [٤٣].

ولكن مقاومة أصحاب القلعة لم تطل، فسرعان ما دب فيهم اليأس، حيث شدد المغول حصارهم للقلعة، وتوصلوا لمعرفة مواطن الضعف فيها، مما تثبيط همم المقاتلين داخلها، الأمر الذي ترتب عليه تسليم القلعة إلى المغول رغم حصانتها بكل سهولة، مما يُوجد الشك بأنه حدثت خيانة في القلعة وبين جنود طوران شاه، ودخل هولاكو بعد ذلك إلى القلعة وخرّبها، وهَدم أسوار المدينة وجوامعها ومساجدها وبساتينها وعفى آثارها، حتى غدت بلدة موحشة، بعد أن كانت تعد من أزهى مدن الشام، وخَرج إليهم الملك المعظم طوران شاه، فلم يتعرض له هولاكو بسوء، قيل لكبر سنه، وهذا مستبعد فما كان هولاكو من أصحاب القلوب أو الأخلاق، حتى يُنفذ أخلاق المحاربين مع طوران شاه، بل المرجح أن طوران شاه كان قد أُصيب بما لا يرجى معه شفاء، أو أن هولاكو كان له رأي آخر في طوران شاه، تعود منه مصلحة على التتار، المهم أن طوران شاه لم تطل حياته بعد هذا الموقف كثيراً [٤٤].

إذن فهذا العفو هو عمل سياسي ماكر، يُريد به ألا يثير حفيظة الأيوبيين المنتشرين في كل بلاد الشام، وخاصة أنه قَتل الكامل محمد الأيوبي منذ أيام، فإذا

تتبع قوادهم بالقتل فهذا قد يؤدي إلى إثارتهم. خاصة وأن كثير من الأيوبيين يخالفونه. ومنهم الأشرف الأيوبي أمير حمص. وهو لا يريد أن يقلب عليه الأوضاع في الشام. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فهو يُريد أن يفتح الباب للأمراء المسلمين أن يسلموا أنفسهم إليه دون مقاومة. فهولاكو مُسالِم ونبيل جداً. ويحافظ على القواد الذين يقاومونه. فما بالكم بمن دخل في حلفه. ومن ناحية ثالثة فإننا لا ننسى أن طوران شاه هو عم الناصر يوسف حاكم دمشق الخائن. والإمساك بطوران شاه دون قتله قد يكون وسيلة من وسائل المساومة المستقبلية مع الناصر يوسف. أو فتح الطريق أمامه للاعتذار. وبذلك قد يوفر هولاكو على نفسه حرباً من المحتمل أن يَفقد فيها عدداً من جنوده. هذه الاحتمالات هي بالطبع ما يناسب طبيعة هولاكو الدموية. وليس ما قال به البعض من أن هولاكو تأثر بأخلاق وفروسية طوران شاه فأصبح هو الآخر أخلاقياً وفارساً. فهذا ما لا يُتوقع من مثله أبداً. ويشهد بذلك تاريخه الطويل في الغدر والخيانة [٤٥].

ولما ملك التتار مدينة حلب. قصدوا مشهد الدكة. وكان الذي بناه سيف الدولة عليّ ابن حمدان. على قبر المحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ونَهبوا ما كان فيه من الأواني الفضّة والبسط وأخرجوا الضريح والجدار. ونقضوا أبوابه. فلمّا ملك السلطان الظاهر حلب أمر بإصلاح المشهد ورّمه وعمل بابه وجَعل فيه إمام وقيّم ومؤذن [٤٦].

وهكذا استقر الوضع لهولاكو في حلب. وخمدت كل مقاومة. وهُدمت كل الأسوار والقِلاع. ثم أراد هولاكو أن ينتقل إلى مكان آخر في الشام. فاستقدم الأشرف الأيوبي أمير حمص. وهو أحد الأمراء الذين تحالفوا مع التتار. وأظهر هولاكو للأشرف الأيوبي كرماً غير عادي. فقد أعطاه إمارة مدينة حلب إلى جوار مدينة حمص. وذلك ليضمن ولاءه التام له. ولكي يتيقن الأشرف أن من مصلحته الشخصية أن يبقى هولاكو محتلاً للبلاد. ولكنه بالطبع وضع عليه إشرافاً تترياً دقيقاً من بعض قادة الجند التتار. فأصبح الأمير الأشرف الأيوبي وكأنه الحاكم الإداري للمدينة. بينما كان

هناك الحاكم العسكري التتاري لحلب. والذي كان يُعتبر الحاكم الفعلي. الذي بيده مقاليد السلطة.

وقد أثار سقوط هذه المدينة التي كانت موطن حركة الجهاد ضد الصليبيين. الفزع والوجل في نفوس المسلمين ببلاد الشام. فوصل إلى هولاكو بحلب كثير من أمراء المسلمين. ليعلنوا ولائهم وخضوعهم. ومنهم الملك الأشرف موسى الأيوبي. صاحب حمص. الذي سبق أن إنتزع منه الناصر إمارته. فأعادها إليه هولاكو. على أن تكون إقطاعاً وراثياً له من قِبل هولاكو [٤٧].

هولاكو يستكمل الغزو

بعد سقوط حلب. اتجه هولاكو غربًا إلى حصن حارم المسلم. على بعد حوالي خمسين كيلو مترًا من حلب. وكانت به حامية مسلمة رفضت التسليم لهولاكو. ولما رَفض رجال حامية مدينة حارم الاستسلام إلا لقائد حامية حلب. إعتبر هولاكو ذلك إهانة له وانتقاصاً من مكانته. فاقتحم عليها الحصن بعد عدة أيام من المقاومة. وأمر بقتل أهل حارم عن آخرهم. وسبي نسائهم وأطفالهم ثم ألحق بهم رجال الحامية جميعاً. وذَبح كل من فيها.

ثم أكمل هولاكو طريقه غرباً بعد ذلك حتى وصل إلى إمارة أنطاكية. وهي إمارة حليفه النصراني الأمير بوهمند. فضرب هولاكو معسكره خارج المدينة. ثم دعا إلى عقد مؤتمر لبحث الأوضاع الراهنة في الشرق الأوسط الجديد حسب الرؤية التتارية. فبدأ حلفاؤه في هذه المنطقة يتوافدون عليه ليقدموا له فروض الولاء والطاعة. فجاء الملك الأرمني هيثوم. وجاء إليه أمير أنطاكية بوهمند. وجاء إليه كذلك أمراء السلاجقة المسلمون: كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع. وكانت إمارتهما على مقربة من أنطاكية [٤٨].

هولاكو يُكافيء أعوانه

لم يشأ هولاكو أن تمر فرصة إستيلائه على حلب دون أن يكافئ حليفه، هيثوم الأول ملك أرمينية الصغرى، وبوهيمند السادس الصليبي أمير أنطاكيا الذين ساعداه في ذلك العمل. فكافأ ملك أرمينيا هيثوم بمكافأةٍ كبيرةٍ من غنائم حلب، تقديراً لمساعدات الجيش الأرمني في إسقاط بغداد، ثم ميافارقين، ثم حلب. فأعاد إليه الأقاليم والقصور التي كان مسلمو حلب قد استولوا عليها منهم، كما رد إلى بوهيمند جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها من إمارته. وعبر هيثوم عن إبتهاجه بذلك بإحراق الجامع الكبير في حلب بنفسه إنتقاماً من المسلمين [٤٩].

كما أمر سُلطانَيْ السلاجقة: كيكاوس الثاني، وقلج أرسلان الرابع، أن يُعيدا بعض المدن والقلاع التي كان المسلمون قد فتحوها قبل ذلك إلى ملك أرمينيا، وذلك لتوسيع ملك الزعيم الأرمني، وتثبيت أقدامه في المنطقة كحليف استراتيجي أساسي.

كافأ بوهمند، أمير أنطاكية على تأييده له، وذلك بإعطائه مدينة اللاذقية المسلمة، ليضمها بذلك إلى أملاك إمارة أنطاكية، وكانت اللاذقية قد حررت من الصليبيين أيام صلاح الدين الأيوبي، ثم ظلت مسلمة إلى هذه اللحظة، ولكنها أهديت بكلمة واحدة إلى النصارى، والقرار الأخيران هما تطبيق لقاعدة الاستعمار المجحفة: وهي أن يُعطي ما لا يملك لمن لا يستحق، والتي تجلت في اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة، والتي أُعطي لليهود بموجبها وطن قومي في فلسطين.

وهذا القرار الغريب كان يَقضي بأن يعين بطريرك جديد للكنيسة في أنطاكية المحكومة أصلاً بالنصارى، وليس في حلب مثلاً أو بغداد، ولكن في أنطاكية ذاتها، ومن المعلوم أن هولاكو لم يكن نصرانياً، فالقرار يأتي من قبل من لا يفقه في النصرانية شيئاً، وفوق ذلك فالبطريرك الجديد ليس من أنطاكية، بل أنكى من ذلك فالبطريرك الجديد ليس من نفس المذهب النصراني الذي عليه بوهمند وهيثوم، وهذه سابقة

خطيرة في تاريخ النصارى، ولكن لم يكن لهم أن يعترضوا، أو يبدوا أي رأي [٥٠].

وبالطبع كان في هذه الخطوة إهانة كبيرة لأمير أنطاكية، ولكنه كان واقعياً، وأدرك حجمه الطبيعي، وموقفه المهين فلم يعترض، ولكن كبراء قومه ووزرائه اعترضوا عليه، لكن بوهمند أصر على الرضوخ لهولاكو، ووضح لهم قدرهم الحقيقي، فهم يحكمون إمارة لا تُرى على خريطة الدنيا، بينما التتار دولة تصل في ذلك الوقت من كوريا شرقاً إلى بولندا غرباً، وقد اكتسحت في طريقها كل أملاك المسلمين، علماً بأن كل الحروب الصليبية السابقة، والتي قامت بها أوروبا ضد المسلمين على مدار عشرات السنين، لم تُفلح إلا في احتلال بعض الإمارات الصغيرة المتفرقة في تركيا وسوريا وفلسطين ولبنان، ولم تكن الإمارة في الغالب سوى مدينة واحدة تحيط بها بعض القرى، إذن فالسيد الذي يخضعون إليه، وهو التتار، جدير بذلك.

وهكذا استقر الوضع لهولاكو في شمال سوريا، وجنوب تركيا، وبدأ يُفكر في التوجه جنوباً لاحتلال مدينة حماة أولاً، ثم المرور على بعد ذلك على مدينة حمص، وهي بلد الأمير الأشرف الأيوبي والموالي للتتار، وذلك ليصل في النهاية إلى الناصر يوسف الأيوبي وجيشه الرابض في شمال دمشق.

تسليم مدينة حماة

بينما حضر الملك المنصور الثاني صاحب حماة إلى برزة، ليتجهز مع الملك الناصر لمحاربة التتار، سمع أهل البلد في غيبته بأخذ التتار لمدينة حلب، وأن جيشهم يستعد للتوجه إلى حماة، فأرسلوا رسولاً من قِبلهم إلى هولاكو، يَسألونه العطف، وسلموه مفاتيح المدينة، وذلك برغبتهم وإرادتهم الذاتية، ودون طلب من هولاكو، وقبل منهم هولاكو المفاتيح، وأعطاهم الأمان، ولكنه كان في هذه المرة أماناً حقيقياً، وجَعل عندهم شحنة من قبله، أما قلعة حماه فيبدو أن ما حل بحلب وأهلها وقلعتها من الأهوال فضلاً عن هروب الملك المنصور صاحبها قد دفع

متوليها إلى المسارعة بالتسليم للمغول. وتحرك هولاكو بجيشه الجرار في اتجاه الجنوب، ومر على حماة دون أن يدخلها، وكذلك مر على حمص بلد صديقه الأشرف الأيوبي ولم يدخلها كذلك، واتجه مباشرة إلى دمشق، وبينها وبين حمص ١٢٠ كيلومترًا فقط [٥١].

وبعد أن تم للمغول السيطرة على حلب ودمشق وحماه، وغيرها من البُلدان المجاورة، أصبح إستيلاءهم على بقية مدن الشام مسألة وقت، كان على القائد المغولي أن يختاره متى شاء، وذلك بسبب ما حل ببلاد الشام من الأهوال والفزع والخوف، فضلاً عن تفرق كلمة الأمراء الأيوبيين، ففي الأسابيع القليلة التالية، أتم القائد المغولي كيتوبوقا الذي أوكل إليه هولاكو مهمة الإستيلاء على بلاد الشام، بعد عودته من حلب إلى مدينة مراغة، للمشاركة في إنتخاب الخان الجديد، أوكل إليه السيطرة على بلاد الشام حيث توجه إلى نابلس، وحينما حاول أهلها المقاومة جرى قتل عدد كبير منهم [٥٢].

لما وصل الخبر إلى دمشق بأخذ قلعة حلب، سنة ٦٥٨هـ، اضطربت بأهلها، وكان الملك الناصر قد صادر الناس، واستخدم لقتال التتار، فاجتمع معه ما يُناهز مائة ألف ما بين عرب وعجم، فتمزق حينئذ الناس، وزهدوا في أمتعتهم وباعوها بأبخس الأثمان، وخَرجوا على وجوههم، ورَحل الملك الناصر عن برزه، يوم الجمعة منتصف صفر، سنة ٦٥٨هـ، بمن بقي معه يريد غزة، وتَرك دمشق خالية، وبها عامتها قد أحاطت بالأسوار، وبلغت أجرة الجمل سبعمائة درهم فضة، وكان الوقت شتاء، فلم يثبت الناس عند خروج الناصر، ووقعت فيهم الجفلات حتى كأن القيامة قامت [٥٣].

وكانت مدة مملكة الناصر بحلب ودمشق ثلاثاً وعشرين سنة وسبعة أشهر، منها مدة تملكه لدمشق عشر سنين تنقص خمسين يوماً، ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو، وسار الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده، وجَفل أهل حمص وحماة، وصار هولاكو إلى دمشق،

بعد أخذ حلب بستة عشر يوماً. فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد بن عامر العقرباني المعروف بالزين الحافظي. وأغلق أبواب دمشق. وجَمع من بقي بها وقرر معهم تسليم المدينة إلى هولاكو. فتسلمها منه فخر الدين المردفائي وابن صاحب أرزن. والشريف علي. كان هؤلاء قد بعث بهم هولاكو إلى الملك الناصر وهو على برزة. فكتبوا بذلك إلى هولاكو. فسيَّر طائفة من التتار وأوصاهم بأهل دمشق. ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهماً فما فوقه.

فلما كان ليلة الاثنين تاسع عشر صفر. سنة ٦٥٨هـ. وصل رسل هولاكو صحبة القاضي محيى الدين بن الزكي. وكان قد توجه من دمشق إلى هولاكو بحلب. فخلع عليه وولاه قضاء الشام. وسُيِّره إلى دمشق ومعه الوالي. فسكن الناس. وجَمعوا من الغد بالجامع. فلبس ابن الزكي خِلعة هولاكو وجَمع الفقهاء وغيرهم. وقَرأ عليهم تقليد هولاكو. وفرماناته بأمان أهل دمشق. فكثر اضطراب الناس واشتد خوفهم [٥٤].

وفي سادس عشر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ. وصل نواب هولاكو. في جمعٍ من التتار صحبة كتبغا نوين. فَقُرئ فرمان بالأمان. وورد فرمان على القاضي كمال الدين عمر التفليسي. نائب الحكم عن قاضي القضاة صدر الدين أحمد بن سني الدولة. بأن يكون قاضي القضاة بمدائن الشام والموصل وماردين وميافارقين. وفيه تفويض نظر الأوقاف إليه من جامع وغيره. فقُرئ بالميدان الأخضر.

وغارت جموع التتار على بلاد الشام. حتى وصلت أطراف بلاد غزة وبيت جبريل والخليل وبركة زيزاء والصلت. وبعلبك وبانياس وغيرها. فقتلوا وسبوا وأخفوا ما قدروا عليه. وعادوا إلى دمشق فباعوا بها المواشي وغيرها.

واستطال النصارى بدمشق على المسلمين. مع أن المودة كانت في بلاد الإسلام سائدة. ولم يكن يوماً من المسلمين تعالي أو إزاء للنصارى. وأحضر النصارى فرماناً من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم. فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان.

ورشوه على ثياب المسلمين في الطُّرقات، وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب، وصاروا يمرون به في الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم، وقالوا جهراً: ظهر الدين الصحيح دين المسيح. وهذا ليس من المسيحية المعتلة، وما هو برد لحُسن المعاملة من قبل المسلمين للنصارى لقرون طويلة. فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو وهو كتبغا فأهانهم وضَرب بعضهم، وتفاقمة الأمور بين المسلمين والنصارى، وجمع الزين الحافظي من الناس أموالاً جزيلة، واشترى بها ثياباً وقدمها لكتبغا نائب هولاكو، وليبيدرا وسائر الأمراء والمقدمين من التتار، وواصل حمل الضيافات إليهم كل يوم [٥٥].

كل هذه الأخبار السيئة جاءت الناصر يوسف، فماذا يَفعل وقد أعلن حرباً ليست له بها طاقة، ليس لقوة التتار فقط، بل لضعفه هو في الأساس؟ لقد عقد الناصر يوسف مجلساً استشارياً هاماً يضم قادة جنده للتشاور واتخاذ القرار المناسب [٥٦].

بطل في مستنقع الأذلاء

كان المجلس الاستشاري الذي جَمعه الملك الناصر يوسف الأيوبي، للتشاور في أمر الحرب مع التتار يَضم معظم أمراء الجيش، وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظي، وكان يضم أيضاً الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وهو من أمراء المماليك البحرية، الذين فروا قبل ذلك من مصر أثناء الفتنة التي دارت بين المماليك هناك، واستقبله الناصر يوسف، وضمَّه إلى قواده لِما له من براعة قتالية، وكفاءة عسكرية عالية، وقدرات قيادية هائلة [٥٧].

بدأ الاجتماع، ولم يكن يَخفى على الحضور مظاهر الرعب والهلع التي يُعاني منها الناصر يوسف، والتي انتقلت منه بعد ذلك إلى معظم أمرائه. وبدا واضحاً أيضاً أن الناصر يوسف لا يميل مطلقاً إلى الحرب، ولا يَرغب في المواجهة، وقد وجد

الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، نفسه في مجموعة من المتخاذلين والخونة، فصرخ في وجه زين الدين الحافظي، ثم سبّه سبًّا عنيفاً، بل إنه لم يتمالك نفسه فقام وضربه، وقال له: أنت سبب هلاك المسلمين، وهو بالطبع يقصد أيضاً الأمير: الناصر يوسف الأيوبي، حاكم حلب ودمشق، لأن بيبرس بخبرته بهؤلاء الناس، كان يَعلم أن فرارهم وشيك، وقد يَفرون قبل أي مواجهة مع العدو، الأمير: الناصر يوسف الأيوبي، حاكم حلب ودمشق، وبقية أمراء جيش، بل وجنوده أيضاً، كلهم لا نية ولا عزيمة لهم على القتال [٥٨].

ولم يجد ركن الدين بيبرس حلاً مع هؤلاء، فتوجه إلى غزة بفلسطين، وهناك راسل سلطان مصر ليذهب عنده على أمل التوحد في لقاء التتار، وفي يوم السبت ثاني عشري شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ، وصل ركن الدين بيبرس، فاستقبله سلطان مصر بحفاوة، وانضم بيبرس إلى قيادة قطز، وأصبح من أكبر أعوانه الذين ساهموا للتخطيط لمعركة عين جالوت، وقيادة الجيوش الإسلامية، وتحقيق ذلك النصر المؤزر الذي بدد أحلام المغول بكاملها، كما سيأتي بيانه، وخلت دمشق من الأمراء والحراس [٥٩].

بداية سقوط دمشق

بعد سقوط حلب أرسل هولاكو رُسلاً من قِبله إلى دمشق، فدخلوها ليلة الإثنين السابع عشر من صفر سنة ٦٥٨هـ/ فبراير ١٢٦٠م، وهم يحملون فرماناً منه تأمين المدينة وأهلها مُقابل تسليمها، وقُرئ هذا المرسوم على الناس بدمشق بعد صلاة الظهر، وفي هذا الموقف الحرج أشار بعض كبار أهل دمشق، وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظي، بمداراة المغول والدخول في طاعة هولاكو، لتجنيب دمشق وأهلها ما حل بحلب من الهلاك والدمار والخراب، ولكن ذلك الرأي لم يَجد التأييد الكامل من أهل دمشق، حيث رفضه البعض [٦٠].

تسليم مدينة دمشق

دمشق مدينة كبيرة حصينة، وكان المتوقع لها الثبات فترة طويلة قبل أن تسقط، ولكن الأمراء من أمثال الناصر يوسف، كانت الخطة البديلة دائماً لديهم هي الفرار، كلما اقترب منهم العدو، وهو ما فعلوه تماماً، ووقع أهل دمشق في حيرة كبيرة، ماذا يَفعلون، جيوش التتار ستأتي إليهم في غضون أيام قليلة جداً، والتتار لا يبقون على أخضر ولا يابس، وشعب دمشق لم يتدرب قبل ذلك على جهاد، وليست له دراية بفنون القتال، والجند المحترفون والأمراء القواد هربوا وتركوا مواقعهم [٦١].

وقد خرج الملك الناصر من دمشق، ومعه جمع من أتباعه يُريد غزة وترك دمشق في حالةٍ يرثى لها، فاتفق أعيان دمشق وكبراؤها على أن يَفعلوا مثلما فعل أهل حماة، وقصد جمع من أكابر دمشق وأعيانها، حضرة هولاكو ومعهم التحف والهدايا ومفاتيح بوابات دمشق، وأظهروا الطاعة والخضوع له، وسَلموا المدينة، وأمر هولاكو قاده كيتوبوقا إلى دمشق لإختبار أهلها، فاستقبله أهل المدينة وطَلبوا منه الأمان، في سابع عشر ربيع الأول، سنة ٦٥٨هـ، ثم أرسل أعيانهم إلى بلاط هولاكو، وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال، وصدق ظن هولاكو عندما أعطى الأمان الحقيقي لأهل حماة، فإن ذلك دَفع غيرهم من أهل المدن الكبرى أن يَفعلوا مثلهم، وخَرج وفد من أعيان دمشق يستقبل جيش هولاكو، فولى عليها جماعة من المغول، وعيَّن ثلاثة من أهلها، هم: فخر الدين المردفائي وابن صاحب أرزن، والشريف علي، وكان هؤلاء قد بعث بهم هولاكو إلى الملك الناصر وهو على برزة، فكتبوا بذلك إلى هولاكو، فأمرهم تسلم دمشق ومساعدة أهلها في تصريف الأمور بها، ثم سير طائفة من التتار وأوصاهم بأهل دمشق، ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهماً فما فوقه [٦٢].

وبعد أيام من تسليم دمشق، وفي هذا الوقت وصل إلى دمشق الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو، ومعه مرسوم بأنه نائب السلطة لدمشق والشام كلها، ثار الأمير بدر الدين محمد بن قرمجاه والى قلعة دمشق، هو والأمير جمال

الدين بن الصيرفي، وأغلقا أبواب القلعة. وكان كتبغا نوين قد وصل إلى دمشق في جمع من التتار كنواب لهولاكو، في سادس عشر ربيع الأول، سنة ٦٥٨هـ. فحضر كتبغا بمن معه من عساكر التتار، وحَصروا القلعة في ليلة السادس من ربيع الآخر سنة ٦٥٨هـ. فبَعث الله مطراً وبرداً، مع ريح شديدة ورعود وبروق وزلزلة. سقط منها عدة أماكن من القلعة، وبات الناس بين خوف أرضي وخوف عالي، ولم ينال التتار من القلعة شيئاً، واستمر الحصار عليها بالمجانيق، وكانت تزيد على عشرين منجنيقاً، إلى ثاني عشري جمادى الأولى. عند ذلك اشتد الرمي، وخُرب من القلعة مواضع، فطلب من فيها الأمان فدَخلها التتار فنهبوا سائر ما كان فيها، وحَرقوا مواضع كثيرة، وهدموا من أبراجها عدة، وأتلفوا سائر ما كان فيها من الآلات والعدد. وساروا إلى بعلبك فخربوا قلعتها، وهدموا عدداً كبيراً من أبراجها، وخربوا بانياس وأسعروا البلاد خرباً وملأوها قتلاً ونهباً [٦٣].

وتم حصار القلعة وضربها بالمنجنيقات وخرب من القلعة مواضع، وطَلب من بداخلها الأمان، ودَخلها المغول ونهبوا ما كان فيها من الكنوز والدفائن، وأحرقوا مواضع كثيرة منها، وهدموا عدداً كبيراً من أبراجها، وأتلفوا سائر ما بها من الآلات والعدد[٦٤].

موت منكوخان عظيم للتتار

في هذه الأثناء حدث أمر لم يكن في حسبان هولاكو في هذا التوقيت، وهو موت منكوخان زعيم دولة التتار، وجاءت الأخبار بذلك إلى هولاكو قبل أن يصل إلى دمشق، وبالطبع كانت هذه أزمة خطيرة، فمنكوخان يحكم دولة مهولة اتسعت في وقت قياسي، وحدوث أي اضطراب في الحكم قد يهدد هذه الدولة العظيمة بالتفكك، كما أن هولاكو هو أحد المرشحين لحكم دولة التتار، فهو أخو منكوخان، وهو حفيد جنكيزخان، وله الانتصارات العظيمة الكثيرة، وله الفتوحات المبهرة، ويكفيه فخرًا أنه أوّل مَن أسقط الخلافة الإسلامية في التاريخ، فكانت كل هذه

المؤهلات تجعل هولاكو من أوائل المرشحين لحكم دولة التتار بكاملها، بدلاً من حكم منطقة الشرق الأوسط فقط.

لذلك لما وصل خبر وفاة منكوخان، لم يتردد هولاكو في أن يترك جيشه، ويُسرع بالعودة إلى: قراقورم، عاصمة التتار للمشاركة في عملية اختيار خليفة منكوخان. وترك هولاكو على رأس جيشه أكبر قواده وأعظمهم: كتبغا نوين، وهو من التتار النصارى [٦٥].

وأسرع هولاكو بالعودة، حتى إذا وصل إلى إقليم فارس جاءته الرسل من قراقورم بأنه قد تم اختيار أخيه: قوبيلاي، خاقاناً جديداً للتتار، ومع أن الأمر كان صدمة كبيرة لأحلام هولاكو، وكان على خلاف توقعاته، بل وعلى خلاف قواعد الحكم التي وضعها جنكيزخان قبل ذلك، إلا أنه تَقبل الأمر بهدوء، وآثر أن يمكث في منطقة الشرق الأوسط، لا سيما وقد رأى الخيرات العظيمة في هذه المناطق، لكنه لم يَرجع مرة أخرى إلى الشام، بل ذهب إلى تبريز (في إيران حالياً)، وجَعلها مركزاً رئيسياً لإدارة كل هذه الأملاك الواسعة.

وتبريز بالإضافة إلى حصانتها وجوها المعتدل، فإنها تتوسط المساحات الهائلة التي دخلت تحت حكم هولاكو حتى الآن، فهو يحكم بداية من أقاليم خوارزم والتي تضم كازاخستان وتركمنستان وأوزبكستان وأفغانستان وباكستان، ومروراً بإقليم فارس وأذربيجان، وانتهاء بأرض العراق وتركيا والشام، والذي شجّع هولاكو أكثر على عدم الرجوع إلى الشام، هو أن ما تبقى في بلاد الشام يُعتبر جزءاً بسيطاً ضعيفاً ليس فيه مدن كبيرة، لاسيما أنهُ قد سَمع قبل رجوعه بفرار جيش الناصر يوسف الأيوبي في اتجاه الجنوب إلى فلسطين، تاركاً وراءه دمشق دون حماية، غير أن هولاكو لم ينس أن يُرسل رسالة هامة إلى كتبغا . يؤكد له فيها على ضرورة الإمساك بالناصر يوسف الأيوبي، الذي تمرد وخرج عن الطوق من وجهة نظر هولاكو.

دمشق بعد السقوط

لقد سقطت دمشق في أواخر صفر سنة ٦٥٨ هجرية، وذلك بعد سنتين تماماً من سقوط بغداد، وهذا زمن قياسي حققه التتار، إذ إنهم اجتاحوا مساحات كبيرة في هذه المناطق، وأسقطوا مدناً كثيرة في العراق وتركيا وسوريا، وإن كانت المدن الرئيسية الثلاث التي استولوا عليها هي: بغداد وحلب ودمشق، لكن المدن الأخرى أيضاً ليست بالمدن البسيطة، كما أن الكثافة السكانية في هذه المناطق كانت عالية جداً، لخصوبتها ويسر الحياة فيها من ناحية، ولقدمها وتاريخها من ناحية ثانية، ولارتفاع مستوى المعيشة والحضارة فيها من ناحية ثالثة.

وبالطبع هبطت معنويات العالم الإسلامي كله إلى الحضيض بعد سقوط دمشق، وأصبح معظم المسلمين يوقن باستحالة هزيمة التتار، كما أصبح معظمهم أيضاً يُدرك أن اللحظات المتبقية في عمر الأمة الإسلامية أصبحت قليلة جداً، وبدأ التتار في إدارة مدينة دمشق بواسطة النصارى، بعد أن خرّبوا أسوارها وقِلاعها، ووضعوا على إدارة المدينة رجلاً تترياً اسمه: إبل سبان، وهو وإن لم يكن نصرانيًّا إلا إنه كان مُعظماً ومحابياً جداً لهم، وبدأت المدينة تعيش فترة عجيبة في تاريخها [٦٦].

وهكذا كان الوضع ينذر بكارثة حقيقية، فقد وقع المسلمون بين شقي الرحى في دمشق، بين التتار والنصارى، وبات واضحاً للجميع أن التعاون بين الطائفتين التتارية والنصرانية سيكون كبيراً، وخاصة أن رئيس المعسكر التتاري في الشام نصراني وهو كتبغا، والنصارى الذين يَعيشون في الشام يَعرفون كل خباياها، ويُدركون كل إمكانياتها، ولا شك أن تعاونهم مع التتار سيكون ضربة موجعة للمسلمين.

احتلال فلسطين

قرر كتبغا نائب هولاكو أن يحتل فلسطين، فأرسل فرقة من جيشه، فاحتلت نابلس، ثم احتلت غزة، ولم تقترب الجيوش التتارية من الإمارات الصليبية الأوروبية المنتشرة في فلسطين، كما لم يقتربوا من إمارات الصليبيين في سوريا ولبنان، وبذلك قسمت فلسطين بين التتار والصليبيين [٦٧].

ومع كون التعاون بين التتار والصليبيين كان واضحاً، إلا أن كتبغا زعيم التتار كان يسير على نهج هولاكو، فهو وإن كان نصرانياً، إلا أنه لم يكن يَسمح للنصارى، سواء من أهل الشام أو من أوروبا، أن يَخرجوا عن سلطانه وعن حكمه وعن خططه، مثال ذلك، ما حدث من أمير صيدا: جوليان، والتي كان يحتلها الصليبيون الأوروبيون، فإنه عندما شاهد الصراع بين التتار والمسلمين، ظن أن هذه فرصة لتوسيع أملاكه، فأغار على سهل البقاع الخصب واحتله، فأرسل له كتبغا من يَنهاه عن ذلك، ولكنه لم يستجب، فرد كتبغا على ذلك بإرسال جيش كثيف إليه فضرب صيدا ودمرها بالفعل، وأفلت جوليان عبر البحر، ثم كرر كتبغا نفس الأمر مع يوحنا الثاني، أمير بيروت، وذلك عندما أغار على منطقة الجليل.

لقد كان التتار يُريدون الإمساك بكل خيوط اللعبة في أيديهم، وهذا حق القوي، طالما لا يحكم اللعبة إلا قانون القوة فقط، وعلى من أراد التعاون أن يأتي تابعاً، لا صديقاً أو محالفاً، وهو نظام القطب الواحد في الأرض، والذي لا يقبل بنشوء أي قوة إلى جواره.

ولا شك أن هذا التصرف من كتبغا، ومن قبله التصرف الذي كان ينتهجه هولاكو بفرض الهيمنة المغولية على النصارى حتى في اختيار البطريرك الديني لهم، لا شك أن هذه الأعمال أوغرت صدور أمراء الممالك الصليبية في الشام، وخاصة أن أوضاعهم كانت مستقرة قبل قدوم التتار، لأنهم كانوا يطمئنون إلى ضعف المسلمين، كما أنهم كانوا يطمئنون إلى عهد المسلمين، فهم عادة لا

يَغدرون، بعكس التتار، وما ظهر من التتار من إذلال لأمير أنطاكية، ثم أمير صيدا ثم أمير بيروت، جَعل أمراء الممالك الصليبية الأخرى على وجلٍ من التتار، وبات معلوماً لهم على وجه اليقين أنه بمجرد أن تستقر الأوضاع للتتار في المنطقة، وتترسخ أقدامهم فإنهم سيَفعلون في نصارى الشام والممالك الصليبية، مثلما فَعلوا قبل ذلك في نصارى أوروبا الشرقية، عند الاجتياح السابق لها في فترة ولاية أوكيتاي بن جنكيزخان، لكن وبرغم هذا التوجس الشديد والقلق العميق، إلا أن أمراء الممالك الصليبية ظلوا يُراقبون الموقف دون محاولة التدخل، ولا يعلم أحد منهم بأي شيء ستأتي الأيام القادمة [٦٨].

وبهذا الاحتلال الأخير لفلسطين، يكون التتار قد أسقطوا العراق بكامله، وأجزاء كبيرة من تركيا، وأسقطوا أيضاً سوريا بكاملها، وكذلك أسقطوا لبنان، ثم فلسطين، وقد حدث كل ذلك في عامين فقط، ووصل التتار في فلسطين إلى غزة، وأصبحوا على مسافة تقل عن خمسة وثلاثين كيلومترًا فقط من سيناء، وبات معلوماً للجميع أن الخطوة التالية المباشرة للتتار هي احتلال مصر.

وبسقوط مصر، سيتمكن التتار من فتح شمال أفريقيا بكامله، و شمال أفريقيا لم يكن يمثل أي قوة عسكرية في ذلك الوقت، لأن وصول التتار إلى الشام كان متزامناً مع سقوط دولة الموحدين بالمغرب سقوطاً كاملاً، على يد سلاطين دولة بني مرين الفتية، إلا أنها لم تكن قد صارت بالقوة التي تمكنها من مقاومة التتار، خاصة وأنه في الغالب لم تكن لتجد أي عون من دولة مجاورة كالدولة الحفصية في تونس، وبالتالي لو سقطت مصر فلا شك أن كل هذه الممالك ستسقط بأقل مجهود.

لهذا السبب، وللكثافة السكانية الكبيرة في مصر، حيث كان سكانها يبلغون أضعاف سكان المناطق الإسلامية الأخرى، وللحمية الدينية وللصحوة الإسلامية العالية جدا لدي المصريين، ولخوف التتار أن يصل أحد الصالحين المجاهدين لقيادة هذا

البلد كثيف العدد، شديد الحمية، المحب للإسلام، الغيور على حُرمات الدين، فتتغير الأوضاع، وتتبدل الأحوال، ويعجز التتار عن احتلال مصر إن طال الأمر عن هذا، ويهتز وضع التتار في المنطقة بأسرها، لهذه الأسباب وغيرها، كان التتار يعدون العدة للانتقال من فلسطين إلى مصر، وعلى وجه السرعة، يدل على هذا سرعة انتقال التتار من بلد إلى بلد، فالمراقب للأحداث سيدرك أن تحرك التتار إلى مصر سيكون قريباً، بل قريباً جداً، حتى لا يُعطون أي فرصة لمصر للتجهز للحرب الحتمية القادمة [٦٩].

نهاية السلطان الناصر الأيوبي

أصبح الملك الناصر مسلوب الإرادة مرعوباً، ليس له رأي، وعندما شاهد جنده ومماليكه هذه الحال منه، قرروا تنحيته باغتياله أو القبض عليه، وسلطنة أخيه الملك الظاهر غازي بن العزيز لشهامته، وعَلم الناصر بهذا الأمر، فتَرك المعسكر هارباً بالليل إلى قلعة دمشق، فأسقط بيد مماليكه الناصرية، وأعوانهم، فهربوا ومعهم الظاهر غازي إلى غزة [٧٠].

وكان تسارع الأحداث في الشام أكبر من أن يترك صدى أو ذيولاً لهذه المحاولة الفاشلة، فالتتار لا يهدؤون وقد انضم إليهم الأشرف بن المجاهد، فأعادوا له حمص وأعمالها، وكذلك الملك السعيد بن عبد العزيز، حيث أطلقه هولاكو من سجن البيرة، وأعاد له ولايته على بانياس، وقلعتها التي تُعرف بالصبيبة.

فقرر الملك الناصر الانسحاب جنوباً نحو مصر، وقد تضعضعت العسكر، وتصرَّمت، وقلت الحرمة، وطَمع كل أحد، ولم يبق عند الناصر إلا قوم قلائل، فسارَ بهم عن دمشق على أمل جمع الكلمة مع المظفر قطز للقاء التتار، وبصحبته من بقي معه من الجيش، وتَرك دمشق خالية من العسكر، وأهلها على الأسوار يشتمونهم ويَدعون عليهم ويقولون: تركتمونا طعمة للتتار، لا كتب الله عليكم السلامة [٧١].

وعبر الزين الحافظي إلى دمشق وأغلق أبوابها. وسيّر الناصر طلبه. ليجتمع به. فامتنع عن الخروج إليه وجَمع أكابر دمشق. واتفق معهم على تسليم دمشق لنواب هولاكو كما مر [٧٢].

وسار الناصر يوسف الأيوبي ومعه المنصور محمد صاحب حماه. فوصل نابلس. حيث تَرك بها حامية. ولما وصل غزة. انضم إليه مماليكه الفارون. وتَصالح مع أخيه غازي. وعلم الناصر يوسف الأيوبي في غزة أن التتار قد احتلوا نابلسن فقَصد العريش. وأرسل يُخبر قطز ويَسأله الاجتماع لمواجهة التتار. ويبدو أن جواباً شافياً مطمئناً لم يصل من قطز إلى الناصر. فاستراب الناصر باهل مصر. وكان قد بلغ قطية. فخاف دخول مصر فَيُقْبض عليه. فسمح لمن يريد من مرافقيه دخول مصر. فحزم المنصور محمد أمره ودخل والعسكر مصر. فالتقاهم قطز. وأحسن للمنصور. وأعطاه سنجقاً ودخلوا القاهرة [٧٣].

وأما الناصر يوسف الأيوبي أمير حلب ودمشق سابقاً. فقد حَير فيما يَفعل؟ واين يتوجه؟ وأخذ يفكر بالتوجه نحو الحجاز. ثم عدل إلى ناحية الكرك. فتحصن به. ولكنه قلق. فركب نحو البرية. واستجار ببعض أمراء الأعراب [٧٤].

وربما بسبب الطمع. أو نيل الحظوة لدى التتار. قام واحدٌ من مرافقيه وخَدَمه. وهو حسين الطبردار الكردي بالتوجه إلى إحدى سرايا التتار. التي أخذت تنتشر جنوب الأردن وفلسطين. وأعلمهم بمكان وجود الملك الناصر. فقَصدوه. فأتلفوا تلك المنطقة المتواجد بها. أتلفوا أموالهم. وخرّبوا ديارهم. وقتلوا الكبار والصغار. وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي وقَتلوا منهم خلقاً وسبوا نسلهم ونساءهم. وقَبضوا على الملك الناصر. وأرسلوه مع أخيه الظاهر غازي بن محمد وابنه العزيز محمد بن يوسف وإسماعيل بن شيركوه إلى كتبغا نوين. الذي سيّره بدوره إلى هولاكو. فأقام الناصر عند هولاكو حتى بلغهم أخبار هزيمة التتار في عين جالوت. فقام هولاكو بقتله. ثم قتلوا بقية من كان معه. ولم ينج من نقمة هولاكو

إلا العزيز محمد بن الناصر يوسف لصغر سنه، حيث بقي عند التتار حتى مات [٧٥].

مقدمات معركة عين جالوت وسير أحداثها

كان من نتائج سقوط بلاد الشام في أيدي المغول وحلفائهم، وأنه لم يبق خارج عن حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن، أن عمَّ الرُّعب والخوف سائر أرجائها، فهَرب الناس باتجاه الأراضي المصرية، وهَرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغرب، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز، والباقون بقوا في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد، وقد تأكد الرعب في نفوسهم، نتيجة ما شاهدوه من الأهوال، وبسبب ما حل بهم وببلادهم من الدمار والخراب والهلاك، وتأكد لهم وأن الشيء الوحيد الذي سينقذ المسلمين وممتلكاتهم من الزحف المغولي المدمر هو البحث عن قيادة حكيمة قوية، تُتَرجم نواياهم، وتُنهي خلافاتهم، وتُوحد كلمتهم، وتُعيد تنظيم جموعهم، بما يعمل على بعث روح الجهاد الإسلامي في نفوسهم، لدرء ذلك العدوان الذي بات يهدد ما تبقى من العالم الإسلامي بالدمار والهلاك، ولقد كان الحال يُنبيء بأنه من مصر سيظهر تلك القوة جديدة التي يعول عليه الناس [٧٦].

أحداث ونتائج موقعة عين جالوت

الأحوال الدولة المصرية قبل عين جالوت

بالنسبة للوضع الداخلي للبلاد أوائل سنة ٦٥٨ هـ. فقد كان كانت الأوضاع السياسية مستقرةً، وكانت الحكومة الجديدة تدين بالولاء التام لقطز. وقد صارت المهمة الأولى للدولة في تلك الآونة واضحة ومُعلنة. وهي إعداد جيش قوي لمقابلة التتار في معركة فاصلة. أيضاً لقد أشاع العفو عن المماليك البحرية جواً من الهدوء النفسي والراحة القلبية. عند عامة الشعب المصر. وليس عند المماليك البحرية فقط. فجو المشاحنات يترك آثاره السلبية بكل تأكيد. ليس على القادة والجيش فقط. وإنما على الشعب كله. ولا شك أيضاً أن الجيش المصري قد ازداد قوة. باتحاد طرفيه الكبار المماليك البحرية والمماليك المعزية.

وفي هذه الأثناء انضم إلى جيش مصر الكثير من الجنود الشاميين. وهؤلاء هم معظم جيش الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب. وجيش حماة وعلى رأسه المنصور أمير حماة. مع العلم أن حلب ودمشق وكل فلسطين حتى غزة التي لا تبعد غير خمسة وثلاثين كيلومترًا عن مصر. قد سقطوا تحت حكم التتار [١].

ولكن هل كان الشعب المصري في تلك الآونة. والتي كان يُعاني فيها من أزمة اقتصادية طاحنة. والأزمات الاقتصادية عادة ما تؤثر كثيراً على حياة الشعوب بالسلب. فيفقدون الطموح أو الأمل في أي شيء. ولا يَرغبون إلا في الحصول على لقمة العيش. لقد استلم قطز حكم مصر. وكان وضع البلاد صعباً للغاية. فالفتن الدائرة على كرسي الحكم منذ عشر سنوات جَعلت الحكام لا يلتفتون كثيراً

إلى شعوبهم.

وبالفعل كانت الأمة المصرية في هذا الوقت لا يهمها غير لقمة العيش، ولا يتمنوا مثل تلك الحرب التي ينادي بها قطز، بل كانوا يتمنون أن ينصرف قطز عن هذه النية، وكانوا كلما سمعوا بأخذ التتار لأي بلد عربي مرضت نفوسهم، وشَعروا بالخوف، وتمنوا لو لم يأت اليوم الذي يضطرون فيه لخوض مثل هذه الحرب التي يبشر بها قطز، خوفاً من النتائج، ويقيناً منهم، أن هؤلاء التتار لا محالة قادمون، وأنه لا رد لهم إلا بخوض الحرب معهم.

لذلك كانت مهمة رَفع الهمة عند هذا الشعب، ورَفع روحه المعنوية، وتحميسُه على المقاومة، كانت هذه المهمة من أصعب المهام التي واجهت قطز، فالجيش غير المؤيد بشعبه جيش لا يقوى أبداً على الصمود، فلابد إذاً من السند الشعبي للقائد والجيش، وإلا فالنصر مستحيل، وكان لزاماً على قطز أن يوجه اهتماماً خاصاً لتربية شعبه على معاني الجهاد والتضحية والبذل والعطاء، والفداء للدين والحمية للإسلام [٢].

أهم القيم الأخلاقية لدى المصريين

إذا كانت مهمة رَفع الهمة عند هذا الشعب، ورَفع روحه المعنوية، وتحميسُه على المقاومة شاقة، فقد حفظ اللّه عز وجل لشعب مصر في ذلك الوقت قيمتين عظيمتين سَهّلتا نسبياً من مهمة قطز.

الأولى: علو قيمة العلوم الشرعية وعلماء الدين عند الناس.

القيمة الثانية: هي قيمة الجهاد في سبيل اللّه.

أما القيمة الدينية عند المصريين، فهي من الأمور القديمة لديهم، فالشعب المصري شعب مُتدين بطبيعته، علاوة على قدم الرسالات السماوية فيه، وتسلسل الرسل،مما طَبع الناس بهذا البلد بطابعِ التقديس لكل شِعار أو شعيرة تتماس مع

الدين. علاوة على تقديرهم الجم لرجال الدين والدعوة عموماً.

ولقد تميز عصر الدولة الأيوبية بعلو شأن العلماء ورجال الدين. فكان من المستحيل في مصر أيام الأيوبيين والمماليك أن يهزأ أحدٌ بعالمٍ دين. أو بشيخ في مسجد. أو بمأذونٍ شَرعي. أو بأي رجلٍ حَمل صِبغة إسلامية. كما كان من المستحيل على هذا الشعب أن يرفض أي مبدأ إسلامي أو قانون شرعي. إلا في حالات الاستثنائية. كضغوط الحياة. أو المشاحنات وهوى النفس. أما على العموم فقد كان عامة المسلمين مُحبين لدينهم. مقدسين لكتابهم ونبيهم صلى الله عليه وسلم.

ولهذه القيمة العالية للعلم والعلماء في مصر. كانت مصر ملاذاً للعلماء الذين لا يَجدون في بلادهم فرصة لتعليم الناس. أو يَجدون مُقاومة من حكامهم لسبب من الأسباب. ولهذا فزيادة على علماء مصر وعلماء الأزهر الشريف. فقد جاء إلى مصر علماء أفاضل من بلاد إسلامية أخرى. ولا شك أن هؤلاء العلماء أضافوا إضافات جليلة لحركة العلم في مصر. وعلى رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل: العز بن عبد السلام. والملقب بسلطان العلماء [٤].

الشيخ العز بن عبد السلام

العزّ بن عبد السلام. من أعظم علماء المسلمين على الإطلاق. وهو من مواليد دمشق سنة ٥٧٧ هـ. أي إنه عند ولاية قطز كان قد تجاوز الثمانين من عمره. وكان الشيخ العزّ بن عبد السلام من العلماء الذين لا يخافون في الله لومة لائم. وكان كثيراً ما يواجه السلاطين بأخطائهم. وينصحهم في الله دون خوف ولا وجل. ولذلك لقبه تلميذه الأول وعالم الإسلام المشهور ابن دقيق العيد. بلقب: سُلطان العلماء. فقد جمع بين العلم والعمل. وبين الاتباع الشديد للسنة والاجتهاد الصحيح عند الحاجة. وبين الفتوى في الأمور العبادية والعقائدية والفتوى في الأمور السياسية والاجتماعية. فكان بحق سُلطاناً للعلماء. وقدوة للدعاة. وأسوة للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر [٥].

وقد عاش حياته في دمشق إلى أن تولّى الصالح إسماعيل الأيوبي أمير دمشق. وهو أخو الصالح أيوب الذي كان حاكماً لمصر. ولكن الصالح إسماعيل حاكم دمشق كان على غير تدين الملك الصالح نجم الدين أيوب. وعلى غير وطنيته وإخلاصه. فقد تحالف مع الصليبيين على أن يُعطيهم مدينتي صيدا والشقيف. وأن يَسمح لهم بشراء السلاح من دمشق. وأن يَخرج معهم في جيش واحد لغزو مصر. فغضب الشيخ ابن عبد السلام لهذا. وراح يعيب هذه الأفعال من الصالح إسماعيل الأيوبي أمير دمشق. فما كان من الصالح إسماعيل إلا أن عزله عن منصبه في القضاء. ومنعه من الخطابة. ثم أمر باعتقاله وحبسه. وبقي العالم الجليل مدة في السجن. ثم خرج. ولكن الصالح إسماعيل مَنعهُ من الكلام والتدريس والخطابة. فرَحل الإمام الجليل من دمشق إلى بيت المقدس. ليجد فُرصة يُعلم الناس هناك بدلاً من السكوت في دمشق. وأقام بها مدة.

ثم قدم الصالح إسماعيل الأيوبي أمير دمشق. إلى بيت المقدس ومعه ملوك الصليبيين وجيوشهم وهم يقصدون مصر لاحتلالها. وأرسل الصالح إسماعيل إلى الشيخ يَعده أن يُرجعه إلى منصبه. بشرط: أن يتوقف عن الكلام في السياسة. وأن يُقبل يد الصالح إسماعيل! ولقد كان رد الرجل بليغاً ومُفحماً. فقد قال: والله يا مسكين. ما أرضاه أن يُقبل يدي. فضلاً أن أقبل يده. يا قوم: أنتم في واد. وأنا في واد. والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به [٦].

فأمر الصالح إسماعيل باعتقال الشيخ في بيت المقدس. ووضعه في خَيمة مُجاورة لخيمته. وكان الشيخ عزّ الدين رحمه الله يَقرأ القرآن في خيمته. والسلطان الصالح إسماعيل يَسمعه. وفي ذات يوم كان الصالح إسماعيل يتحدث مع ملوك الصليبيين في خيمته والشيخ يقرأ القرآن. فقال الصالح إسماعيل للملوك الصليبيين ذات يوم وهو يحاول استرضاءهم: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم. قال: هذا أكبر عُلماء المسلمين. وقد حَبَستهُ لإنكاره عليَّ

تسليمي حصون المسلمين لكم، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه، ثم أخرجته فجاء إلى القدس، وقد جددت حبسه واعتقاله لأجلكم.

فقال ملوك النصارى، وقد سَقط الصالح إسماعيل تماماً من أعينهم: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها!

وظل الشيخ العز بن عبد السلام في محبس ببيت المقدس إلى أن جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخلّص بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٤٣ هـ، وأخرج الشيخ من السجن وجاء إلى مصر، حيث استُقبلَ أحسن استقبال، وقَرب السلطان الصالح أيوب، وأعطاه الخطابة في مسجد عمرو بن العاص، وولاه القضاء [٧].

ولما استقرت حياة الشيخ بمصر، وتعرف على كيفية سير الأمور فيها، وكيف تسير ومن يسيرها، تبين أن المماليك هم من بيده كل مقاليد أمور البلاد والعباد، وتحير الشيخ، فهؤلاء المماليك الأمراء ما هم إلا عبيد، ولا تصح ولايتهم على المسلمين الأحرار، ولا يحق لهم تصريف أمور البلاد وهم على هذه الحالة من العبودية، فأصدر مباشرة فتواه بعدم جواز ولايتهم لأنهم من العبيد، واشتعلت مصر بغضب الأمراء الذين يتحكمون في كل المناصب الرفيعة، حتى كان نائب السلطان مباشرة من المماليك، وجاءوا إلى الشيخ العز بن عبد السلام، وحاولوا إقناعه بالتخلي عن هذه الفتوى، ثم حاولوا تهديده، ولكنه رفض كل هذا مع إنه قد جاء مصر بعد اضطهاد شديد في دمشق، وأيد الملك الصالح رأي أمرائه ومماليكه، ورفض تدخل الشيخ في هذا الشأن، فخلع نفسه من منصبه في القضاء، وركب الشيخ العز بن عبد السلام حماره، وأخذ أهله على حمار آخر، وقرر الخروج من القاهرة، والاتجاه إلى إحدى القرى لينعزل فيها طالما لا يُسمع لفتواه، ولكن شعب مصر المقدّر لقيمة العلماء رَفض ذلك الأمر، وخرج خلف الشيخ الآلاف من عُلماء مصر ومن صالحيها وتجارها ورجالها، بل خَرجت النساء والصبيان تأييداً للشيخ، وإنكاراً على مخالفيه.

ولم يجد الملك الصالح نجم الدين أيوب من مفر غير إرجاع الشيخ وترضيته. فأسرع بنفسه خلفه واسترضاه. فما قبل إلا بتنفيذ فتواه. وقال له إن أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلابد أن يُباعوا أولاً. ثم يُعتقهم الذي يشتريهم. ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دُفع قبل ذلك من بيت مال المسلمين. فلابد أن يُرد الثمن إلى بيت مال المسلمين. ووافق الملك الصالح أيوب. وتولى الشيخ العزّ بن عبد السلام بنفسه عملية بيع الأمراء حتى لا يحدث أي نوعٍ من التلاعب. وبدأ يَعرض الأمراء واحداً بعد الآخر في مزاد. ويُغالي في أثمانهم. ودَخل الشعب في المزاد. حتى إذا ارتفع السعر جداً. دَفعه الملك الصالح نجم الدين أيوب من ماله الخاص واشترى الأمير. ثم يَعتقه بعد ذلك. ووضع المال في بيت مال المسلمين. وهكذا بيع كل الأمراء الذين يتولون أمور الوزارة والإمارة والجيش وغيرها. ومن يومها والشيخ العز بن عبد السلام يعرف ببائع الأمراء. لقد كان موقفاً مشرفاً من الشيخ. لدرساً لك شيخ يخشى الله واليوم الآخر [٨].

القيمة الثانية الجهاد في سبيل الله

لقد كان المسلمون في مصر في تلك الآونة يؤمنون إيماناً عَميقاً بحتمية الجهاد في سبيل الله. للأمة التي تُريد أن تعيش. ويربطون كلمة "الجهاد في سبيل الله". دائماً بالله عز وجل. ولأن الجيوش الصليبية كانت دائماً أكثر عدداً من الجيوش المسلمة كانت الجيوش المسلمة شديدة الارتباط بربها عند المعارك. وشديدة التضرع إليه. وحريصة على توجيه النية كاملة لله عز وجل. وما سقطت قيمة الجهاد في سبيل الله حتى في أوقات الضعف. وحتى في أوقات الصراع على السُّلطة. وحتى في أوقات الأزمات الاقتصادية. وكانت الحملات الصليبية المتتالية على مصر والشام. سبباً في بقاء روح المقاومة عند المسلمين في مصر [٩].

ولذلك كان الجيش المصري آنذاك مستعداً دائماً. ولم يُفرغ الجيش أبداً لأعمال مدنية. كما تفعل بعض الدول التي لا تُجاهد ولا تَنوي أصلاً أن تجاهد. إنما كان

الجيش متفرغاً للتدريب العسكري، وتحديث السلاح، والتمرين على الخطط المختلفة للحروب، وإفراز القيادات الجديدة الماهرة، وحماية البلاد من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، ونجدة المسلمين في البقاع المختلفة.

أيضاً لقد كان الشعب في مصر، في الأيام التي صعد فيها قطز إلى كرسي الحكم سنة ٦٥٨هـ، على الرغم من أزماته الاقتصادية، وظروفه الصعبة، وفزعه من أخبار التتار، وفُقدانه الثقة في كثير من زعمائه، كان شعباً واعياً فاهماً مُقدراً لقيمة العلم والعلماء، ومحترماً لقيمة الجهاد في سبيل الله، كوسيلة حتمية لحل الصراع مع الدول التي تغير على بلاد المسلمين.

وأيضا كان قطز واضعاً قضية التتار نُصب عينيه من أول يوم حَكم فيه البلاد، بل كان واضعاً هذه القضية نُصب عينيه في كل حياته، من يوم أن كان طفلاً أغار التتار على بلده الخوارزمية، وقتلوا أهله وخاله السلطان الكبير جلال الدين خوارزم شاه، ومروراً بكل مراحل حياته الصعبة، وحياة الرق والعبودية، وانتهاءً بصعوده إلى أعلى منصب في مصر سنة ٦٥٨هـ [١٠].

قطز في مواجهة التتار

بينما كان قطز في إعداده المتحمس، وفي خطواته السريعة، جاءته رسل هولاكو يخبرونه أن اللقاء سيكون أسرع مما يتخيل، وأن الحرب على وشك الحدوث، وبينما كان قطز في حاجة إلى بضعة شهور للإعداد، إذا بالأيام تتسرب من بين يديه، والحرب مُفروضة عليه، وما بين عشية وضحاها ستهجم الجحافل الهمجية على مصر، شاء قطز أم أبى، وشاء الجيش أم أبى، وشاء الشعب أم أبى، فالصراع سيكون قريباً، وقريباً جداً بين أي فئة مؤمنة، وبين أكبر قوة في الأرض إن كانت هذه القوة ظالمة، فالظالمون المتكبرون لا يَقبلون أبداً بصديق ولا حليف ولا محايد، إنما فقط يريدون التابع، ولابد أن يكون التابع ذليلاً.

وهنا يجب أن نلاحِظ أن قطز قد تولّى عرش مصر في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٥٧ هـ، وجاءته رسالة هولاكو قبل أن يغادر هولاكو أرض الشام عائداً إلى منغوليا بعد وفاة زعيم التتار منكوخان، وهولاكو غادر الشام بعد سقوط حلب بقليل، وقبل فتح دمشق، وحلب سقطت في صفر ٦٥٨ هـ، ودمشق سقطت في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ، أي بعد تولّي قطز رحمه الله لرئاسة مصر بثلاثة شهور فقط.

إذن فكل الترتيبات والخطوات التي أخذها قطز تمت في ثلاثة شهور فقط.

رسالة هولاكو إلى سيف الدين قطز

بعد سقوط دمشق، سنة ٦٥٨هـ، أرسل هولاكو رسالة تهديد ووعيد إلى سلطان مصر، المظفر قطز، قال فيها:

من ملك الملوك شرقاً وغرباً، القان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يَعلم الملك المظفر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم، يتنعمون بإنعامه، ويَقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يَعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جُند الله في أرضه، خُلقنا من سخطه، وسُلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد مُعتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم البلاد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم، فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعفون عند الكلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، " فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون " . " وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ". فمن طلب حربنا نَدم، ومن قَصد أماننا سَلِم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد أعذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة لملوككم عندنا سبيل، فلا تطلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً، ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتُصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفنا إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا

وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى [١].

ألا قل لمصرها هلاون قد أتى	بحد سيوف تنتضى وبواتـــر
يصير أعز القوم منا أذلـــــة	ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر

مجلس شورى حربي

فرأ سيف الدين قطز الرسالة، وكانت بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه، سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي وضعها كدح القرون الطوال، كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستسلام للتحدي والإذعان لضروراته. ولكنه الإيمان له منطق آخر، أنه يَمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام، ليس هذا فحسب، لكنه يكون بصيرة تخترق حُجب العمى والظلام، لكي تُطل على أُفق يُشع ضياء، وبالحركة القديرة، والرؤية الصائبة، تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومِحنه وويلاته، فتَخرج منها ظافرة، وتحقق بالاستجابة قفزة نوعية في مجرى الفعل والتحقق [٢].

وبعد قرأة سيف الدين قطز الرسالة، استدعى الأمراء ليَعرض الأمر عليهم وجرى هذا الحوار:

قال قطز: ماذا ترتؤون؟

فرد ناصر الدين قميري: إن هولاكو فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان، فإن شهرته وهيبته غنية عن الشرح والبيان، وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعار، ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت، أمران بعيدان عن حُكم العقل، أنه ليس الإنسان الذي يطمأن إليه، فهولا يتورع عن إحتراز الرؤوس، وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة الخليفة وعدداً من الأمراء، بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا سرنا سيكون مصيرنا هذا السبيل.

فقال قطز: والحالة هذه فإن كافة ديار بكر وربيعة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع. وأصبحت البلاد من بغداد وحتى الروم خراباً يباباً. وقُضي على جميع ما فيها من حرث ونسل. فلو أننا تقدمنا لقتالهم. وقمنا بمقاومتهم. فسوف تخرب مصر خراباً كغيرها من البلاد. وينبغي أن نختار للتعامل مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحد من الثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر. ذلك لأنه لا يمكن أن نجد مفراً إلا المغرب. وبيننا وبينهم مسافات بعيدة [٣].

فرد ناصر الدين قميري: وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم. إذ أنه لا يُوثق بعهودهم [٤].

فرد عدد من الأمراء: ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم. فَمُر بما يقضيه رأيك.

فقال قطز: إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال. فإذا ظفرنا فهو المراد. وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

الظاهر بيبرس: أرى أن نَقتل الرسل. ونقصد كتبغا. قائد المغول متضامنين. فإذا إنتصرنا أو هزمنا فسوف نكون في تلك الحالتين معذورين.

أيد الأمراء المجتمعون كافة هذا الرأي. وكان على قطز أن يتخذ قراره وقد إتخذه فعلاً [٥].

قطز يستوثق من الأمراء

وفي هذه الأثناء أراد المظفر أن يقطع كل مجال للتردد في الخروج لمواجهة المغول. فأصدر أوامره إلى ولاة الأقاليم المصرية بجمع الجيوش وحث الناس على الخروج للجهاد في سبيل الله. ونصرة دين رسول الله صى الله عليه وسلم. وطَالب الولاة بإزعاج الأجناد للخروج للسفر. ومن وَجد منهم من إختفى يُضرب بالمقارع. وسار بنفسه حتى نزل الصالحية. حيث تكامل عنده وصول العساكر المصرية. ومن

إنضم إليهم من عساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم، وذلك في يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨هـ/يوليو١٢٦٠م.

وفي هذه المنطقة طلب قطز الأمراء واجتمع بهم وتكلم معهم في المسير لقتال المغول، ويبدو أن بعض هؤلاء الأمراء عاودهم الخوف من مواجهة المغول وامتنعوا عن الخروج، الأمر الذي أثار حماسة السلطان المظفر قطز فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يَرجع إلى بيته، فإن اللّه مُطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين [٦].

وأمام هذا التصميم الذي أبداه قطز لمواجهة المغول، والذي أعقبه تحليف من وافقه من الأمراء على المسير، وإصدار أوامره إلى قواته بالمسير لملاقاة العدو، مهما كانت الظروف، حيث عبر عن ذلك بقوله: " أنا ألقي التتار بنفسي ". أمام هذا التصميم من السلطان المظفر قطز، لم يسع بقية الأمراء المعارضين إلا الموافقة، واتفق الجميع على الخروج صفاً واحداً لإنقاذ المسلمين من ويلات الغزو المغولي المدمر [٧].

بعد أن تحقق لقطز موافقة أمراء المماليك على قتال التتار، كموافقة مبدأية، كان هناك مجموعة من الخطوات والإجراءات لابد من اتخاذها، فهناك موضوع التمويل، وهو موضوع خطير وهام، ولم يكن في الحسبان، ولم يتم أي استعداد له من قبل، ثانياً موضوع الحر نفسه، هل سيتجهز الجيش المصري ويبقى في مصر، أم سيخرج لملاقاة العدو أينما وجده؟

المشكلة الاقتصادية في مصر

بعد أن اتفق السلطان قطز مع أمراء المماليك، وتم حزم أمر الخروج للقاء التتار، كان لابدّ من تجهيز الجيش، وإعداد التموين اللازم له، وإصلاح الجسور والقلاع والحصون، وإعداد العدة اللازمة للحرب، وتخزين ما يكفي للشعب في حال الحصار،

هذه أمور ضخمة جداً، مع تفاقم تلك الأزمة الاقتصادية التي تمر بالبلاد، وليس هناك وقت لخطةٍ خمسية أو عشرية، والتتار على الأبواب، لقد وصل التتار إلى غزة [٨].

رأي قطز بخصوص تمويل الجيش

من جديد جمع قطز مجلسه الاستشاري، ودعا إليه إلى جانب الأمراء والقادة، والعلماء والفقهاء، وعلى رأسهم سلطان العلماء الشيخ العزّ بن عبد السلام، وبدء يُناقش معهم في الطريقة المُثلى لتمويل الجيش، وتوفير الاحتياجات والاحتياطيات الازمة للجيش والشعب، حتى نهاية الحرب، كانت الأزمة الاقتصادية الطاحنة، وراحوا يفكرون في كيفية توفير الدعم الكافي لتجهيز الجيش الكبير الخارج لملاقاة التتار.

واقترح قطز أن تُفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وهذا قرار يحتاج إلى فتوى شرعية، لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يَدفعون سوى الزكاة، ولا يَدفعها إلا القادر عليها، وبشروط الزكاة المعروفة، أما فرض الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلا في ظروف خاصة جداً، ومؤقتة جداً، ولابدّ من وجود سند شرعي يُبيح ذلك، وإلا صارت الضرائب مكوساً، وفرض الضرائب بغير حق عقابه أليم عند اللّه عز وجل. لقد اقترح السلطان قطز الأمر، وانتظر رأي العلماء في هذه القضية، ومع أن الغاية نبيلة، والمال المطلوب سوف يجهّز به جيش للقتال في سبيل اللّه، إلا أن الشيخ العزّ بن عبد السلام كان عنده تحفظ خطير على هذا القرار، فلم يوافق عليه إلا بشرطين، والشرطان عسيران جداً، ولكنهما كانا منطقيين تماماً [٩].

فتوى الشيخ العز بن عبد السلام

الشرط الأول: قال الشيخ العزّ بن عبد السلام: إذا طرق العدو البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، أي العالم الإسلامي، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يُستعان به

على جهازهم أي فوق الزكاة، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء.

الشرط الثاني: قال الشيخ العزّ بن عبد السلام، موجهاً كلامه للسلطان والأمراء: يجب قبل اللجوء إلى أخذ الأموال والضرائب من عامة الشعب، يجب أن يباع مالكم من الممتلكات والآلات، ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه، وتتساوون في ذلك أنتم والعامة، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا.

فإنه لا يجوز فرض ضرائب إلا بعد أن يتساوى الوزراء والأمراء مع العامة في الممتلكات، ويجهز الجيش بأموال الأمراء والوزراء، فإن لم تكف هذه الأموال جاز هنا فرض الضرائب على الشعب، بالقَدر الذي يَكفي لتجهيز الجيش، وليس أكثر من ذلك.

ومع غرابة هذه الفتوى وجرأتها، كانت استجابة قطز أعجب.

لقد قبل قطز كلام الشيخ العز بن عبد السلام ببساطة، وبدأ بنفسه، فباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمراء أن يَفعلوا ذلك، فانصاع الجميع، وتم تجهيز الجيش المسلم بالطريقة الشرعية، واكتشف المسلمون في مصر اكتشافاً عجيباً، لقد اكتشفوا أن مصر غنية جداً، وأن البلد به أموال ضخمة برغم الأزمة الاقتصادية الطاحنة، فقد امتلأت جيوب كثير من الوزراء والأمراء بأموال البلد الهائلة، وأصبحت ثروات بعضهم تساوي ميزانيات بعض الدول، لقد كانت ثروات بعضهم تكفي لسداد الديون المتراكمة على البلد، كما هو حادث الآن في مصر وغيرها من دول العالم العربي، فقد مهدت السياسات الفاسدة، وأنظمة الحكم الظالمة للقليل من الأشخاص السيطرة والاستيلاء على ثروات البلاد، ن طريق منحهم كل فرص الكسب خاصة الغير مشروع، مع عدم مراقبتهم أو محاسبتهم، وهو كرس لقيام ثورات الربيع العربي التي أطاحت برؤس عدة طغاة، وكانت ثروات بعضهم تكفي لسد حاجة الفقراء والمساكين، وتكفي لإصلاح الوضع الاقتصادي، ولكن هيهات

[١٠].

وللأسف الشديد فإن كثيراً من هذه الأموال قد دخلت جيوب الأمراء والوزراء بطرق غير مشروعة، وبغير وجه حق، فهذا يختلس، وهذا يرتشي، وهذا يظلم، وهذا يأخذ نسبة، وهذا يُنفق في سفه، وهذا يُعطي من لا يستحق، وهكذا بُددت أموال الدولة العظيمة مصر، وأصبحت مصر دولة فقيرة نامية بينما إمكانياتها تسمح لها بأن تكون من دول الصدارة. تلك كانت لعنة الحكم الفاسد في مصر في فترات ضعفها، وقد كانت هذه السياسة متعمدة من أنظمة حكمها في تلك الفترات. أما حينما كان يتوفر لمصر القيادة المخلصة، فقد كانت تقفز إلى الأمام وتتجاوز الأمم، وهو ما ننشده لها الآن بعد ثورتها المباركة في ٢٥ يناير ٢٠١١م.

بدأ التوعية العامة لعموم الشعب

بدأت عملية توعية وتوجيه للشعب، بقصد تنقية القلوب وإخلاص النوايا، لقد اصطلح القائد مع شعبه بعد سنوات من القطيعة بين الحاكم والشعب، فكانت النتيجة تجهيز جيش قوي، غايته نبيلة، وأمواله حلال، يدعو له الناس بالنصر، ويتحقق له إعداد جيد، وهكذا، جُهِّز الجيش المصري المسلم، بصورة تكفل له النصر بإذن الله.

لابد أن يُجهّز الشعب لهذا اللقاء الهام، لابد أن يَعيش الشعب حياة الجد والكفاح، ويترك حياة اللهو واللعب، لابد أن يُحب الشعب الجهاد، وتتضح في عينه الأهداف، ولابد أن يقوم بالحملة الإعلامية رجال مخلصون.

ولقد انطلق الشيخ العز بن عبد السلام ومن معه من علماء الأمة، يصعدون منابر المساجد، ويُلهبون مشاعر الناس بحديث الجهاد، وما أجمل حديث الجهاد، لقد رغّبوا الناس في الجنة، وزهّدوهم في الدنيا، وعظّموا لهم أجر الشهداء، ذكروهم بأيام الله، ببدر، والأحزاب، وفتح مكة، واليرموك، والقادسية، ونهاوند، ذكروهم بموقعة حطين الخالدة التي لم يمضِ عليها إلا خمسة وسبعون عاماً، كما ذكروهم بموقعتي

المنصورة وفارسكور والتي لم يمض عليهما سوى عشر سنين. اشتعل الحماس في قلوب الشعب [١١].

قطز يقترح الخروج لملاقاة العدو

وُضِعت الخطة والخريطة اللازمة لتحرك الجيش، بعد أن اجتمع قطز مع المجلس العسكري لبحث أفضل طريقة لحرب التتار، ولبحث سُبل توفير أفضل ظروف لتحقيق الانتصار، وقام قطز بإلقاء بيانه الذي يُوضح فيه رأيه في الخطة العسكرية، وبمجرد أن ألقى برأيه، قام المجلس ولم يَقعد، لقد أحدث رأي قطز دوياً هائلاً في المجلس العسكري، فقد كان رأي قطز أن يَخرج بجيشه لمقابلة جيش التتار، في فلسطين، ولا ينتظرهم في مصر حتى يأتوا إليه [١٢].

واعترض أغلب الأمراء، لقد أراد الأمراء أن يَبقى قطز في مصر ليدافع عنها، فمصر في رأي الأمراء، هي مملكته، أما فلسطين فهي مملكة أخرى، لقد نظر الأمراء إلى القضية نظرة قومية، بمعنى أنه لو لم يدخل التتار مصر نكون قد تجنبنا لقاءً دموياً هائلاً، أما إذا ذهبنا إليهم فلا خيار سوى الحرب، أما قطز فكانت نظرته مختلفة، فبدأ يناقش الأمراء ويَشرح لهم لماذا اختار الخروج للعدو، ولم ينتظر قدومه، وبين لهم أن أمن مصر القومي يبدأ من حدودها الشرقية وليس من داخل البلد نفسه، فلابد إذن من إضعاف الجيش المعادي الرابض على حدود البلاد، قبل أن يجتاح سيناء، ثم نجده على أبواب القاهرة.

وهنا تبدو لنا إستراتيجية جديدة اتبعها قطز في هذه المواجهة الحاسمة، ذلك أنه إذا كان حكام المسلمين، إبتداء من الدولة الخوارزمية حتى أرض فلسطين، قد التزموا مبدأ التحصن داخل مدنهم إنتظار لهجوم المغول عليهم، ومحاولة صده فقط فإن السلطان قطز أدرك عدم جدوى الأساليب الدفاعية، ورأى أن من الأفضل منازلة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية واختار لذلك النزال مكاناً مناسباً خارج دولته هو منطقة عين جالوت بأرض فلسطين، هذا المكان الذي يمتاز بقربه من

المناطق الساحلية التي كان يسيطر عليها الصليبيون، الذين أبدوا استعدادهم الكامل لتسهيل مرور القوات الإسلامية إليه. هذا بالإضافة إلى كون هذا الجزء من أرض فلسطين منطقة فسيحة ومكشوفة يعلوها جبل، تصلح للقاء المباشر، وتمركز الرماة [١٣].

كذلك رأي قطز أن الانتقال إلى إلى ميدان العدو، سوف يؤثر سلباً على نفوس أعدائه، كما أنه سيوفر له خط رجعة آمنًا إذا حدثت هزيمة للجيش المصري، أما إذا حدثت الهزيمة للجيش المصري المسلم في داخل مصر، فإن ذلك سيفتح الطريق أمام العدو إلى القاهرة.

كذلك بيَّن لهم قطز أن الخير أن يمتلك المسلمون عنصر المفاجأة، فيختارون هم ميعاد المعركة ومكانها بدلاً من أن يختار العدو ذلك، فهذا يوفر فرصة أفضل للنصر، حيث يكون استعداد الجيش المعادي غير مكتمل، علاوة على الهزيمة النفسية لجيش العدو الذي اعتاد أن يداهم الجميع ويسحقهم [١٤].

أيضاً كان من أهم أدلة قطز على ضرورة الخروج للقاء العدو، وعدم انتظار مهاجمته لمصر، أن ذلك يعطي انطباعاً وسيكون حقيقياً، أن المسلمين في مصر لم يقوموا بدورهم الهام ناحية إخوانهم المسلمين في فلسطين وفي سوريا وفي لبنان وفي العراق وفي أفغانستان وفي أذربيجان وفي الشيشان، وليس من طبع مصر أن تُقام المذابح للمسلمين في تلك البلاد، وتُنتهك الحرمات، وتُهدم الديار، ولا يتحرك المسلمون في مصر، إن حركة المسلمين في مصر لنجدة إخوانهم ليست فضلاً أو نافلة، إنما هي فرض عين، لقد دهم العدو فعلاً أرض فلسطين فتعيّن القتال على أهلها لدفعه، فإن لم يكفِ أهلها للقتال تعيّن القتال على من جاورهم من الأقطار الإسلامية، أي مصر والأقطار الأخرى المجاورة مثل سوريا والأردن ولبنان، فإن لم يكفِ أهل مصر والأقطار الأخرى تعيّن على الأقطار الأبعد، وهكذا، حتى لو احتاج القتال لكل مسلم على وجه الأرض.

كانت تلك الأسباب الدافع لقطز لأخذ جيشه. ونقل ميدان المعركة إلى فلسطين بدلاً من مصر. وعلى الجانب الآخر فلابد أن قطز كان يَعلم أنه كانت هناك بعض الفوائد لانتظار جيش التتار في مصر. فانتقال جيش التتار من فلسطين إلى مصر سيُطيل على التتار خطوط الإمداد والمواصلات. فينقطع التتار بذلك عن قواعدهم. كما أنه سيُرغم التتار على اجتياز الصحراء الواسعة في سيناء. وهي صحراء مهلكة للجيش الذي لا يَعرف مَسَالكها ودُروبها. كما أن انتظار التتار سيوفر على جيش مصر اجتياز صحراء سيناء. وهذا سيوفر كثيراً من طاقة الجيش [١٥].

ومع ذلك فقياس الفوائد المتحققة من نقل ميدان المعركة إلى فلسطين بالنسبة للفوائد المتحققة من انتظار التتار في مصر. يجعل القضية واضحة في ذهن قطز. ففوق الأسباب التي سبقت. والمؤيدة لانتقال الجيش المصري إلى فلسطين. كان يَعلم أن القوات التتارية قد أثبتت قبل ذلك كفاءة عالية في اجتياز الموانع الطبيعية المختلفة. وأنهم يُجندون الكثير من أبناء المسلمين الذين يبحثون عن الثراء السريع. أو الراغبين في السلطة. أو في الأمان. وهؤلاء سيدلونهم على أقصر الطرق إلى مصر. وأكثرها أمناً. ولذلك فعبور سيناء بالنسبة للجيش التتاري أمر متوقع. كما أن قطز كان يطمئن كثيراً إلى جيشه. ويثق في قدراته الحركية. وكفاءته التدريبية. ويَعلم أن انتقاله عبر سيناء إلى فلسطين أمر ممكن وميسور.

وهكذا رجحت كفة الانتقال إلى فلسطين. واقتنع الحضور في المجلس العسكري الأعلى الذي عقده قطز برأيه. وبدأ قطز في إعداد الجيش. وتجهيزه. والتجهيز المناسب لعبور سيناء وللقاء التتار.

قتل سُفراء هولاكو

كان أول إجراء قام به المظفر قطز ضد المغول. يوم الاثنين الخامس عشر من شعبان سنة ٦٥٨هـ/يوليو١٢٦٠م. عند خروجه بجميع عسكر مصر. ومن أنضم

إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم. من قلعة الجبل يريد الصالحية. هو إستدعاء رسل هولاكو واستقبالهم استقبالاً جافاً إيذاناً لإعلان الحرب عليهم. ومن ثم القَبض عليهم. وضَرب عنق كل منهم أمام باب من أبواب القاهرة. فضرب عُنق واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل. وضرب عُنق آخر بظاهر باب زويلة. وضرب عُنق الثالث بظاهر باب النصر. وضرب عُنق الرابع بالريدانية. وأمر بتعليق رؤوسهم على باب زويلة. وأبقى على صبي من الرسل وجَعله من مماليكه. وكانت تلك الرؤوس أول ما عُلق على باب زويلة من المغول [١٦].

ويَبدو أن قطز اعتبر الرُّسل محاربين وأنهم ليس لهم الحصانة الكافية لمنع قتلهم. حيث أن المغول قَتلوا النساء والأطفال والشيوخ غير المقاتلين. وبأعداد لا تُحصى في سمرقند وبخارى وبغداد وحلب ودمشق وغيرها من بلاد المسلمين. كما أن رُسل التتار أغلظوا القول وأساؤوا الأدب وتكبروا عليه. وكان الهدف من ضرب أعناق رُسل المغول وتعليق رؤوس على أبواب القاهرة. هو رَفع معنويات الناس وإعلان الحرب على التتار. وإعلامهم بأنهم قادمون على قوم يختلفون كثيراً عن الأقوام الذين قابلوهم من قبل. وهذا يؤثر سلباً على التتار فيُلقي في قلوبهم ولو شيئاً من الرعب أو التردد. ويَبقى الهدف الأكبر لقتل الرُّسل. وهو قطع التفكير في أي حلٍ سلمي للقضية. بل إنه بذلك وضع المماليك. وكبار القوم أما الأمر الواقع. ودفعهم دفعاً للاستعداد الكامل الجاد للجهاد. وبعد قتل رسل المغول لن يَقبل التتار باستسلام مصر. حتى لو قَبل بذلك المسلمون. كان هذا هو اجتهاد قطز والأمراء الذين وافقوه. على قتل رُسل المغول. ولكن هذا يخالف الأصل في الإسلام. حيث أن الرُّسل لا تُقتل. لا رُسل المسلمين. ولا رُسل الكفار. ولا حتى رسل المرتدين عن الإسلام [١٧].

حث الأمراء والجنود على القتال

طلب سيف الدين قطز من الأمراء الاجتماع العاجل. وحثهم على القتال وذكرهم بما وقع في أقاليم الإسلام. وقال لهم: يا مسلمين قد سمعتم ما جَرى من

أهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وما منكم أحد إلا وله مال وحريم وأولاد، وقد علمتم أن أيدي التتار تَحكمت في الشام، وقد أوهنوا قوى دين الإسلام، وقد لحقني على نصرة دين الإسلام الحمية، فيجب عليكم يا عباد الله القيام في جهاد أعداء الله حق القيام، يا قوم جاهدوا في الله بصدق النية تجارتكم رابحة، وأنا واحد منكم، وها أنا وأنتم بين يدي رب لا ينام ولا يفوته فائت، ولا يهرب منه هارب، فعند ذلك ضجت الأمراء بالبكاء وتحالفوا أنهم لا بقاء لهم في الدنيا إلى أن تنكشف هذه الغُمة، فعند ذلك جرَّد السلطان، الأمير ركن الدين بيبرس وصَحبته جماعة من العساكر وأرسله طليعة [١٨].

الجيش المصري يتوجه إلى فلسطين

بدأ الجيش المسلم يتجمع في معسكر الانطلاق، وكان هذا المعسكر في منطقة الصالحية بمحافظة الشرقية الآن، وهي منطقة صحراوية واسعة تستوعب الفرق العسكرية المختلفة، وكانت نُقطة انطلاق للجيوش المصرية المتجهة إلى الشرق، وتَجمَّعت الفرق العسكرية من معسكرات التدريب المنتشرة في القاهرة والمدن الكبرى، ثم أعطى قطز إشارة البدء والتحرك في اتجاه فلسطين.

واتجه الجيش المسلم من الصالحية إلى اتجاه الشمال الشرقي، حتى وصل إلى سيناء، ثم اتجه شمالاً أكثر ليسلك طريق الساحل الشمالي لسيناء بحذاء البحر الأبيض المتوسط.

كان هذا التحرّك في أوائل شهر شعبان سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، وهذا يوافق شهر يوليو من سنة ١٢٦٠م، أي أن هذا التحرك كان في أشد شهور السنة حرّاً، والسير في الصحراء القاحلة الطويلة في سيناء، وليس في الطريق مُدن آهلة، اللهم إلا العريش، ومع ذلك فقد صبر الجيش الجاهد، وهذه الموقعة تذكرنا غزوة تبوك وما صاحبها من صعوبات شديدة الشبه، فالمسلمون في تبوك فوق الحر وفوق الأزمة الاقتصادية، وفوق قطع المسافة الصحراوية الطويلة، كانوا يذهبون لقتال قوة

هائلة هي قوة الرومان. وهذه المرة كذلك يقطع المسلمون المسافة الطويلة في نفس الظروف. ليقابلوا جيشاً هائلاً هو جيش التتار. غير أن المسلمين في تبوك لم يجدوا الرومان في انتظارهم. فلم تتم المعركة. أما في موقفنا هذا فالتتار كانوا في الانتظار.

كان قطز يتحرك على تعبئة. وقد رتّب جيشه الترتيب الذي سيقاتل به لو فرض عليه قتال فجأة. وكان قد وضع على مقدمة جيشه ركن الدين بيبرس القائد العسكري الفذ. ليكون أول من يصطدم بالتتار. عساه أن يُحدث نصراً ولو جزئياً. مما سيرفع من معنويات المسلمين بالتأكيد. أيضاً لقد سلك قطز في ترتيب جيشه أمراً لم يكن معهوداً في هذا الزمان. فقد كوَّن مقدمة الجيش من فرقة كبيرة نسبياً على رأسها ركن الدين بيبرس. وجَعل هذه الفرقة تتقدم كثيراً عن بقية الجيش. وتُظهر نفسها في تحركاتها. بينما يتخفى بقية الجيش في تحركاته. وذلك على سبيل التجديد في القيادة والإعداد حتى يُربك خطط العدو. وإذا كان هناك جواسيس للتتر اعتقدوا أن مقدمة الجيش هي كل الجيش. فيكون استعداهم على هذا الأساس. ثم يَظهر بعد ذلك قطز ببقية الجيش. فيُحدث المفاجأة للتتار الذين لم يستعدوا لذلك العدد [١٩].

أول بشائر النصر في غزة

اجتاز ركن الدين بيبرس الحدود المصرية في ٢٦ يوليو سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. ودَخل حدود فلسطين المباركة. وتبعه قطز بعد ذلك في سيره. واجتازوا رفح وخان يونس ودير البلح واقتربوا جداً من غزة. وكان التتار قد احتلوا غزة. وحدث ما توقعه قطز. واكتشفت عيون التتار مقدمة الجيش الإسلامي بقيادة ركن الدين بيبرس. واعتقدت أن هذا هو جيش المسلمين كله. ونقلت الأخبار إلى حامية غزة التتارية. وأسرعت الحامية التتارية للقاء ركن الدين بيبرس. وتم فعلاً بينهما قتال سريع. هذا كله وجيش قطز الرئيسي ما زال يعبر الحدود الفلسطينية المصرية. ولكن كما ذكرنا كانت مقدمة الجيش المسلم قوية. وقائدها ركن الدين بيبرس قائدٌ بارع. والحامية

التتارية في غزة صغيرة نسبيًا. والجيش التتاري الرئيسي على مسافة كبيرة من غزة. فقد كان جيش التتار بقيادة كتبغا. يرابض في سهل البقاع في لبنان. على مسافة ثلاثمائة كيلومتر تقريباً من غزة. فتم اللقاء في غزة بمعزلٍ عن الجيوش الرئيسية للمسلمين والتتار. وبفضل اللهّ استطاعت مقدمة الجيش المسلم أن تنتصر في هذه الموقعة الصغيرة. وقُتل فيها بعض جنود الحامية التتارية. وفرّ الباقون في اتجاه الشمال لينقلوا الأخبار إلى كتبغا في لبنان [٢٠].

لقد فوجئت الحامية التتارية في غزة. وكانت المفاجأة سبباً لهزيمة قاسية لهم. وليست المفاجأة الوحيدة في وقعة غزة هي مفاجأة المباغتة. أو الخطة العسكرية أو الأبعاد الاستراتيجية في اتخاذ المَواقع المناسبة. أو غير ذلك من مفاجآت فنون الحرب. إنما المفاجأة الحقيقية للتتار كانت اكتشاف أن هناك طائفة من المسلمين ما زالت تُقاتل. وما زالت تَحمل السيوف. وما زالت تُدافع عن دينها وعن أرضها وعن شرفها وعن كرامتها. لقد ألف التتار أن يَجدوا جموع المسلمين يَفرون ويهربون. وألف زعماء التتار أن يَجدوا زعماء المسلمين يطلبون التحالف المخزي والركوع المذل. وما توقعوا أن تكون هناك طائفة مسلمة لا تزال قادرة على أن تُدافع عن حقها.

لقد كان هذا هو ظن التتار. وهو ظن ليس في محلّه حتماً. فإن هذه الأمة مهما ضعفت فإنها لا تموت. ومهما ركع منها رجال. فسيظلّ فيها آخرون يدافعون عنها ما بقيت الحياة. ومع أن الذين قاتلوا التتار في غزة. ثم بعد ذلك في عين جالوت لم يكونوا في المعظم من أهل بيت المقدس ولا فلسطين. إلا أن اللهّ سبحانه وتعالى قد جعل فلسطين موطناً لانتصارات المسلمين. نعم قد تَحدث هنّات وسقطات. لكن حتماً يكون هناك قيام. فَعَلى أرض فلسطين وما حولها من أرض الشام. فقد وُجِّهت ضربات إسلامية مُوجعة للإمبراطورية الرومانية في أجنادين وبيسان واليرموك وبيت المقدس. وعلى أرض فلسطين وما حولها وجِّهت ضربات إسلامية مُوجعة للصليبيين في حطين وطبرية وبيت المقدس [٢١].

وعلى أرض فلسطين وُجِّهت ضربات إسلامية موجعة للتتار في غزة ثم في عين جالوت، ثم في بيسان. وعلى أرض فلسطين وجِّهت ضربات إسلامية مُوجعة لبقايا الصليبيين بعد ذلك في عكا وعسقلان وحيفا. وعلى أرض فلسطين وجِّهت ضربات إسلامية موجعة للفرنسيين في عكا. وعلى أرض فلسطين كذلك وجِّهت ضربات إسلامية مُوجعة للإنجليز في الثورات المختلفة، وأشهرها ثورة ١٩٣٦م، والتي استمرت قرابة أربع سنوات. وعلى أرض فلسطين وُجِّهَت، وما زالت الضربات الموجعة تُوَجَّه منها لأعداء الإسلام.

نعود إلى بيبرس وإلى قطز وإلى الجيش المسلم، لقد انتصر المسلمون على التتار، ولو كان هذا الانتصار جزئياً أو مرحلياً أو بسيطاً.

بعض المؤرخين يُبَسّطون جداً من شان معركة غزة، حتى يتغافلها بعضهم تماماً، والحق أنها كانت من أهمّ المواقع الحربية في تاريخ المسلمين، ليس لكثرة قتلى التتار، ولا لأهمية غزّة الاستراتيجية ولا لغير ذلك، إنما في الأساس لأنها عالجت الهزيمة النفسية عند المسلمين [٢٢].

لقد رأى المسلمون بأعينهم أن التتار يفرّون، وسقطت المقولة التي انتشرت في تلك الآونة، التي كانت تقول: من قال لك أن التتار يُهزمون فلا تصدقه، كما سقطت مقولة: الجيش الذي لا يُقهر، فهذه أول مرة يهزم فيها التتار منذ سنين طويلة، كما كان لموقعة غزة أثر إيجابي هائل على جيش المسلمين، وكان لها أيضاً أثر سلبي هائل على جيش التتار.

التوجه إلى عين جالوت

اتجه الجيش المسلم بعد انتصار غزة إلى ناحية الشمال، وهم يسيرون بحذاء ساحل البحر الأبيض المتوسط ليمرّوا على المدن الإسلامية العظيمة الواحدة تلو الأخرى، فمرّوا على عسقلان ثم على يافا (المدينة الإسلامية الجميلة)، ومدينة تل أبيب قد أنشئت في شمال يافا مباشرة، ثم أكمل قطز والجيش المسلم طريقه في

اتجاه الشمال. فمرّ في غرب طولكرم، ثم وصل إلى مدينة حيفا. ثم اتجه شمالاً بعدها إلى عكا المدينة المسلمة المحتلة من قبل الصليبيين [٢٣].

وعسكر قطز في الحدائق المحيطة بحصن عكا في السهل الواقع في شرق عكا. ثم بدأت المراسلات بين قطز رحمه الله وأمراء عكا الصليبيين للتأكيد على الاتفاقيات السابقة. وأرسل قطز وفداً من الأمراء المسلمين. فدخلوا حصن عكا. وأحسن الأمراء الصليبيون استقبال المسلمين، وأكد الطرفان على ما سبق الاتفاق عليه. وتكررت الزيارات أكثر من مرة. واطمأن الطرفان على استقرار الوضع. ومن ثم عزم قطز على الرحيل من عكا. لاختيار مكان مناسب للّقاء الهام المرتقب بينه وبين التتار.

وعندما بدأ قطز في مغادرة منطقة عكا. أشار عليه أحد الأمراء الذين قاموا بالسفارة بينه وبين الأمراء الصليبيين، أن عكا الآن في أشد حالات ضعفها. وأنهم مطمئنون إلى المعاهدة الإسلامية. وغير جاهزين للقتال. فإذا انقلب عليهم قطز فجأة فقد يتمكن من إسقاط حصن عكا. وتحرر المدينة الإسلامية بعد مائة وست وستين سنة من الاحتلال. فرد عليه قطز: نحن لا نخون العهود.

فكان رده رسالة واضحة. تقول: هذا هو دين الإسلام. وهذا هو شرع الإسلام. وهذه هي قوانين الإسلام. وهؤلاء هم قادة الإسلام [٢٤]. وترك قطز عكا. واتجه إلى الجنوب الشرقي منها. ليبحث عن مكان يصلح للمعركة القادمة. في هذه الأثناء كان كتبغا قد وصلته فلول جيش التتار الفارة من غزّة. ينقلون إليه تحركات الجيش المسلم. فغضب كتبغا غضباً شديداً لهزيمة حاميته العسكرية في غزة. وغضب أكثر لأن هناك من المسلمين من يتجمع لقتاله. وكأنّ الأصل أن المسلمين ليس لهم حق المقاومة. فإن قاوموا عدوهم كان هذا داعياً لغضب كتبغا والتتار. وعقد كتبغا اجتماعاً استشارياً مع قادته. وحضر هذا الاجتماع الأشرف الأيوبي أمير حمص. واتخذ كتبغا قراره في هذا الاجتماع أن يتوجه بسرعة لحرب هؤلاء المتطرفين المسلمين.

الذين سيقوِّضون عملية السلام الدائرة بين كتبغا وبين الزعماء المسلمين، ويهددون المباحثات التتارية الإسلامية بالفشل.

وكان واضحًا أن حركة التتار في اتجاه المسلمين كانت بطيئة جداً، لأن قطز قَطع معظم الساحل الفلسطيني من أقصى جنوبه إلى أقصى شماله، دون أن يَدخل التتار حدود فلسطين أصلاً، مع أن المسافة بين سهل البقاع اللبناني حيث يعسكر جيش التتار والحدود اللبنانية الفلسطينية، لا تزيد عن مائة كيلومتر، وهي مسافة تقطعها الجيوش عادة في يومين أو ثلاثة، المهم أن قطز هو الذي بدأ التحرك للبحث عن المكان المناسب للمعركة، وبذلك يسجل نقطة هامة لصالحه، ويَستطيع أن يرتب جيوشه في وضع أفضل، ويختبر المنطقة، ويعلم طبيعتها وخباياها [٢٥].

وتحرك كتبغا في اتجاه الجنوب بين جبال لبنان حتى دخل فلسطين، من شمالها الشرقي غرب مرتفعات الجولان، ثم عَبر نهر الأردن، ووصل إلى الجليل الشرقي، واكتشفت الاستطلاعات الإسلامية المنتشرة في المنطقة تحركات كتبغا، ونقلت الأخبار بسرعة إلى قطز، الذي كان قد غادر عكا في اتجاه الجنوب الشرقي، فأسرع باجتياز مدينة الناصرة، وتعمق أكثر في الجنوب الشرقي، حتى وصل إلى منطقة تُعرف بسهل عين جالوت، وهي تقع في الوسط تقريباً بين مدينتي: بيسان في الشمال ونابلس في الجنوب، وهي بالقرب جداً من معسكر جنين الآن، وهي المنطقة التي ستدور فيها معركة من أهم المعارك في التاريخ، وسبحان الله فإن الأيام قد دارت وحدثت موقعة أخرى شريفة على أرض جنين بين المجاهدين الفلسطينيين وبين اليهود، وذلك في عام٢٠٠٢م، وزاد شهداء المسلمين فيها على خمسمائة بعد أن صبروا في قتالهم صبراً عجيباً.

ويقع سهل عين جالوت في منطقة مباركة، وأرض انتصارات، فهو يقع على مسافة ١٥ كيلومتر جنوب منطقة حطين، التي دارت فيها الموقعة الخالدة حطين في سنة ٥٨٣هـ بين صلاح الدين والصليبيين، قبل خمسة وسبعين سنة من وقعة عين جالوت، ويَقع كذلك على مسافة حوالي ستين كيلومتر إلى الغرب من منطقة

اليرموك، حيث دارت المعركة الخالدة بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما ضد الروم، ٦٣٦م، ١٥هـ. وقد ساهمت هذه الذكريات في رَفع الروح المعنوية للجيش الإسلامي إلى أقصى درجة.

وفي يوم ٢٤ رمضان من سنة ٦٥٨هـ، وهو اليوم السابق مباشرة لموقعة عين جالوت، وصل القائد المُلْهم، السلطان قطز إلى سهل عين جالوت، فوجدها منطقة مناسبة جداً للمعركة المرتقبة، فهو عبارة عن سهل واسع منبسط تحيط به التلال المتوسطة من كل جوانبه إلا الجانب الشمالي، فهو مفتوح، كما تعلو هذه التلال الأشجار والأحراش، مما يوفر مخبأً مناسباً جداً للجيش الإسلامي، فيسهل عمل الكمائن الكثيرة على جوانب السهل المنبسط [٢٦].

ورتّب قطز جيشه بسرعة، فوضع على ناحية السهل الشمالية مُقدمة جيشه، بقيادة ركن الدين بيبرس، وجَعلها في مكان ظاهر حتى يُغري جيش التتار بالقدوم إليها، بينما أخفي بقية الجيش خلف التلال والأحراش. وكان هذا الترتيب في ٢٤ رمضان من سنة ٦٥٨هـ في العشر الأواخر من شهر رمضان الكريم، وهو الشهر الذي حدثت فيه الانتصارات الإسلامية الخالدة قبل ذلك، مثل بدر وفتح مكة وفتح الأندلس، وانتظر المسلمون على تعبئة، وعيونهم الاستخبارية تنقل أخبار كتبغا وجيش التتار، وقد اقتربوا جداً من سهل عين جالوت.

وما بقيت إلا ساعات قليلة ويحدث الصدام المروع بين قوة أمة الإسلام وقوة التتار.

وبينما قطز في سهل عين جالوت، إذا بأعداد غفيرة من المتطوعين المسلمين من أهل فلسطين يَخرجون من القرى والمدن ليلتحقوا بالجيش المسلم، وقد تيقنوا أن حرباً حقيقية ستحدث قريبًا، أين كان هؤلاء المتطوعون يوم جاءت فرقة تترية بسيطة فاخترقت فلسطين من شمالها إلى جنوبها، حتى احتلت مدينة من أواخر المدن في فلسطين: مدينة غزة؟

كيف تحرك هؤلاء الآن إلى سهل عين جالوت؟ لماذا قعدوا قبل ذلك؟ ولماذا قاموا الآن؟ الإجابة في منتهى البساطة. إنها القدوة. "التربية بالقدوة". هذه كلمة ذكرناها كثيراً منذ أن تكلمنا عن قطز رحمه الله وعن جيشه الصادق [٢٧].

هناك الكثير ممن يُريد خدمة الدين ورفعة الإسلام. لكنهم لا يجدون قدوة صالحة يقلدونها. أو قائداً مخلصاً يتبعونه. لقد ألف هؤلاء البسطاء في فلسطين أن يروا قوادهم في الشام يعقدون الأحلاف المهينة مع التتار. ويفتحون لهم الحصون والديار. ويمدون لهم الجسور. ويمهدون لهم الطريق. لقد افتقد هؤلاء المسلمون البُسطاء القدوة الصالحة. فلم يَظهر الخير الكثير الذي بداخلهم. فلما جاء قطز ومن معه من المؤمنين الصادقين. وقطعوا هذا الطريق كله إلى أرض الموقعة. وهم يَتَقدمون في ثبات. ولم يَفعلوا مثلما فعل الناصر يوسف الأيوبي عندما فر بمجرد سماعه أن جيش التتار قد اقترب. لما رأوا كل ذلك تحمست قلوبهم. وخَرجت العواطف الكامنة في صدورهم. وتحركت فيهم الحمية لهذا الدين. فهانت عليهم التضحية. وهان عليهم الجهاد.

هم ليسوا كالجيش النظامي في قُدراته ومهاراته. لكنهم متحمسون ومتشوقون إلى العمل في سبيل الله. وإضافتهم لجيش المسلمين سيزيد من عددهم أمام عدوهم. وهذه ميزة هامة. حيث سيكون لهذا العدد الكبير الأثر النفسي الهام في قلوب جند التتار. وهذه حيلة عادة ما كانوا يستخدمونها. بإضافة الأسر المسلمين لجيوشهم لتكثير العدد. وهذه الحماسة لدي هؤلاء المتطوعون تَنفع كثيراً في ميادين القتال. كما أن قطز استخدمهم في سلاح الخدمات الخاص بالقوات الإسلامية. ووفر طاقة الجنود الذين كانوا سيقومون بهذه الأعمال. واستخدم هؤلاء الجنود في العمليات القتالية. بعد أن قام المتطوعون بدورهم.

وسلاح الخدمات هذا مهم جداً لكل الجيوش. وعمله يشمل نقل العتاد والمعدات. والاهتمام بشئون الطعام والشراب. وإمداد الجنود بالسهام والرماح. ورعاية الخيول. ونقل الجرحى ومداواتهم. وهذه أعمال كثيرة تستنفد جهداً ووقتاً. وهي وإن كان لا

يشترط فيها كفاءة قتالية، ولا مهارة عسكرية، إلا أن لها دور كبير في نجاح المعركة، وهكذا استفاد قطز من كل طاقات المتطوعين الفلسطينيين، وكل ميسر لما خلق له [٢٨].

وعلاوة على هؤلاء المتطوعين، اجتمع الكثير من الفلاحين من القرى المختلفة، ممن لا يستطيع قتالاً ولا خدمة، إما لكبر سن أو لعجز أو لمرض، واجتمع كذلك النساء والصبيان، واصطفوا بأعداد كبيرة على طرفي سهل عين جالوت، وقد علت أصواتهم بالتكبير والدعاء، وارتفعت صيحاتهم التشجيعية للقوات الإسلامية، وتحركت ألسنتهم وأيديهم وقلوبهم بالدعاء لرب العالمين أن ينصر الإسلام وأهله، ويُذل الشرك وأهله.

وجاء جيش كتبغا المغولي، وقد امتلأ بالصلف والغرور والكبر، تسبقه سُمعته العالية في سفك الدماء وتخريب الديار وإفناء البشر، وقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً، ومر الجيش غرب بيسان، وانحدر جنوباً في اتجاه عين جالوت، حيث كانت القوات الإسلامية قد أخذت مواقعها ورتّبت صفوفها، ووقفت في ثبات تنتظر الجيش التتاري.

موقعة عين جالوت

معلومات استخبارية مهمة

بينما انتظمت جيوش قطز، بعد أن رتّب كل من انضم إليه من العرب، وكذلك جيوش التتار، جاء رجل من أهل الشام وهو يُسرع المسير، ويَطلب أن يُقابل أمير القوات الإسلامية قطز ومن معه من بقية الأمراء، وقال إنه رسول جاء من قِبل صارم الدين أيبك.

وصارم الدين أيبك هذا هو أحد المسلمين الذين أسرهم هولاكو عند غزوه بلاد الشام، ولا يُعْلم أسار رغباً أم رهباً، ثم قَبل الخدمة في صفوف جيش التتار، واشترك معهم في مواقعهم المختلفة، وجاء معهم إلى موقعة عين جالوت، ولكن يبدو أنه قرر أن يخدم جيش المسلمين بقدر ما يستطيع، فكان قدومه كقدوم نعيم بن مسعود رضي الله، وهو الذي أوقع بين الأحزاب وبني قريظة أثناء غزوة الأحزاب، وليكون سبباً رئيسياً من أسباب نصر المسلمين [١].

لقد نقل هذا الرسول، القادم من طرف صارم الدين أيبك، إلى السلطان إلى قطز المعلومات التالية:

أولاً: جيش التتار ليس بقوته المعهودة، فقد أخذ هولاكو معه عدداً من القادة والجند، عند ذهابه إلى تبريز بفارس، فلم يعد الجيش على نفس الهيئة التي دخل بها إلى الشام، فلا تخافوهم، وكانت هذه معلومة في غاية الأهمية فعلاً، لأنها رفعت الروح المعنوية جداً عند من كان في قلبه خوف من التتار، بسبب حروب التتار السابقة، وكيف أنهم أهلكوا البلاد والعباد، فكانت هذه المعلومة الهامة شحنة

قوية أمدت الجيش الإسلامي بطاقة عالية.

ثانيا: ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم، فعلى جيش المسلمين أن يقوي جداً من ميسرته، والتي ستقابل ميمنة التتار.

ثالثاً: الأشرف الأيوبي أمير حمص سيكون في جيش التتار بفرقته، ومعه صارم الدين أيبك، ولكنهم سوف ينهزمون بين يدي المسلمين، أي أن الرسالة تقول أن الأشرف الأيوبي قد رَاجَع نفسه، وآثر أن يكون مع جيش قطز، ولكنه خرج مع جيش التتار مكيدة لهم، وتفكيكاً لصفهم، كانت هذه الأخبار في غاية الأهمية، وجاءت في وقت مناسب، ولكن الحكمة تقتضي ألا يعتمد المسلمون على هذه المعلومات بالطبع، لأنها قد تكون خُدعة من التتار أو من الأشرف الأيوبي، أو من صارم الدين أيبك، لذلك قرر الأمراء بعضهم مع بعض بخبرة عسكرية فائقة يأخذوا حذرهم، واستفادوا من هذه الأمور دون تفريط في إعداد، أو تهاون في الاحتياط والحذر، وبذلك انتهى يوم الرابع والعشرين من رمضان، وقَضى المسلمون الليل في القيام والابتهال والدعاء والرَّجاء [٢].

ليلة موقعة عين جالوت

لقد كانت هذه ليلة من أعظم ليالي السنة، لأنها في العشر الأواخر من رمضان، بل إنها كانت ليلة وترية، ومن المحتمل أن تكون ليلة القدر، علاوة على أنها كانت كذلك ليلة من أعظم ليالي المسلمين، لأنها الليلة التي تسبق يوم الجهاد، وفي صبحها سيكون لقاء عظيم يثأر فيه المسلمون لدماء الملايين من المسلمين، التي سُفكت على أيدي هؤلاء التتار الهمج، أما قطز فقد قضى تلك الليلة في محرابه، يدعو الله عز وجل أن يُنزل نصره على أوليائه الأعداء، وأن يُثبت أقدام المجاهدين، لقد كانت ليلة طال انتظارها، وحان وقت صلاة الفجر، فصلاه المسلمون الفجر في خشوع، ثم رتَّبوا صفوفهم واستعدوا، وما هي إلا لحظات وأشرقت شمس يوم الجمعة، الخامس والعشرون من رمضان سنة ٦٥٨هـ، فرأى المسلمون جيش التتار من

بعيد.

أتى الجيش التتاري المهول من اتجاه الشمال، وبدأ في الاقتراب من سهل عين جالوت، وعلى أبواب السهل وقف في عدده الرهيب وعدته القوية، ولم يكن بالسهل أحد من المسلمين، فقد كانوا يقفون جميعاً خلف التلال، عدى مقدمة جيش المسلمين بقيادة ركن الدين بيبرس، فقد كانت لا تُخفي نفسها، وذلك حتى يعتقد جواسيس التتار أن هذه المقدمة هي كل الجيش، ومع ذلك فعند قدوم جيش التتار كانت هذه المقدمة مختفية هي الأخرى، ثم أشار لها قطز أن تنزل من فوق التلال للوقوف على باب السهل لقتال الجيش التتاري [٣].

وبدأت القوات الإسلامية تنساب من فوق التل إلى داخل سهل عين جالوت، ثم تتجه إلى شمال السهل للاقتراب من جيش التتار، ولم تنزل مقدمة الجيش دفعة واحدة، إنما نزلت على مراحل، وفي صورة عجيبة.

يقول صارم الدين أيبك:

فلما طلعت الشمس ظهرت عساكر الإسلام، وكان أول سنجق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة، موقف في غاية الروعة، إذن فقد نزلت الكتيبة الإسلامية الأولى، وهي تلبس ملابس أنيقة أحمر في أبيض، للفرقة كلها زيٌّ واحدٌ موحد، وكانوا يَلبسون الدروع والسيوف والرماح، وهي عدة الحرب، وكانت الخيول في هيئة جميلة، وها هم الجنود الإسلاميون ينزلون إلى ساحة المعركة في غاية الأناقة والبهاء، وكأنهم في عرض عسكري مهيب، وعليهم جلال، ويُقِعون في قلب من يراهم الرهبة، وبالفعل . لقد بُهت كتبغا، وبُهت من معه من التتار، وهذه كانت الكتيبة الأولى [٤].

يقول صارم الدين أيبك:

هذه أول مرة يَرى فيها كتبغا جيش المسلمين على هذه الصورة، لقد كان معتاداً أن يراهم وراء الحصون والقلاع يرجفون في رعب، أو يَراهم يتسارعون في الهروب فزعاً

من جيش التتار، أو يراهم يُسلمون رقابهم للذبح بيد التتار، كان كتبغا معتاداً على رؤية المسلمين في صورة مهينة، أما أن يراهم في هيئة مهيبة عزيزة، فهذا ما لم يحسب له حساباً أبداً، وما كان يظن أن يحدث بعد هذا العمر الطويل من المذلة تحت سيوف التتار.

كانت فِرق المماليك تتميز عن بعضها البعض، بلون خاص بها، فهذه الفرقة مثلاً لونها الأحمر في الأبيض، فكانت تلبس الأحمر والأبيض، ولها رايات بنفس اللون، وتَضع على خيولها وجمالها وأسلحتها نفس الألوان، وتَضع على خيامها نفس الألوان، وكذلك على بيوتها في مصر، وعلى مخازنها وغير ذلك، فكانت هذه بمثابة الشارة التي تميز هذه الفرقة أو الكتيبة.

ولعل هذا الفعل أوحى إلى القائد المغولي أن هؤلاء الذين جاؤا بالألوان والزخارف، ما هم بالذين يخافون الموت، ولا هم ممن يمكن أن يفر، لذل وجه القائد كتبغا سؤاله في فزع، إلى الأمير المسلم صارم الدين أيبك، الذي انضم إليه: يا صارم، رُنك من هذا؟ ورنك، كلمة فارسية تعني: لون، أي كتيبة من هذه؟ إنها كتيبة مرعبة.

فقال صارم الدين أيبك:

رنك سنقر الرومي، أحد أمراء المماليك.

ومهما كانت عظمة الكتيبة المسلمة وبهاؤها فلم يكن رعب القائد التتاري السفاح، زعيم هذا الجيش التتاري المهول من هذه الكتيبة الصغيرة جداً، بالنسبة لجيشه الجرار، إلا أن نطبق عليهم، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: نُصِرت بالرعب مسيرة شهر، وهذا الرعب يُقذف الله في قلوب الأعداء، عندما يأخذ المسلمون بالأسباب، وقد أخذ قطز فعلاً بالأسباب الظاهرية قدر استطاعته، فَحُسن الإعداد، وجمال الصورة، ودقة التنظيم، وبراعة الترتيب، كل هذه أمور جَعلت رعب التتار أمراً متحققاً، بالإضافة إلى أن الرعب جندي من جنود الله عز وجل [٥].

قائد الجيش المغولي يُراقب المسلمين

كان القائد المغولي كتبغا يُراقب نزول الكتائب الإسلامية من فوق التلال. فبعد نزول الكتيبة الأولى: كتيبة سنقر الرومي. نزلت كتيبة أخرى تلبس الملابس الصفراء. عليها من البهاء والجمال ما لا يوصف. تزلزل كتبغا وقال لصارم: هذا رنك من؟ قال صارم: هذا رنك بلبان الرشيدي. أحد أمراء المماليك.

ثم تتابعت الكتائب الإسلامية. بألوانها الرائعة المختلفة. وكلما نزلت كتيبة سأل كتبغا: رنك من هذا؟

يقول القائدصارم:

عندما تعددت إسئلة كتبغا يوم المعركة. صرت أقول له أي شيء أجده على لساني. أي أنه بدأ يقول أسماء مخترعة لا أصل لها. لأنه لا يَعرف على التعيين هذه الكتائب. وكيف له ذلك أصلاً. ولكنه كان يُريد أن يُدخل الرعب على كتبغا بكثرة الفرق الإسلامية.

أما هذه الفرق فكانت مقدمة جيش المسلمين فقط. وهي أقل بكثير من جيش التتار بالطبع. القوات الرئيسية فقد احتفظ بها قطز خلف التلال. وقد قرر ألا تشترك في المعركة إلا بعد أن تُنهَك قوات التتار. وبعد أن نزلت مقدمة المسلمين بقيادة ركن الدين بيبرس. بدأت فرقة الموسيقى العسكرية الإسلامية المملوكية تظهر على الساحة. وانطلقت في قوة تدق طبولها وتنفخ في أبواقها وتضرب صنوجها النحاسية. لقد كانت الجيوش المملوكية تتلقى الأوامر عن طريق هذه الدقات التي لا يَعرفها الأعداء. فكانت هناك ضربات معينة للميمنة. وضربات معينة للميسرة. وضربات معينة للقلب. وكانت هناك ضربات للتقدم وضربات للانسحاب. وكانت هناك ضربات خاصة لكل خطة عسكرية. وبذلك يستطيع القائد قطز رحمه الله أن يقود المعركة عن بعد. وعلى مساحة شاسعة من الأرض من خلال دقات هذه الآلات الضخمة. هذا فوق الرهبة التي كانت تقع في قلوب

الأعداء من جراء سماع هذه الأصوات المزلزلة. بينما كانت هذه الدقات تثبت المسلمين، وتشعرهم بمعية القائد لهم في كل تحرك من تحركاتهم [٦].

كتبغا يُهاجم مقدمة جيش المسلمين

وقف الأمير ركن الدين بيبرس قائد المقدمة بقواته، على المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، بينما تَرك السهل بكامله خالياً من خلفه، واقتربت جداً ساعة الصفر، ونظر كتبغا إلى مقدمة القوات الإسلامية، وهو لا يعلم عن القوات الرئيسية المختبئة خلف التلال شيئاً. فوجد أن قوات المقدمة الظاهرة أمامه قليلة جداً بالنسبة لقواته، بغض النظر عن تلك الهيئة الحسنة والمنظر المهيب، فأراد أن يحسم المعركة لصالحه من أول لحظاتها، فقرر أن يَدخل بكامل جيشه وقواته لحرب مقدمة المسلمين، وهذا تماماً ما كان يُريده الملك المظفر قطز.

وأعطى كتبغا إشارة البدء لقواته، فاندفعت جموع التتار، وهي تصيح صيحاتها جبارة على مقدمة جيش المسلمين، أعداد فوق الحصر من الفرسان المغول، يندفعون ناحية القوات الإسلامية، أما القائد المحنك ركن الدين بيبرس، فقد كان يقف في رباطة جأش عجيبة، ومعه الأبطال المسلمون يقفون في ثبات، وقد ألقى الله عز وجل عليهم سكينة والطمئنينة، وكأنهم لا يرون جحافل التتار، حتى إذا اقتربت جموع التتار أعطى بيبرس إشارة البدء لرجاله، فانطلقوا في شجاعة نادرة في اتجاه جيش التتار، فارتطم الجيشان ارتطاماً مروعاً، مع أن القوة العددية للمسلمين لا تذكر بجانب تعداد المغول، وارتفعت سحب الغبار في ساحة المعركة، وتعالت أصوات دقات الطبول، وأصوات الآلات المملوكية، وعلت صيحات التكبير من الفلاحين الواقفين على جنبات السهل، وامتزجت قوات المسلمين بقوات التتار، وسُرعان ما تناثرت الأشلاء، وسالت الدماء، وعلا صليل السيوف على أصوات الجند، واحتدمت المعركة في لحظات، ورأى الجميع من الهول ما لم يروه في حياتهم قبل ذلك [٧].

كانت هذه الفرقة المملوكية من أفضل فرق المسلمين، وقد أحسن قطز اختيارها لتكون قادرة على تحمل الصدمة التتارية الأولى، والذي يحرز النصر في بداية المعركة، يستطيع غالبًا أن يحافظ عليه إلى النهاية، ليس فقط للتفوق العسكري ولكن أيضاً للتفوق المعنوي، وكان كثير من أمراء هذه المقدمة بما فيهم ركن الدين بيبرس، من أولئك الذين شاركوا في موقعتي المنصورة وفارسكور، ضد الحملة الفرنسية الأوروبيا السابقة، بقيادة لويس التاسع، وذلك منذ عشر سنوات في سنة ٦٤٨ هجرية، وبذلك يكون هؤلاء الأمراء من أصحاب الخبرة العسكرية الفائقة، ومن أعلم القادة بطرق المناورة وأساليب القتال وخطط الحرب.

القوات الإسلامية تنفذ الخطة بإحكام

ثبتت القوات الإسلامية ثباتاً رائعاً مع قلة عددها، مما دفع كتبغا إلى استخدام كل طاقته دون أن يترك أي قوات للاحتياط خلف الجيش التتاري، هذا كله وقطز يرقب الموقف عن بعد، ويَصبر نفسه وجنده عن النزول لساحة المعركة، حتى تأتي اللحظة المناسبة، ومرت الدقائق والساعات كأنها الأيام والشهور، ومع الفجوة الهائلة في العدد بين الفريقين إلا أن اللقاء كان سجالاً حتى هذه اللحظات، وكان هذا هو الجزء الأول من الخطة الإسلامية: استنزاف القوات التتارية في حرب متعبة، والتأثير على نفسياتهم عند مشاهدة ثبات المسلمين وقوة بأسهم، ثم جاء وقت تنفيذ الجزء الثاني من الخطة الإسلامية، ودقت الطبول دقات معينة لتصل بالأوامر من قطز إلى بيبرس ليبدأ في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة، وهو عبارة عن محاولة سحب جيش التتار إلى داخل سهل عين جالوت، وحبذا لو سُحب الجيش بكامله، بحيث تدخل قوات التتار في الكمائن الإسلامية تمهيداً لحصارها [٨].

وبدأ بيبرس في تنفيذ هذا الجزء من الخطة على صعوبته، فكان عليه أن يُظهر الانهزام أمام التتار، ويتراجع بِظهره وهو يُقاتل، على ألا يكون هذا التراجع سريعاً جداً حتى لا يلفت أنظار التتار إلى الخطة، ولا بطيئاً جداً فتهلك القوة الإسلامية

القليلة أثناء التراجع. وبالفعل بدأ في انسحابٍ تدريجيٍ مدروسٍ، وكلما رجع خطوة تقدم جيش التتار في مكانه. وهذا الميزان في الانسحاب يحتاج إلى قدرة قيادية فائقة. اتقنها الجيش المسلم بقيادة بيبرس. وكانت تحتاج إلى رجال أشداء مهرة في القتال. فكانوا هم تلك الرجال.

وهذه هي نفس خطة جيش المسلمين في موقعة نهاوند الشهيرة ضد القوات الفارسية وذلك في سنة١٩ من الهجرة. وكان يقوم بدور ركن الدين بيبرس. القائد الإسلامي الفذ الصحابي: القعقاع بن عمرو التميمي رضي اللّه عنه. وكان يقوم بدور قطز رحمه اللّه الصحابي الجليل والفارس العظيم: النعمان بن مقرّن رضي اللّه عنه. وقام ساعتها القعقاع بن عمرو التميمي بسحب قوات الفرس الرهيبة في الكمين الإسلامي الذي قضى على قوات الفرس تماماً في نهاوند. وهنا في عين جالوت يستفيد قطز من تجارب المسلمين السابقة. ويطبق خطة نهاوند بحذافيرها.

قائد المغول ينجرف في الخُدعة

وتحمس كتبغا ومن معه على الهجوم للضغط على المسلمين. وبدءوا يندفعون في السهل. وهم يَضغطون على المسلمين. ومر الوقت ببطء على الطرفين. ولكن في النهاية دَخل جيش التتار بكامله إلى داخل سهل عين جالوت. وانسحب ركن الدين بيبرس بمقدمة الجيش إلى الناحية الجنوبية من سهل عين جالوت. وبينما حماسة كتبغا تأخذه للقضاء على جيش المسلمين. لم يتنبه إلى ترك أياً من قواته الاحتياطية خارج السهل. لتأمينه لو كان هناك خديعة. بل أخذ معه كل جنوده. إنهُ خطأٌ عسكري قاتلٌ. ولكنه وارد عندما يُريد اللّه بنفاذ أمره [٩].

ومع أن كتبغا من القادة العسكريين البارعين. ذوي الخبرة الطويلة جداً في مجال الحروب. فهو قد جاوز الستين من عمره. ولعله جاوز السبعين. فقد عاصر جنكيزخان. الذي مات قبل هذه الموقعة بأربعة وثلاثين سنة. وقد قَضى كتبغا كل هذه السنوات في حروب وقيادة. ولكننا لا يَجب أن نغفل شيئاً مهماً. وهو أن الجيوش

التتارية عموماً لم تلقى خلال حروبها، من يقف في وجهها بما ينبهها لضرورة وضع احتمال الهزيمة في حسبانها، لقد كان من المفروض علـى كتبغا كقائد مُحنك أن يَترك قوات احتياطية خارج السهل لتؤمن طريق العودة في حال الخسارة، ولتمنع التفاف الجيش الإسلامي حول التتار، ولتراقب أي تحركات مريبة لجيوش أخرى قد تأتي لمساعدة الجيش الإسلامي، لكنه غفل عن كل ذلك. إنه تدبير اللّه سبحانه وتعالى [١٠].

وهكذا دفع كتبغا جيشه دفعاً للدخول بكامله في سهل عين جالوت، وبذلك نجح الجزء الثاني من الخطة الإسلامية نجاحاً مبهراً، وبدأ تنفيذ الجزء الثالث من الخطة، وجاءت إشارة البدء من قطز عن طريق الطبول والأبواق.

كتبغا يسقط في حبائل قطز

نزلت الكتائب الإسلامية العظيمة من خلف التلال إلى ساحة المعركة، تدفقت جنوده من كل جانب، وأسرعت فرقة قوية لِتُغلق المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، وبذلك في دقائق معدودات أحاطت القوات الإسلامية بالتتار إحاطة السِّوار بالمعصم، الخطة تسير في منتهى الإحكام والدقة، ومع روعة هذه الخطة، إلا إنها كانت تحمل في طياتها خطورة جسيمة على الجيش الإسلامي نفسه، وذلك أن حصار التتار دون ترك فرصة للهرب لهم سيَدفعهم لبذل كل طاقاتهم، سيكونُ قتالَ المستميت، المحصور الذي لا مفر له، وليس قتال الهزيمة أو النصر، وعلى نفس الجانب، في حال نجاحها فسوف تؤدي لمقتل عدد ضخم من الجيش التتاري، فتكون الضربة القاصمة لهذا الجيش المغولي الرهيب [١١].

واكتشف كتبغا الخطة الإسلامية، وكان لابد أن يكتشفها، ولكن بعد فوات الأوان، فقد حُصرَ هو وجنوده في داخل سهل عين جالوت، وبدأ الصراع المرير في واحدةٍ من أشد المعارك التي وقَعت في التاريخ، لا مَجال للهرب، ولا مَجال للمناورات، السهل منبسط والمساحات مكشوفة، وليس هناك من حماية إلا خلف السيوف

والدروع، لا بديل عن القتال حتى الموت. حرب ضارية بشعة، أخرج التتار فيها كل إمكانياتهم، وبدءوا يقاتلون بحمية بالغة، والمسلمون صابرون ثابتون [١٢].

وظهر تفوق الميمنة التتارية، كما أخبر بذلك رسول صارم الدين أيبك، وبدأت الميمنة التتارية تَضغط على الجناح الأيسر للقوات الإسلامية، وبدأت القوات الإسلامية تتراجع تحت الضغط الرهيب للتتار، وبدأ التتار يخترقون الميسرة الإسلامية، وبدأ الشُّهداء يسقطون، ولو أكمل التتار اختراقهم للميسرة فسيلتفون حول الجيش الإسلامي، وتتعادل بذلك الكفتان، وقد تَرجح كفة التتار، ويُصبح إغلاق السهل خطراً على المسلمين [١٣].

القتال يحتدم، والموقف يتأزم

كان قطز يقف في مكانٍ عالٍ خَلف الصفوف، يُراقب الموقف بكامله، ويوجه فِرَق الجيش إلى سد الثغرات، ويُخطط لكل كبيرة وصغيرة، وشاهد المعاناة التي تعيشها ميسرة المسلمين، فدفع إليها بقواتٍ احتياطية، ولكن الضغط التتاري استمر، وبدأ بعض المسلمين يشعر بصعوبة الموقف، ولعل بعضهم قد شك في النصر، ولابد أن نتذكر تلك السُّمعة المُرعبة لجيش التتار الذي قيل عنه إنه لا يُهزم، وقطز يُشاهد ذلك، ويَدفع بالقوات الإضافية إلى الميسرة، ولكن الموقف تأزم جداً، ولم يَجد قطز إلا حلاً واحداً لا بديل له، أن ينزل بنفسه رحمه اللّه إلى ساحة القتال، لابد أن يُثبّت جنوده بالطريقة التي اعتادها معهم، طريقة القدوة، لا بد أن يَرى الجُند قائدهم الأعظم يُقاتل أمامهم بسيفه، وفعلها قطز فعلاً [١٤].

السلطان يخوض الحرب بصيحة: واإسلاماه

لقد ألقى السلطان قطز بخوذته على الأرض، تعبيراً عن اشتياقه للشهادة، وعدم خوفه من الموت، وأطلق صيحته الشهيرة التي قلبت الموازين في أرض المعركة، لقد صرخ قطز رحمه اللّه بأعلى صوته: واإسلاماه، واإسلاماه!! وألقى بنفسه رحمه اللّه

وسط الأمواج المتلاطمة من البشر، وفوجئ الجنود بوجود القائد الملك المظفر قطز في وسطهم، يُعاني *ما* يعانون، ويَشعر بما يشعرون، ويُقاتل كما يقاتلون.

كان نزوله أعظم تأييد، وأشد تثبيت وسكينة واطمئنان، على نفوس الرجال من أي شيء آخر، السلطان لا يدفع برجاله إلى الموت، ويتقيه هو، بل هو معهم يلقى ما يلقون، لقد كان الوقت وقت عمل فقط، فلم يتأخر القائد، ونزل يخوض الغمار.

والتهب حماس الجنود، وهانت عليهم جيوش التتار، وحملوا أرواحهم على أكفِّهم، وانطلقوا في جسارة نادرة يصدون الهجمة التتارية البشعة، إنها ليست هجمة على ذواتهم، إنها هجمة على الإسلام، واشتعل القتال في سهل عين جالوت، وعلا صوت تكبير الفلاحين على كل شيء، ولجأ المسلمون بصدق إلى ربهم في هذا اليوم المجيد من شهر رمضان، وقاتل قطز رحمه اللّه قتالاً عجيباً، لقد كان يوماً مجيداً من أيام الإسلام بكل المقاييس، وكانت موقعة تقاس بأعظم المواقع الحربية الإسلامية منذ العهد النبوي [١٥].

محاولة قتل فاشلة للسلطان قطز

بينما القتال على قدمٍ وساق، وقطز يصول ويجول في مقدمة رجاله، صوب أحد التتار سهمه نحو قطز فأخطأه، ولكنه أصاب الفرس الذي كان يركب عليه قطز فقُتل الفرسُ من ساعته، فترجل قطز على الأرض، وقاتل ماشياً لا خيل له، وما تردد، وما نكص على عقبيه، وما حرص على حياته، ورآه أحد الأُمراء وهو يُقاتل ماشياً، فجاءَ إليه مُسرعاً، وتنازل له عن فرسه، إلا أن قطز امتنع، وقال: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك، وظل يُقاتل ماشياً إلى أن أتوه بفرس من الخيول الاحتياطية.

وقد لامه بعض الأمراء على هذا الموقف وقالوا له: لِمَا لمْ تركب فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك، وهلك الإسلام بسببك، فقال قطز في يقين رائع: أما أنا كنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يُضيِّعه، وقد قُتل فلان وفلان وفلان، حتى عد خلقاً من الملوك مثل عمر وعثمان وعلي رضي اللّه عنهم، فأقام اللّه للإسلام من

يحفظه غيرهم، ولم يُضع الإسلام. وهذا يدل على ثقة الرجل بنفسه، وبالله، وبرجاله، ولكن الموقف كتقييم قتالي استراتيجي هو خطأ جسيم، هلكت بسببه جويشاً، واحتُلت بسببه بلاد وبادت، وفي مثل هذه الظروف لا تصلح المغامرة من القائد العام، ولكن الله سلم.

ونتيجة مثل هذه المواقف من أمرائها، أدت القوات الإسلامية أداءً راقياً جداً في القتال، وأخرجت كل إمكانيتها، ولم تكن قضيتها قضية موت أو حياة كالتتار، بل كانت إما نصر أو شهادة.

وبدأت الكفة المسلمين بفضل الله تَرجح، وارتد الضغط على جيش التتار، أطبق المسلمون الدائرة تدريجيًّا على التتار، وكان يوماً على الكافرين عسيراً، كما قال الله، فالموت(أو القبر) أو منازل الآخرة، وها هم يلقونه بعد مذلة.

مقتل كتبغا أرطبون المغول

تقدم أمير من أمراء المماليك المهرة في القتال، وهو جمال الدين آقوش الشمس، وهو من مماليك الناصر يوسف الأيوبي، وقد ترك الناصر لما رأى تخاذله وانضم إلى جيش قطز، وأبلى بلاءً حسناً في القتال، واخترق الصفوف التتارية في حملة صادقة موفَّقة حتى وصل في اختراقه إلى كتبغا، قائد التتار، لقد ساقه الله إليه، ورفع البطل المسلم سيفه، وأهوى بكل قوته على رقبة الطاغية المتكبر كتبغا، وطارت الرأس المتكبرة في أرض القتال، وسقط زعيم التتار، وبسقوطه سقطت كل عزيمة عند جيش التتار [١٦].

وتغير سيناريو القتال عند التتار، فما أصبح لهم من هَمّ إلا أن يفتحوا لأنفسهم طريقاً في المدخل الشمالي لسهل عين جالوت ليتمكنوا من الهرب، وانطلق المسلمون خلف التتار، يقتلون ويَأسرون، وسقطت جحافل التتار تحت أقدام المسلمين صرعى، ضاعت السمعة، وسقطت الهيبة، ومُزّق الجيش الرهيب.

استمر التتار في انهزامهم، حتى وصلوا بيسان، حوالي عشرين كيلومتر إلى الشمال الشرقي من عين جالوت، وهناك تجدد القتال، فقد وجد التتار أن المسلمين جادون في طلبهم، فلم يجدوا إلا أن يصطفوا من جديد، وركز التتار جهدهم على فتح ثغرة في مدخل سهل عين جالوت الشمالي، تحققت لهم بعد لأي شديد، وتدور موقعة أخرى عند بيسان أجمع المؤرخون على أنها أصعب من الأولى، وقاتل التتار قتالاً رهيباً، ودافعوا عن حياتهم بكل قوة، وبدءوا يضغطون على المسلمين، وكادوا أن يقلبوا الأمور لمصلحتهم، وابتلي المؤمنون، وزُلزلوا زلزالاً شديداً، وكانت هذه اللحظات من أحرج اللحظات في حياة القوات الإسلامية، ورأى السلطان قطز كل ذلك، فهو لم يكن قريباً من الأحداث، بل كان في قلبها، فانطلق يحفز الناس، ويدعوهم للثبات،فانهزمت جند التتار، وانطلقوا في سرعة عجيبة يولون الأدبار، في اتجاه الشمال لعل هناك مهربًا، وجيوش المسلمين تلاحقهم، لا يتركونهم، فليس الغرض هو الانتصار في موقعة ما، إنما الغرض تحرير البلاد بكاملها.

قطز يسأل الله النصر

أحس القائد برجاله، لقد كادت الحرب أن تُنهكهم، أمامهم عدو جبار عنيد، لم يكن أمامه غير طلب المدد من الله، فكان دعوه: يا الله، انصر عبدك قطز على التتار، وظل يدعو، وجاء المدد من الله، إذ تستغيثون ربك فاستجاب لكم، ما هي إلا فترة قصيرة، وبدأ الخلل يدب في صفوف التتار، وبدأت راية المسلمين تخفق فوق الرؤس، وصاح السلطان: وا إسلاماه، ورددها خلفة المسلمون، فكانت العصفة، وجاء النصر وراحت السيوف المسلمة تحصد رقاب التتار، الذين تغطت الأرض بجثثهم، وجاءت اللحظة التي ينتظرها المسلمون منذ أربعين سنة أو تزيد، لقد أُبيد جيش التتار بكامله، لم يبق على قيد الحياة من الجيش أحد بالمرة، لقد فني الجيش الذي اجتاح نصف الأرضية، وساعتها سجد قطز لله الذي وهبهم النصر [١٧].

قطز يستكمل مسيرة التحرير

بعد الانتصار الرائع في عين جالوت، لم تنته مهمة الملك المظفر بعد، فما يزال هناك تتار في بلاد الشام، وفي دمشق وحمص وحلب وغيرها من المدن الشامية، وما زال هناك تتار في العراق وتركيا وفارس وغيرها، وليس في حياة قطز راحة، مع كثرة الشهداء وكثرة الجراح والآلام، ومع الإرهاق الشديد الذي يُعاني منه الجيش، الذي عَبر صحراء سيناء بكاملها في شهر يوليو، والذي حارب في غزة، ثم اجتاز فلسطين كلها من جنوبها إلى شمالها حتى وصل إلى عكا، والذي عاد بعد ذلك إلى عين جالوت، والذي خاض المعركة الهائلة مع أقوى جيوش الأرض، مع كل هذه المعاناة، إلا أن الخطوة التالية مباشرة لقطز بعد انتصار عين جالوت، أن يتجه إلى دمشق في الشمال، ودمشق هي أولى المحطات الإسلامية التي تقع تحت سيطرة التتار، وهي تقع على مسافة مائة وخمسين كيلومترًا تقريباً من عين جالوت إلى الشمال الشرقي منها [١٨].

وأراد قطز أن يَنقل خبر النصر العظيم إلى أهل دمشق، فيرفع بذلك من معنويات المسلمين، ويضع من معنويات الحامية التتارية في دمشق، فيُسهل عليه بذلك فتح تلك المدينة العظيمة، وبالفعل أرسل رسالة عظيمة تحمل بشريات النصر المجيد، وكان مما جاء في هذه الرسالة:

أما النصر الذي شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتار خذلهم الله تعالى، ولاحظ أنه ينسب النصر إلى الله، استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام، وهذه عساكر الإسلام مستوطنة في مواطنها، ما تزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخة، ولا ثبتت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن، ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل، وصار اليوم كأمس ونُسخت

آية الليل بسورة الشمس، إلى أن تراءت العين بالعين. وأضطرمت نار الحرب بين الفريقين. فلم تر إلا ضرباً يجعل البرق نضواً. ويترك في بطن كل من المشركين شلواً. وقُتل من المشركين كل جبار عنيد. ذلك بما قدمت أيديهم. وما ربك بظلام للعبيد [١٩].

وصل كتاب المظفر قطز إلى أهل دمشق يحمل البشارة. ووصل الكتاب في يوم ٢٧ أو ٢٨ رمضان سنة ٦٥٨هـ.. واستقبل المسلمون الخبر بفرح لا يوصف. فقد يئس الكثير من إمكانية هزيمة التتار. فلما سمعوا بأخبار الانتصار المبهر ارتفعت هممهم إلى السماء. ورأوا عمالقة التتار أقزاماً. وقام الشعب في دمشق بثورة عارمة على جيش المغول. وأمسكوا بجنود التتار وفتكوا بهم. لقد سقطت هيبة التتار. وتنفس المسلمون الصعداء بعد قهر وبطش استمر أكثر من ستة شهور.

وانتهى المسلمون من أمر الحامية التتارية بسرعة. فمنهم من قُتل ومنهم من أُسر. ومنهم من فرّ. وكاد الأمر بين النصارى والمسلمين يخرج عن السيطرة. بسبب تطاول النصارى على أهل الإسلام في أثناء سيطرة التتار على دمشق. وتجاوز الأمر إلى حرق الديار والكنائس. وإلى قتل البعض منهم. ونشط بعض الغوغائيين. وقرروا أيضاً الفتك باليهود الذين يعيشون في دمشق. لولا أن قام العلماء ينصحون بعدم الظلم. لأن اليهود لم يشتركوا مع النصارى في إيذاء المسلمين أيام حكم التتار. وتوتر الجو في دمشق. وكادت الفتنة أن تعم في البلاد. وامتزجت في نفوس الناس مشاعر السرور والزهو بمشاعر الانتقام والتشفي. وتأزّم الموقف جداً.

وبينما هم كذلك. وفي اليوم الثلاثين من رمضان سنة ٦٥٨هـ. وصل الملك المظفر قطز إلى دمشق. بعد خمسة أيام من يوم عين جالوت. واستقبلهُ الناس استقبال الفاتحين. وعُلِّقت الزينات في الشوارع. وخَرج الرجال والنساء والأطفال يستقبلون البطل المظفر [٢٠].

ودَخل الجيش المملوكي المسلم دمشق. واستتب الأمن بسرعة عجيبة. ولم يحدث

شيء مما يقع عند دخول المستعمرين البلاد فتعم الفوضى، ويُترك الحبل على الغارب، وتنتهك الحُرمات أمام أعينهم، وتُنتهب المحلات والديار وهم يشاهدون، لم يحدث كل هذا، إنما استقر الوضع بسرعة، بل أمَّن النصارى واليهود على أرواحهم وأموالهم، وقام السلطان قطز بعزل ابن الزكي قاضي دمشق الذي عيَّنه التتار، وكان موالياً لهم، وعيّن مكانه نجم الدين أبا بكر بن صدر الدين بن سني الدولة، وبدأ يَفصل في القضايا، ويَحكم في المخالفات التي تمت بين المسلمين والنصارى، حتى لا يُظلم نصراني في بلاد المسلمين، هذا مع كل ما فعله النصارى بالمسلمين أثناء احتلال التتار للمدينة. وفي اليوم التالي لدخول قطز إلى دمشق كان عيد الفطر، وهو أعظم عيد مرّ على المسلمين منذ أربعين سنة، لم يكن عيداً للفطر فقط، بل كان أيضاً عيدًا للنصر والتمكين.

لم يُضيع قطز وقتاً، بل أرسل مقدمة جيشه بقيادة بيبرس تتبع الفارين من التتار، وتُطهّر المدن الشامية الأخرى من الحاميات التتارية، فوصلت القوات الإسلامية إلى حِمص، واقتحمت على التتار معسكراتهم ففروا مذعورين، وأطلق المسلمون الأسرى المسلمين الذين كانوا في قبضة التتار، وانطلقوا خلف الحاميات التتارية الهاربة، فقتلوا أكثرهم، وأسروا الباقين، ولم يُفلت منهم إلا الشريد، وهكذا حُررت حمص بسرعة، واتجهت القوات الإسلامية إلى حلب، ففر منها التتار مذعورين، وانطلقوا يجرون أذيال خيبتهم، وطَهّر المسلمون بلاد الشام بكاملها في غضون بضعة أسابيع [٢١].

ترتيب أمور الولايات الشامية

شرع السلطان سيف الدين قطز على ترتيب أحوال الشام بسرعة، حتى يتمكن من العودة إلى مصر، وأعلن توحيد مصر والشام من جديد في دولة واحدة تحت زعامته، فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام، وجَعل نائبه على دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي، ومعه الأمير أبو الهيجاء بن

عيسى بن خشتر الأزكشي الكردي [٢٢].

وأعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم، ملوكاً تابعين لسلطان مصر المملوكي، وبَعث إليه الأشرف موسى، حاكم حمص، والذي كان هولاكو قد عينه نائباً له في حكمها وفي بلاد الشام، يَطلب الأمان، فأمّنه على عرشه، كذلك بَعث بالملك المظفر علاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار، ليكون نائباً للسلطان في مدينة حلب، ووزع الإقطاعات في المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له، كذلك قام قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة في بلاد الشام، فأقر الملك المنصور على حماه وبارين، وأعاد له المعرّة التي كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥هـ، ومن ناحية أخرى، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، وعَيَّن الأمير شمس الدين آقوش البرلي العزيزي أميراً بالساحل وغزة، ومعه عدد من أمراء العزيزية، وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف، صاحب دمشق وحلب، وانضم إلى قوات السلطان قطز في القاهرة، ثم خرج في جيش السلطان وحَارب معه في عين جالوت، وأمر بشنق حسين الكردي الطبرادار، فشُنق من أجل أنه دل على الملك الناصر [٢٣].

وهكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذي كان مفقوداً منذ غزاها المغول، وفي اليوم السادس والعشرين من شوال سنة ٦٥٨هـ، توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الظافر صوب مصر [٢٤].

من نتائج موقعة عين جالوت

مع أن موقعة عين جالوت هذه كانت موقعة واحدة، وتمت في يوم واحد إلا أن آثارها كانت غاية في الكثرة والجودة، بالفعل كانت عين جالوت في غاية الأهمية، ففي هذه الموقعة تخلص المسلمون من الهزيمة النفسية البشعة التي كانوا يعانون منها، وخرجوا من حالة الإحباط الشديد التي كان تسيطر عليهم، وعلموا أن الأمل

في اللّه عز وجل لا ينقطع أبداً، وعادت الهيبة للأمة الإسلامية بعد غياب دام أكثر من ستين سنة، فبعد أن كانت الأمة الإسلامية في أواخر القرن السادس الهجري، في درجة عظيمة جداً من درجات النصر والفخر والسيادة، وذلك بعد انتصارَيْ موقعة حطين في المشرق، في فلسطين، وموقعة الأرك، سنة ٥٩١هـ، ١١٩٥م، في المغرب، في الأندلس، حيث قاد سلطان الموحِّدين الثالث، المنصور باللّه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي - (٥٨٠ - ٥٩٥هـ، ١١٨٤ - ١١٩٨م) جيشه سنة ٥٩١هـ، ١١٩٥م، وانتصر على الأسبان انتصارًا كبيرًا في موقعة الأرك، قرب بطليموس، ولم يَقل هذا الانتصار عن انتصار المرابطين من قبل في موقعة الزلاقة، بعد هَذَا المجد العسكري، حدث انكسار شديد في حالة الأمة الإسلامية، فضاعت هيبتها، واستهين بها، حتى كانت عين جالوت.

حتى إن هولاكو الذي كان يستقر في تبريز في فارس، بعد عين جالوت، ومعه عدد ضخم من القوات التتارية، لم يُفكر في إعادة احتلال بلاد الشام مرة ثانية، وأقصى ما استطاع فعله هو إرسال حملة انتقامية، أغارت على حلب، فسفكت دماء بعض أهلها كنوع من إثبات الوجود، لكن هيبة الأمة الإسلامية وقرت في صدره، فلم يَشأ أن يُلقي بجيشه في مهلكة جديدة، بعد ما تبين له من هيبة الأمة بعد عين جالوت، التي أمّنت المسلمين مائة وست وأربعين سنة كاملة [٢٥].

واكتفى هولاكو بأن قام بمراسلة الخان الاعظم في قراقورم، أخبره بما حل بالمغول في بلاد الشام من هزيمة على يد سلطان مصر، فما كان من الخان الأعظم إلا أن أصدر مرسوماً يَقضي بإعطاء هولاكو البلاد الواقعة بين نهر جيحون حتى بلاد الشام، قاصداً بذلك رفع معنويات هولاكو وجيوشه، وتشجيعه على معاودة حرب المماليك، وبدأ هولاكو يَستعد لحرب المسلمين، لكن الموت عاجله في سنة ٦٦٣هـ /١٢٦٥م، فتوفي دون أن يُحقق حلمه بضم مصر والشام إلى ممتلكاته [٢٦].

أيضاً تعتبر موقعة عين جالوت، وهذا المجد الذي صنعه المظفر قطز، شهادة

الميلاد الحقيقية لدولة المماليك، التي حملت راية الإسلام لمدة مائتين وسبعين سنة، فقد كان بداية حكم المماليك منذ سنة ٦٤٨ هـ عند ولاية شجرة الدرّ، ثم زوجها الملك المعز عزّ الدين أيبك المملوكي، لكن عين جالوت هي التي أعطت الشرعية أمام جميع المسلمين لدولة المماليك، وكان لهم من الانتصار ما تفخر به الأمم، فكان انتصارهم الأول في المنصورة وفارسكور على جيوش فرنسا، بقيادة الملك لويس التاسع، والثانى هو عين جالوت.

أيضاً كانت دولة المماليك أقوى دول المسلمين في فترة وجودها، وأكثرها جدية، وأعظمها هيبة، ولذلك يُطلق المؤرخون كثيرًا على العهد الذى عاش فيه المماليك "العهد المملوكي" متجاهلين بذلك كثيراً من الدول الصغيرة التى عاشت في تلك الفترة، ولعل أهم أسباب هذا الرسوخ الذي تحقق للمماليك في أذهان الناس عامة وخاصة، هي تلك الموقعة التي أوقفت تقدم هذا الوباء التتاري على بلاد الإسلام، ورَفعت سيفهم عن رقاب المسلمين [٢٧].

أيضاً بفضل موقعة عين جالوت، وهذا المجد الذي صنعه المظفر قطز، ارتفعت قيمة مدينة القاهرة المصرية ارتفاعًا بالغًا، بعد انتصار عين جالوت وقيام دولة المماليك، وخاصة بعد التدمير الذي لحق ببغداد سنة ٦٥٦ هـ على أيدي التتار، وبعد سقوط قرطبة سنة٦٣٦ هـ في أيدي الصليبيين الأسبان، أصبحت القاهرة قِبلة العلماء والأدباء، ونشطت الحركة العلمية جداً، وعظم دور الأزهر، وأصبح من أعظم جامعات العالم الإسلامي، وحَمل لواء الدفاع عن الدين، ونَشر الدعوة، والجهر بالحق عند السلاطين، والمطالبة بالحقوق، وتزعم الحركات الجهادية ضد أعداء الأمة.

أيضاً بفضل موقعة عين جالوت، وهذا المجد الذي صنعه المظفر قطز والمماليك، بدأ بعض التتار يؤمنون بدين الإسلام،حيث لفت انتباههم هذا النصر المبين، وتبين لهم أن دين الإسلام ليس دين خنوع وانكسار، كما أنه ليس دينَ تعدٍ ودموية، ثم شاء الله عز وجل أن يَدخل الإيمان في قلب أحد زعماء القبيلة الذهبية، أحد الفروع

الكبيرة جداً في قبائل التتار، وهذا الزعيم هو ابن عم هولاكو مباشرة، وهو أخو "باتو" القائد التتاري المشهور، وتلقب هذا الزعيم باسم "بركة"، وكان إسلامه في سنة ٦٥٠ هـ، ثم تولى "بركة" زعامة القبيلة الذهبية سنة ٦٥٢ هـ، وأصبح اسمه "بركة خان"، وكانت هذه القبيلة شبه مستقلة عن دولة التتار، وتَحْكم المنطقة التى تقع شمال بحر قزوين، والمعروفة في الكتب الإسلامية القديمة باسم "بلاد القبجاق" وهى تقع الآن في روسيا، وبإسلام هذا الزعيم دخلت أعداد كبيرة من قبيلته في الإسلام، وما زالت بقايا القبيلة الذهبية موجودة، ومكونة لبعض الإمارات الإسلامية مثل: إمارة قازان، وإمارة القرم، وامارة استراخان، وإمارة النوغاي، وإمارة خوارزم وغيرها. [٢٨]. وهذا قليل جداً من كثير جدا من نتائج موقعة عين جالوت الإيجابية.

مقتل سيف الدين قطز

كان لانتصار قطز في عين جالوت أجمل الوقع، على العالم الإسلامي، وخصوصاً مصر فقد استعدت لاستقباله، ودقت البشائر بالقلعة وأقيمت الزينات بالقاهرة وأخذت البلاد تنتظر قدوم المظفر سيف الدين قطز [٢٩].

وعندما وصل السلطان إلى بلدة القصير [٣٠]، بقي بها مع عدد من خواصه، على حين رَحل بقية الجيش إلى الصالحية، بإقليم الشرقية بمصر، وهناك أقيم الدهليز السلطاني(الخيمة السلطانية)، في هذا الوقت كانت العلاقة بين السلطان قطر وبين ركن الدين بيبرس قد توترت، وتجددت الخلاف القديم الخاصة بمقتل أقطاي، وأخذ كل واحد منهم حذره وحيطته، وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر، ولكن بيبرس البندقداري بما عُرف عنه من جسارة ودهاء بادر إلى العمل ضد السلطان [٣١].

فاتفق ركن الدين بيبرس مع الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير سيف الدين بهادر المعزي، والأمير بدر الدين بكتوت الجُكنداري المعزي، والأمير سيف الدين بيدغان الرُّكني، والأمير سيف الدين بلبان الهاروني، والأمير بدر الدين أنس الأصبهاني، على قتل السلطان المظفر قطز، فلما قرب السلطان من قرية القصير، بين الغرابي

والصالحية، انحرف عن الدرب للصيد. فلما قضى وطره، عاد قاصداً إلى الدهليز، فسايره الأمير ركن الدين بيبرس وأصحابه، وطلب منه إمرأة من سبي التتار، فأنعم له بها.

عندها أخذ ركن الدين بيبرس يد السلطان قطر بدعوى أنه سَيُقبلها، وكانت تلك إشارة بينه وبين من اتفق معه، فلما رأوه قد قَبض على يده، بادره الأمير بدر الدين بكتوت وضربه بالسيف على عاتقه، فأبانه، ثم اختطفه الأمير بدر الدين أنس والقاه عن فرسه، ثم رماه الأمير بهادر المعزي بسهم أتى على روحه، وقيل إن أول من ضربه الأمير ركن الدين بيبرس، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذي القعدة، ثم ساروا إلى الدهليز للمشورة بينهم على من يُملكوه ويُسلموا إليه قيادتهم، فوقع اتفاقهم على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري [٣٢].

عند ذلك تقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، المعروف بالأتابك، فبايع لبيبرس وحلف له، ثم بلبان الرشيدي ثم الأمراء على طبقاتهم، ولُقب ركن الدين بيبرس بالملك الظاهر، ثم في الساعة الراهنة قال الأمير فارس الدين أقطاي الأتابك له: لا يتم الملك إلا بدخولك إلى قلعة الجبل، فركب ركن الدين بيبرس والأمير فارس الدين، والأمير بدر الدين بيسري، وبلبان الرشيدي، وقلاوون الألفي، وبيليك الخازندار، وجماعة من خواصه، وقَصدوا القلعة، فلقي في طريقه الأمير عز الدين أيدمر الحلبي نائب السلطنة عند الملك المظفر، وكان خارج للقاء استاذه، فأعلموه بصورة الحال وحلّفوه فحلف، وتقدم بين يديهم إلى القلعة، فلم يزل على بابها ينتظره حتى وصل إليها فدخلها وتسلمها، وكانت القاهرة قد تزينت لقدوم الملك المظفر، والناس في فرح وسرور بعوده وكسره للتتار، فلما أسفر الصبح وطلع النهار إذا مناد يُنادي: معاشر الناس تَرحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس [٣٣].

أسباب مقتل قطز

ويعتبر السبب الرئيسي لمقتل قطز، أنه كان من أكبر مماليك السلطان عز الدين أيبك، وكان من أهم الذين شاركوا في قتل فارس الدين أقطاي، ومطاردة المماليك البحرية من خشداشية، كما أن البحرية عاشوا سنوات منفين في بلاد الشام، ولم يمر عليهم الوقت دون مشكلات وحروب وسجن ومطاردات، ساهم في بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر أو غير مباشر، وقد كانت رابطة الخشداشية التي تجمع المماليك، كانت رابطة قوية للغاية، ومن ثم فإن بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر لزميلهم أقطاي من ناحية، ولزملائهم الآخرين الذين قتلوا على يد قطز أو بسببه من ناحية أخرى، فضلاً عما نالهم من الهوان والمذلة في منفاهم من ناحية ثالثة [٣٤].

علاوة على أن جماعة من الأمراء من خشداشية كانت قد هربت من الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري يوم المصاف، فلما انتصر الإسلام، تنمر عليهم السلطان المظفر ووبخهم، وشتمهم، وتوعدهم، فأضمروا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم، ولم تزل الاحقاد والضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يترقب من صاحبه الفرصة .

واستمر العداء بين العزية والبحرية قائماً، حتى أغار المغول على مصر، فاضطر المماليك جميعاً إلى الإتحاد، وانحاز المماليك البحرية إلى قطز المعزي، لما تعذر عليهم المقام بالشام، وللتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا الولاء له [٣٥].

وعلاوة على ذلك، فإن بيبرس كان يظن أنه أحق بالعرش من قطز، لا سيما وأنه صاحب دور كبير في هزيمة الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات في المنصورة، كما أنه لعب دوراً كبيراً في هزيمة المغول في عين جالوت، كما أنه كان أول من ألحق بهم هزيمة عندما دمر طليعة الجيش المغولي، ثم

طارد فلوله المنسحبة حتى أعالي بلاد الشام. لقد كان بيبرس ابن عصره، وكانت تلك هي الأفكار السياسية السائدة آنذاك [٣٦].

ودلت تلك الأحداث على أن مقتل قطز كان نتيجة لعداء قديم، مستحكم بين المماليك البحرية الصالحية والمماليك المعزية. وانتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول، دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة في ذلك. بل إن أتابك العسكر سأل عن القاتل وحينما علم أنه بيبرس قال له: يا خوند إجلس أنت في مرتبة السلطنة: وكأن عرش الدولة مكافأة لمن تخلص من السلطان القتيل، وهكذا مرة أخرى ترسخ مبدأ: الحكم لمن غلب. وقد ظل هذا الخُلق، طوال مائتي وسبعين عاماً، هي عمر دولة سلاطين المماليك. وصار هناك إجماع من المماليك البحرية على زعامة ركن الدين بيبرس [٣٧].

ردة فعل المغول لمقتل قطز

لما بلغ المغول نبأ مقتل قطز بتلك الصورة، توقعوا حدوث انقسام داخل دولة المماليك، ووجدوا في ذلك فرصة سانحة لهم لمحاولة فرض سيطرتهم على بلاد الشام مرة أخرى. فتجمع المغول الذين كانوا بحران وغيرهما من مدن أقليم الجزيرة، وانضم إليهم من سلم من معركة عين جالوت، وساروا حتى قاربوا البيرة التي كانوا قبل ذلك قد هدموا أسوارها وابراج قلعتها، واضحت مكشوفة. فادرك الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ الذي كان والياً على حلب خطورة الموقف فيها، وارسل نجدة من عنده لمساعدة أهل البيرة في الدفاع عن مدينتهم، إلا أن هذه القوة الإسلامية لم تستطع الصمود أمام الجموع المغولية، وتراجعت إلى داخل المدينة حيث بعث قوادها إلى الملك السعيد يخبرونه بتفاقم خطر المغول، وانهم اتجهوا إلى منبج، ويبدو أن المغول ارادوا عدم اضاعة الوقت في الهجوم على المدن الصغيرة، وعقدوا العزم على مهاجمة مدينة حلب، فوصلوها في يوم الخميس السادس والعشرين من ذي الحجة سنة٦٥٨هـ/نوفمبر ١٢٦٠م، وبدأوا في مهاجمتها بقيادة

الأمير المغولي بايدر، الذي استطاع اقتحام المدينة وأخراج من بها من المسلمين إلى قرية قرنبيا شرقي حلب، وفيها حاول المسلمون توحيد صفوفهم مرة أخرى للوقوف في وجه المغول وايقاف زحفهم، إلا أن ذلك التجمع لم يُجد نفعاً أمام كثافة الجموع المغولية، واضطر المسلمون بقيادة حسام الدين الجوكندار الذي خلف الملك السعيد على حلب إلى التراجع إلى الخلف لاستدراج المغول إلى مكان أفضل لمنازلتهم، فتراجع إلى حماه التي فيها الملك المنصور صاحبها، وفيها رأى توسيع الرقعة على المغول بالتراجع إلى حمص متظاهراً بالضعف أمامهم بهدف إعطاء نفسه فرصة كافية لحشد أكبر عدد من الجيوش الإسلامية، فوصله بحمص الملك المنصور صاحب حماه ومعه أخوه الملك الأفضل علي، ومعها عساكر حماه، كما انضم إليه في الوقت نفسه الملك الأشرف صاحب حمص [٣٨].

وفي حمص أعاد حسام الدين الجوكندار، أمير حلب، أعاد تنظيم جيوش الإسلام مرة أخرى، وجهزها بالعدة والعتاد استعداد لمنازلة المغول، الذين وصلوا إلى حمص في المحرم من سنة ٦٥٩هـ/ديسمبر ١٢٦٠م، حيث دارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس عند قبر خالد بن الوليد، بالقرب من الرستن ابلى فيها المسلمون بلاء حسناً رغم قلة عددهم وكثرة عدد المغول، حتى كتب الله لهم النصر على عدوهم، وفر بايدر من المعركة فيمن سلم من جُنده، وتَبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، وسارع الملك المنصور عقب ذلك الانتصار بالاتجاه إلى سلمية، حيث انضموا إلى جموع مغولية كانت نازلةً بها، وحاولوا عبثاً مهاجمة حماة مرة ثانية، واقاموا عليها يوما واحداً، ثم رَحلوا عنهاإلى أفامية، التي كان قد سبقتهم إليها فرقة من جيش المسلمين أقامت بالقلعة، وقامت بتنظيم الهجمات على المغول داخل المدينة، مم اضطر العدو إلى ترك أفاميه والاتجاه إلى حلب، التي ظلوا يحاصرونها مدة من الزمن حتى تمكن الملك الظاهر بيبرس بعد تثبيت نفسه على عرش الدولة المملوكية في مصر والشام، من إرسال جيش كبير أوكل إليه مهمة طرد المغول من بلاد الشام، ولما سَمع المغول بِمقدم ذلك الجيش دَخَلَهم الهلع

والخوف. فولوا الأدبار هاربين باتجاه الشرق، وطهرت بلاد الشام مرة أخرى من نير الاحتلال المغولي [٣٩].

تم بحمد الله وتوفيقه. كتاب: السلطان قطز .. قاهر التتار

صباح الخميس الرابع عشر من ذي الحجة

سنة ١٤٣٢هـ الموافق ١٠ من نوفمبر سنة ٢٠١١م.

الصاوي محمد الصاوي

المصادر والمراجع:

تنويه:

هناك ملحوظتان هامتنا أحب أن ألفت إليهما نظر القارئ الكريم، قبل أن يَقرأ ما سأثبته هنا، من أسماء كتب، وأرقام أجزاء، وأرقام صفحات، استخدمتها كمصادر ومراجع أثناء إعدادي لهذا الكتاب، والملحوظتان هما :

١- أنني قد أضع اسم المصدر، أو المرجع فتنظر في الأصل، فلا تجد ما تقرأه عندي بالضبط مثل ما في المرجع المشار إليه، فأنا آخذ النص الأصلي، إما أضعه كما هو، أو أُعيد تدويره وإنتاجه، بما يتناسب وما يَسبقه، وما يَحلق عليه من كلام، خاصة إذا كان الأسلوب اللفظي لن يكون متسقاً، وخاصة إذا كان الأصل المنقول عنه من هؤلاء الذين يتَّبعون إسلوب السَّجع، أو لغتهم بعيدة عن تلك التي يدور بها الكلام هنا.

على كل حال فإنك ستجد النص الأصلي، إن رجعت إليه، إما بنفس اللفظ، أو باختلاف قليل، أو تجده مختلفاً في ترتيب فقراته، أو كلماته، ولعلك لا تجد منه شيئاً من لفظه، ولكنك ستجد روح النص بكل تأكيد، وهذا حقي، أن أُدَوِّر مادتي وأسبكها وأُعيد إنتاجها، بما يَتناسب وما أود قوله، وما أرى فيه المصلحة، من حيث توضيح المقصود، والتعبير عن وجهة نظري، مع المحافظة على الحقائق التاريخية، وعدم هضم حق أصحاب تلك الأصول التي رجعت إليها، سواء بالنقل المباشر، أو باقتباس الأفكار دون الألفاظ، وهو ما أشرت إليه، بأنك قد تجد المصدر، ولكن لا تجد النص الذي تقرأه هناك، ولكنك بالتأكيد ستجد شيئاً يُشْعرك أنني كنتُ هناك.

وإذا كانت تلك المصادر التي ستجد الإشارة إليها كثيرة خلال الكتاب، تمثل المادة الخام التي صنعت منها كتابي، فأنا أحفظ فيها حق مؤلفيها، بالإشارة إليهم في كل موضع، ثم لا أبخس نفسي حقها، من حيث إعادة إنتاجها بما يتناسب مع الموضوع، كماً وكيفاً.

٢- كل الكتب المستخدمة، والتي رجعت إليها وذكرتها كمصادر، أو كمراجع خلال هذا الكتاب، هي من المكتبة الشاملة، الموجودة على الشبكة الألكترونية، إلا ما أشير إليه وأنوه عن كونه نُسخة ورقية.

مصادر ومراجع كتاب السلطان قطز قاهر التتار

أصول المماليك ونشأتهم

[١] قصة التتار - (١/١٨٦).

[٢] تاريخ الطبري، عصر الدولة الأموية نقلاً عن بيت المقدس د. النقر صـ٤٧. ابن الأثير ٥: ١٤٨ وما قبلها. خزانة البغدادي ١: ٣٢٦. ابن خلدون ٣: ١٢٥ وما قبلها. تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي للدكتور النقر صـ٤٧.

[٣] قصة التتار - (١/١٨٦). تاريخ المغول والمماليك صـ٦١ ـ ٦٢. تاريخ بيت المقدس صـ٤٧.

[٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٨٧).

[٥] تاريخ المغول والمماليك صـ٦١. قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٨٧).

[٦] تاريخ بيت المقدس صـ٤٧.

[٧] قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام صـ١٢.

[٨] تاريخ المغول والمماليك مجموعة من المؤلفين صـ٦٢. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين. نقلاً عن تاريخ المغول والمماليك صـ٦٢. الفخري في الآداب السلطانية، لابن طباطبا صـ٢٢٠.

[٩] تاريخ المغول والمناليك صـ٦٢.

[١٠] المواعظ والاعتبار للمقريزي نقلاً عن تاريخ بيت المقدس صـ٨٤. تاريخ إيران بعد الإسلام. عباس إقبال صـ٩٧ ـ ١٦٧. تاريخ بيت المقدس صـ٤٨.

[١١] تاريخ بيت المقدس صـ٤٨.

[١٢] دولة آل سلجوق للأصفهاني صـ١١٣. تاريخ المغول والترك صـ٦٥.

[١٣] دولة آل سلجوق صـ٧٦. تاريخ المغول والترك صـ٦٦.

[١٤] تاريخ المغول والترك صـ٦٦.

[١٥] صبح الأعشى (٤/١٨). تاريخ المغول والترك صـ٦٦.

[١٦] أخبار الدولة السلجوقية صـ١٩٦، ١٩٧. تاريخ المغول صـ٦٦.

[١٧] تاريخ المغول والترك صـ٦٦. تاريخ بيت المقدس صـ٤٩.

[١٨] تاريخ ابن الوردي – (٢ / ٧٨). اتعاظ الحنفاء للمقريزي – (١/٣١٢). الكامل في التاريخ – (٥ / ١١٢).

[١٩] تاريخ بيت المقدس صـ٤٩.

[٢٠] كتاب الروضتين (١/١٦٦). تاريخ المغول والترك صـ٦٨. اتعاظ الحنفاء للمقريزي – (١/٣٠٣) البداية والنهاية لابن كثير – (١٢ / ٣١٧،٣١٨) .

[٢١] تاريخ المغول والترك صـ٦٩.

[٢٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (١/١٨٧). خطط المقريزي ٢: ٢٣٦. ابن إياس ١: ٨٣. السلوك للمقريزي ١: ٢٩٦ – ٢٤٢. تاريخ الإسحاقي ١٨٩. مرآة الزمان ٨: ٧٧٥.

أخبار الملك الصالح أيوب والمماليك

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (١/١٨٤). السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١٠٣).

[٢] السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١٠٣).

[٣] السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١٠٣).

[٤] السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١٠٣).

[٥] السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١٠٤).

[٦] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (١/١٨٥). السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١٠٣).

[٧] السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١٠٤).

[٨] الملك الصالح وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ١٠٩. السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١١١).

[٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت – (١/١٨٦).

[١٠] الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ١١٠. السلوك لمعرفة دول الملوك – (ج ١ / ص ١١١).

[١١] الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ١١٠.

[١٢] الملك الصالح أيوب وإنجازاته السياسية والعسكرية صـ٤٠.

[١٣] قصة التتار من البداية إلى عين جالوت صـ٢١٤.

[١٤] الحملات الصليبية للصلابي صـ٣٤٨، ٣٤٩.

[١٥] أباطيل يجب أن تمحى صـ٣٣٩، خطط المقريزي (٣ ـ ٣٤٦).

[١٦] أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ صـ٣٤٠.

[١٧] خطط المقريزي - (٢/٢١٣ ـ ٢١٤)، في التاريخ الأيوبي والمملوكي صـ٨٤.

[١٨] مصر في عهد بناة القاهرة صـ ١٦٩ وما بعدها إبراهيم شعوط.

[١٩] تاريخ الشعوب الإسلامية نقلاً عن أباطيل يجب أن تمحى صـ ٣٤١.

[٢٠] الخطط (٣/٣٤٨) دولة المماليك، سمير فراج صـ٣٢.

[٢١] دولة المماليك، سمير فراج صـ٣٢.

[٢٢] دولة المماليك، سمير فراج صـ٣٢.

[٢٣] أي زميل الخدمة.

[٢٤] دولة المماليك، سمير فراج صـ٣٢.

[٢٥] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٤٧، د. قاسم عبده.

[٢٦] خطط المقريزي - (٢ ـ ٢١٣)، السلطان المظفر صـ٤٧، ٥١.

[٢٧] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٥٢.

[٢٨] أباطيل يجب أن تصحح صـ٣٤١.

[٢٩] صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء صـ٣١.

[٣٠] صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء صـ٣١، العز بن عبد السلام صـ١٨٢ للزحيلي.

[٣١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٠)، السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٢).

[٣٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٠).

[٣٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٠).

[٣٤] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٢).

[٣٥] قصة التتار - (١/١٩٣). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٢).

[٣٦] الحملات الصليبية الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة صـ٣٥٣. قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٩٢).

[٣٧] تاريخ الأيوبيين صـ٨٥.

[٣٨] تاريخ الحروب الصليبية. محمود سعيد صـ٣١٢.

[٣٩] الحملات الصليبية الرابعة الخامسة. السادسة والسابعة صـ٣٥٦.

[٤٠] الشرق الأدنى في العصور الوسطى الأيوبيون صـ١٥٠. السلوك (١ ـ ٤٤٨). تاريخ الأيوبيين صـ٣٨٦.

[٤١] الحملات الصليبية للصلابي صـ٣٥٦. تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (ج ٤٧ / ص ٤٩).

[٤٢] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٤).

[٤٣] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٥).

[٤٤] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٥).

[٤٥] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٥).

[٤٦] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٥).

[٤٧] السلوك لمعرفة دول الملوك - (١ ـ ٤٤٩). تاريخ الأيوبيين صـ٣٨٧.

[٤٨] النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٦٤).

[٤٩] تاريخ الأيوبيين صـ ٣٨٨.

[٥٠] النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٦٤). تاريخ الايوبيين صـ ٣٨٨. السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٦).

. [٥١] نهاية الأرب في فنون الأدب (٣٥٦/٢٩). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٦).

[٥٢] تاريخ الإسلام للإمام الذهبي - (ج ٤٧ / ص ٥١).

[٥٣] السلوك لمعرفة دول الملوك - (١/٤٥٠) الحملات الصليبية للصَّلاَّبي صـ٣٥٨.

[٥٤] الجواري والغلمان في مصر نجوى كمال صـ٤٠٣.

[٥٥] نجوى كمال صـ٤٠٤. كنز الدرر (٣٧٦/٧).

[٥٦] الجواري والغلمان في مصر صـ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

[٥٧] مذكرات جوانفيل صـ١٥٧، ١٥٩ ـ ١٦١.

[٥٨] تاريخ الأيوبيين صـ٣٨٩. حملة لويس التاسع صـ٢٠٦. تاريخ الأيوبيين صـ٣٨٩.

[٥٩] تاريخ الحروب الصليبية، محمود سعيد صـ٣١٥.

[٦٠] الحروب الصليبية بين الشرق والغرب صـ٣٧١.

[٦١] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٧). نهاية الارب (٢٩ ـ ٣٦٠). الجواري والغلمان صـ ٤٠٩. كنز الدرر (٧ ـ ٣٨١ ـ ٣٨٢). السلوك نقلاً عن الجواري والغلمان صـ ٤١٠. في تاريخ الأيوبيين والمماليك، قاسم عبده صـ ١٤٨.

[٦٢] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٧). الجواري والغلمان في مصر صـ ٤٠٩.

[٦٣] نهاية الأرب (٢٩ ـ ٣٤٧). الجواري والغلمان صـ ٤١٠.

[٦٤] الجواري والغلمان صـ ٤١٠.

[٦٥] تاريخ الايوبيين صـ ٣٩٠.

[٦٦] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١١٨). الخطط (٢ ـ ٢٣٦). النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٦٤-٣٧١). الجواري والغلمان في مصر صـ ٤٠٨- ٤١٦.

[٦٧] بدائع الزهور نقلاً عن الجواري والغلمان صـ ٤١٦. قصة التتار - (١٩٨/١).

[٦٨] عجائب الآثار (١ ـ ٥١). للجبرتي الجواري صـ٤١٦. الدولة الأيوبية د. عكور صـ٢٦٦.

[٦٩] تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ١٤٨.

[٧٠] تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ٤١١. نهاية الارب (٢٩ ـ ٣٥٠).

[٧١] الكوس: من شعارات السلطنة والإمارة وهي صنوج من نحاس. نهاية الارب (٢٩ ـ ٣٥١). الجواري والغلمان صـ ٤١١.

[٧٢] الجواري والغلمان صـ ٤١١.

[٧٣] مرآة الزمان نقلاً الجواري والغلمان صـ ٤١٤.

[٧٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٩٩/١).

أسباب سقوط الدولة الأيوبية

[١] الدولة العثمانية للصلابي صـ٥٢٠. الدولة الأموية (٢ ـ ٥٦٨).

[٢] أبعيد التاريخ نفسه صـ١٣٤.

[٣] هكذا ظهر جيل صلاح الدين صـ ٣٢٢.

[٤] هكذا ظهر جيل صلاح الدين صـ٣٢٢. الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات صـ٣٩٥.

[٥] الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات صـ٣٩٥.

[٦] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد صـ ١٨٦. في التأصيل الإسلامي للتاريخ صـ٦٠.

[٧] الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم صـ١١٨. في تاريخ الأيوبيين والمماليك قاسم عبده صـ٨٢ ـ ٨٣. دور الفقهاء صـ١٧٤.

[٨] النجوم الزاهرة(٦/٣٢٢) الدولة الأيوبية دعكور صـ٢٣٣.

[٩] النجوم الزاهرة(١/٣٠٥). الدولة الأيوبية صـ٢٣٣.

[١٠] السلوك(١/٣٠٥) الدلوة الأيوبية صـ٢٣٣.

[١١] تاريخ الأيوبيين طقوش صـ٢١٠ـ ٢١١.

[١٢] السلوك - (١/١١٤). في تاريخ الأيوبيين والمماليك صـ٨٠.

[١٣] صلاح الدين الأيوبي للصَّلَّابي صـ٢٨١ ـ ٢٨٢.

مقدمات ظهور سيف الدين قطز

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠١).

[٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٢).

[٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٢).

[٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٣، ٢٢٩). بدائع الزهور (١ ـ ٢٨٧).

[٥] السلاطين في المشرق العربي صـ٩.

[٦] بداع الزهور (١ ـ ٨٩).

[٧] شجرة الدُّر قاهرة الملوك نور الدين خليل صـ٧٥.

[٨] موسوعة تاريخ مصر. لأحمد حسين - (٢ ـ ٦٧١).

[٩] شجرة الدرّ. د. يحي الشامي صـ٥٢.

[١٠] شجرة الدرّ. نور الدين خليل صـ٧٥.

[١١] شجرة الدر د. يحي شامي صـ٥٤.

[١٢] النجوم الزاهرة (٦ ـ ٣٧٤).

[١٣] بدائع الزهور (١ ـ ٢٨٦).

[١٤] موسوعة تاريخ مصر. لأحمد حسين - (٢ ـ ٦٧١).

[١٥] شجرة الدُّر د. يحي الشامي صـ٥٦.

[١٦] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٧٦.

[١٧] موسوعة تاريخ مصر لأحمد حسين - (٢ ـ ٦٧١).

[١٨] العدوان الصليبي على بلاد الشام د.جوزيف صـ ١٤٤: ١٤٥.

[١٩] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٤٥.

[٢٠] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٤٦.

[٢١] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٧٧.

[٢٢] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٧٧.

[٢٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٣).

[٢٤] قصة التتار صـ٢٣١.

[٢٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٤).

[٢٦] قيام دولة المماليك الأولى للعبادي صـ١٢٤.

[٢٧] قيام دولة المماليك الأولى للعبادي صـ١٢٤.

[٢٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٤).

[٢٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٦).

[٣٠] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٤٦.

[٣١] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٤٧.

[٣٢] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٤٨.

[٣٣] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٤٨.

[٣٤] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة صـ٣٩٦

[٣٥] مذكرات جوانفيل صـ٢٠٨، ٢٠٠.

[٣٦] السلوك (٤٦٦/١) تاريخ الأيوبيين صـ٣٩٨.

[٣٧] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام صـ٣٩٨. تاريخ الأيوبيين طقوش صـ٣٩٨.

[٣٨] تاريخ الأيوبيين طقوش صـ٣٩٨.

[٣٩] تاريخ الأيوبيين طقوش صـ٣٩٩.

[٤٠] تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام صـ٣٩٩.

[٤١] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (١ ـ ٤٠٠).

[٤٢] تاريخ الأيوبيين في مصر والشام صـ٤٠٠.

[٤٣] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ١٩٢.

[٤٤] العدوان الصليبي على بلاد الشام صـ٢٠٠.

[٤٥] معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج صـ٧٨.

[٤٦] قيام دولة المماليك الأولى صـ١٢٩.

[٤٧] صبح الأعشى نقلاً عن تاريخ القبائل العربية، محمود السيد صـ١٢٤.

[٤٨] صبح الأعشى نقلاً عن تاريخ القبائل العربية، محمود السيد صـ١٢٥٤.

[٤٩] تاريخ القبائل العربية، د. محمود السيد صـ ١٢٥، ١٢٦.

[٥٠] السلوك (١ ـ ٣٨٠)، النجوم الزاهرة (٧ ـ ٩)، قيام المماليك صـ ١٣٠.

[٥١] تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء صـ ١٨٠.

[٥٢] النجوم الزاهرة (٧ ـ ١٣).

[٥٣] القبائل العربية صـ ١٣١.[1] التعريف بالمصطلح الشريف صـ ١٨٨.

[٥٤] السلوك - (٣٨٧/١).

[٥٥] التعريف بالمصطلح الشريف صـ١٨٨. قيام دولة المماليك صـ١٣٢. قيام دولة المماليك صـ١٣٢. تاريخ القبائل العربية صـ١٣٣.

[٥٦] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٥).

[٥٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٧).

[٥٨] قيام دولة المماليك الأولى صـ١٣٢.

[٥٩] قيام دولة المماليك الأولى صـ١٣٣.

[٦٠] قيام دولة المماليك الأولى صـ١٣٣. [١] النجوم الزاهرة(٧/١١,١٠). [١] الجبهة الإسلامية في مواجهة المخططات الصليبية صـ٤١٢.

[٦١] سير أعلام النبلاء(٢٣/١٩٧).

[٦٢] قيام دولة المماليك الأولى صـ١٣٣. قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٨).

[٦٣] نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـ٢٢٠. دراسات في تاريخ مصر سحر عبد العزيز صـ٢٣٩.

[٦٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٨).

[٦٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٩). دراسات في تاريخ مصر سحر عبد العزيز صـ٢٣٩.

[٦٦] نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـ٢٢١. دراسات في تاريخ مصر سحر عبد العزيز صـ٢٣٩.

[٦٧] التحفة الملوكية في الدولة التركية. بيبرس المنصوري صـ٣٦٠.

[٦٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٠٩).

[٦٩] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٢). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان - (ج ١ / ص ٣٢).

[٧٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢١٠).

[٧١] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٢).

[٧٢] قصة التتار - (١/٢١٠). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٣). قيام دولة المماليك الأولى للعبادي صـ١٣٩.

[٧٣] شجرة الدُّر قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـ٨٥.

[٧٤] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٣).

[٧٥] شجرة الدُّر قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـ٨٦.

[٧٦] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢١١). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ /

ص ١٣٢). سير أعلام النبلاء (٢٣/١٩٩).

[٧٧] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٣).

[٧٨] شجرة الدُّر قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـ٨٦. سير أعلام النبلاء (٢٣/١٩٩).

[٧٩] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٣).

[٨٠] شذرات الذهب (٧/٤٦٤).

[٨١] شجرة الدر، قاهرة الملوك ومنقذة مصر صـ٨٧.

[٨٢] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٣).

[٨٣] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨٠

[٨٤] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٣). السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨١.

[٨٥] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٤). السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٩٢، ٩٤.

[٨٦] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٤).

[٨٦] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٤).

[٨٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢١١).

[٨٨] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨١. السلوك (١ ـ ٤٠٥).

[٨٩] النجوم الزاهرة (٧ ـ ٤٣).

[٩٠] السلوك لمعرفة دول الملوك - (١ ـ ٤١١). السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨٣.

[٩١] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٥).

[٩٢] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٦٩).

[٩٣] قصة التتار - (١/٢١٢).

[٩٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢١٣).

[٩٥] قصة التتار - (١/٢١٤).

[٩٦] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٦٩). قصة التتار - (١/٢١٥).

[٩٧] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ ٨٣، ٨٤. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة -

(ج ٢ / ص ٢٦٩).

[٩٨] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٦٩).

[٩٩] السلوك (١ ـ ٤١٧)، النجوم (٧ ـ ٥٥).

[١٠٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢١٥).

الإعداد لعين جالوت

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢١٦). السلوك (١ ـ ٤١١)، السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٨٣.

[٢] قصة التتار - (١/٢١٧).

[٣] جهاد المماليك صـ ١٠٥.

[٤] قصة التتار صـ ٢٤٥، ٢٤٦.

[٥] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٩٢، ٩٣، ٩٤. قصة التتار - (١/٢٢٠).

[٦] قصة التتار - (١/٢١٨). جهاد المماليك صـ٢٤٨.

[٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢١٨).

[٨] جهاد المماليك صـ٢٤٨.

[٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٢١).

[١٠] قصة التتار - (١/٢٢١).

[١١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٢٢).

[١٢] جهاد المماليك صـ١٠٦.

[١٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

[١٤] قصة التتار - (١/٢٢٤).

[١٥] جهاد المماليك صـ١٠٦.

[١٦] قصة التتار - (١/٢٢٥).

[١٧] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٩٢، ٩٣، ٩٤. قصة التتار - (١/٢٢٦).

[١٨] السلطان المظفر سيف الدين قطز صـ٩٢، ٩٣، ٩٤. قصة التتار - (١/٢٢٧).

[١٩] السلوك - (١ ـ ٤٣٠). جهاد المماليك صـ١٠٨.

[٢٠] جهاد المماليك صـ١٠٩.

[٢١] قصة التتار. د. راغب السرجاني - (١/٢٢٩).

[٢٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٥٠).

اجتياح التتار لبلاد الشام

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٤٧).

[٢] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٤٧).

[٣] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٤٨).

[٤] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٤٨).

[٥] العلاقات الدولية (٢ ـ ٥٠).

[٦] الاغلاق الخطيرة لابن رشد. نقلاً عن العلاقات الدولية (٢ ـ ٥١). العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٥١).

[٧] الاغلاق الخطيرة لابن رشد نقلاً عن العلاقات الدولية (٢ ـ ٥٢).

[٨] الاغلاق الخطيرة (٢ ـ ٥٢).

[٩] جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك صـ ٧٥. قصة التتار - (١/١٥١).

[١٠] جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك صـ ٧٥.

[١١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٥١).

[١٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٥١).

[١٣] جهاد المماليك صـ٧٦. قصة التتار صـ١٧٨.

[١٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٥٢).

[١٥] جهاد المماليك صـ٧٦. قصة التتار صـ١٧٨.

[١٦] جهاد المماليك صـ٧٦.

[١٧] قصة التتار. د. راغب السرجاني - (١/١٥٤). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٧).

[١٨] جهاد المماليك صـ٧٦. العلاقات الدولية (٢/٥٤). قصة التتار - (١/١٦٢).

[١٩] جامع التواريخ نقلاً عن جهاد المماليك صـ٧٧. قصة التتار - (١/١٦٣).

[٢٠] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٥). جهاد المماليك صـ٦٩.

[٢١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت. د. راغب السرجاني - (١/١٥٤). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٧).

[٢٢] قصة التتار للسرجاني - (١/١٥٥). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٧).

[٢٣] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٧). سيف الدين قطز صـ٨٦ قاسم عبده.

[٢٤] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٧).

[٢٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/ ١٥٦. ١٥٧).

[٢٦] جهاد المماليك صـ٧٠.

[٢٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٥٨).

[٢٨] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٥).

[٢٩] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٦).

[٣٠] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٧).

[٣١] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٥).

[٣٢] الاغلاق الخطيرة (٣ ـ ٥٦٦ ـ ٥٦٨). جهاد المماليك صـ ٨٤. السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٦).

[٣٣] جهاد المماليك صـ ٨٤.

[٣٤] جهاد المماليك صـ ٨٤.

[٣٦] قصة التتار - (١/١٥٩).

[٣٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/ ١٦١. ١٦٢).

[٣٨] المختصر في أخبار البشر (٣ ـ ٢٠١). جهاد المماليك صـ٨٩. النجوم الزاهرة (٣ ـ ٢٠١).

[٣٩] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٠). جهاد المماليك صـ٨٩.

[٤٠] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٠). جهاد المماليك صـ٩٠.

[٤١] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٠). جهاد المماليك صـ٩٠. قصة

التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٦٢/١).

[٤٢] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٩). جهاد المماليك صـ٩٠. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٠).

[٤٣] المختصر في أخبار البشر صـ٢٠١. جهاد المماليك صـ٩١.

[٤٤] المقريزي السلوك نقلاً عن جهاد المماليك صـ٩١.

[٤٥] قصة التتار - (١٦٦/١). جهاد المماليك - (ص: ٩٢).

[٤٦] الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة - (ج ١ / ص ٢٠).

[٤٧] جهاد المماليك صـ٩٢.

[٤٨] قصة التتار - (١٦٦/١). جهاد المماليك صـ٩٢.

[٤٩] تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ١٤١.

[٥٠] قصة التتار - (١/ ١٦٧، ١٦٨).

[٥١] المختصر (٣ ـ ٢٠١). جهاد المماليك صـ٩٧. قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٦٩/١).

[٥٢] أخبار البشر (٣ ـ ٢٠٢). جهاد المماليك - (ص: ٩٧- ٩٨).

[٥٣] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٠).

[٥٤] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٠).

[٥٥] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٠).

[٥٦] النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٠). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٧).

[٥٧] قصة التتار - (١٧٠/١). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٣٧).

[٥٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١٧٠/١). جهاد المماليك - (ص: ٩٥).

[٥٩] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤١). قصة التتار - (١٧٠/١). جهاد المماليك صـ٩٥.

[٦٠] جهاد المماليك - (ص: ٩٣- ٩٤).

[٦١] قصة التتار - (١٧١/١). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٠).

[٦٢] جمع التواريخ (٢ ـ ٣٠٧ ـ ٣٠٨). جهاد المماليك صـ٩٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧٠). السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٠).

[٦٣] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤١).[٦٣] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤١).

[٦٤] دول الإسلام للذهبي نقلاً عن جهاد المماليك صـ٩٧.

[٦٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٧٢).

[٦٦] قصة التتار - (١/١٧٥).

[٦٧] قصة التتار - (١/١٧٦). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧١).

[٦٨] قصة التتار - (١/١٧٧).

[٦٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/١٧٨، ١٧٩).

[٧٠] السلوك للمقريزي (١ ـ ٥١٢). جهاد المماليك صـ ٧٤. العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٧٤).

[٧١] العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية (٢ ـ ٧٤).

[٧٢] اخبار الأيوبيين ابن العميد صـ ٥١. العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٤).

[٧٣] العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٥). نقلاً عن تاريخ ابن خلدون. المختصر (٣ ـ ٢٠١). عقدة الجمان للعيني (١ ـ ٢٣٢).

[٧٤] البداية والنهاية (١٣ ـ ٢٣٣). العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٥).

[٧٥] العلاقات الدولية (٢ ـ ٧٦). شفاء القلوب صـ ٤٢٠.

[٧٦] جهاد المماليك صـ ١٠٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - (ج ٢ / ص ٢٧١).

أحداث ونتائج موقعة عين جالوت

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٣٠).

[٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٣١).

[٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٣٣).

[٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٣٤).

[٦] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٣٦).

[٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٣٦).

[٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٣٨).

[٩] قصة التتار - (١/٢٣٩).

[١٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٤٠).

قطز في مواجهة التتار

[١] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٢). أبطال ومواقف صـ٤٤١.

[٢] دراسات تاريخية عماد الدين خليل صـ٨٤.

[٣] سيف الدين قطز قاهر المغول. نور الدين خليل صـ١١٢. السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٢).

[٤] سيف الدين قطز قاهر المغول. نور الدين خليل صـ١١٤.

[٥] دراسات تاريخية صـ٨٥.

[٦] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٢). جهاد المماليك صـ١٢٠.

[٧] السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٢).

[٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٥١).

[٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٥٢).

[١٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٥٣).

[١١] قصة التتار - (١/٢٥٩).

[١٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٥٤).

[١٣] الروض الزاهر لابن عبد الظاهر صـ٦٤. جهاد المماليك صـ١١٦. تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ١٢.

[١٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٥٥). تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ١٢

[١٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٥٧).

[١٦] تاريخ الدولة المغولية في إيران صـ١٤٤. جهاد المماليك صـ١٢٠. السلوك لمعرفة دول الملوك - (ج ١ / ص ١٤٢).

[١٧] قضة التتار صـ٢٧٨.

[١٨] جهاد المماليك صـ١٢١. نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـ ٢٦٣.

[١٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/ ٢٦٧، ٢٦٨).

[٢٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٦٩). جهاد المماليك صـ ١٢١.

[٢١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧٠). جهاد المماليك صـ ١٢١.

[٢٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧١). جهاد المماليك صـ ١٢١.

[٢٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧٢). نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـ ٢٦٣.

[٢٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧٣). نزهة الأنام في تاريخ الإسلام صـ ٢٦٣. جهاد المماليك صـ ١٢٢.

[٢٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧٤).

[٢٦] قصة التتار - (١/٢٧٥، ٢٧٧).

[٢٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧٦، ٢٧٧).

[٢٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧٧).

موقعة عين جالوت

[١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧٨).

[٢] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٧٩).

[٣] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨٠).

[٤] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨١).

[٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨٢).

[٦] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨٣).

[٧] جهاد المماليك صـ ١٢٢. قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨٤).

[٨] جهاد المماليك صـ ١٢٢. قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨٥).

[٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨٦).

[١٠] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨٧).

[١١] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٨٨). دراسات تاريخية صـ ٨٧.

[١٢] دراسات تاريخية صـ ٨٧. جهاد المماليك صـ ١٢٢.

[١٣] قصة التتار. د. راغب السرجاني - (١/٢٨٩). دراسات تاريخية صـ ٨٧. جهاد المماليك صـ ١٢٢.

[١٤] قصة التتار. د. راغب السرجاني - (١/٢٨٩).

[١٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٩٠). جهاد المماليك صـ ١٢٣.

[١٦] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٩١).

[١٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٩٢، ٢٩٤). دراسات تاريخية صـ ٨٨.

[١٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٩٨). صبح الأعشى - (٧ ـ ٢٦٠ ـ ٢٦٢).

[١٩] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٢٩٩).

[٢٠] قصة التتار - (١/٣٠٠). السلوك لمعرفة دول الملوك - (١ ـ ٥١٨).

[٢١] قصة التتار حتى عين جالوت - (١/٣٠١). البداية والنهاية (١٧ ـ ٤٠٢).

[٢٢] السلوك لمعرفة دول الملوك - (١ ـ ٥١٨).

[٢٣] السلوك لمعرفة دول الملوك - (١ ـ ٥١٨). مملكة حماه الايوبية عدنان سعد الدين صـ ١٠٠.

[٢٤] السلطان المظفر سيف الدين قطز. قاسم عبده صـ ١٤١. قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٣٠٣).

[٢٥] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٣٠٢: ٣٠٦). جهاد المماليك صـ ١٣١. الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول د.فايد صـ١٢٢،١٢٣.

[٢٦] جهاد المماليك صـ ١٣٢. جامع التواريخ (٢ ـ ٣٣٦).

[٢٧] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٣٠٦: ٣٠٨).

[٢٨] قصة التتار من البداية حتى عين جالوت - (١/٣١١: ٣١٤).

[٢٩] مصر والشام في عصر الايوبيين. سعيد عاشور صـ ١٨٦.

[٣٠] بلدة القصير: هي قرية الجعافرة بمحافظة الشرقية.

[٣١] في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ٢٠٢.

[٣٢] نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـ ٢٦٧.

[٣٣] نزهة الانام في تاريخ الإسلام صـ ١٦٨.

[٣٤] في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ٢٠٦. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة (٩ ـ ٧٣). في تاريخ الايوبيين والمماليك. قاسم عبده قاسم صـ ٢٠٥.

[٣٥] كنز الدرر (٨ ـ ٦٠). في تاريخ الايوبيين والمماليك صـ ٢٠٤. عقدة الجمان. نقلا عن في التاريخ الايوبي والمملوكي للعبادي صـ ١٦٢. السلوك (١ ـ ٥٢١).

[٣٦] في تاريخ الايوبيين والمماليك. قاسم عبده صـ ٢٠٦. في التاريخ الايوبي والمملوكي صـ ١٦٣. السلوك (١ ـ ٥٢١).

[٣٧] في تاريخ الايوبيين والمماليك. قاسم عبده صـ ٢٠٦.

[٣٨] جهاد المماليك صـ١٢٩.

[٣٩] النجوم الزاهرة(٧/١٠٤ ـ١٠٦).

المحتويات

أعمال مطبوعة للمؤلف

في التاريخ :

١ - تاريخ الحاكم بأمر الله

٢- دولة المرابطين الإسلامية

٣ - دولة الموحدين بالشمال الأفريقي

٤ - الجزء الأول من الدولة الفاطمية

٥ - الجزء الثاني من الدولة الفاطمية

٦- دولة بني مرين

٧- دولة بني الأحمر

٨- الجزء الأول موسوعة تاريخ العالم الإسلامي.

٩- الجزء الثاني موسوعة تاريخ العالم الإسلامي.

١٠- الجزء الثالث موسوعة تاريخ العالم الإسلامي.

١١- موسوعة تراجم خلفاء وأمراء وسلاطين العالم الإسلامي

١٢- تاريخ وحضارة سلطنة عُمان

١٣- جنكيز خان .. فاتح العالم

١٤- هولاكو .. الأمير السفاح

١٥- قطز .. قاهر التتار

في الفقه الإسلامي .

١ - كتاب : الإيمان

٢ - كتاب : آفات اللسان

٣ - كتاب : النفاق والمنافقين

في الأدب :

١ – رواية : شيخ البلد

٢ – رواية : مغامرات مجند

أعمال تحت الطبع للمؤلف

١ – كتاب : فضائل الأعمال

٢ – رواية : النجار

٣ – رواية : ولاد مصر

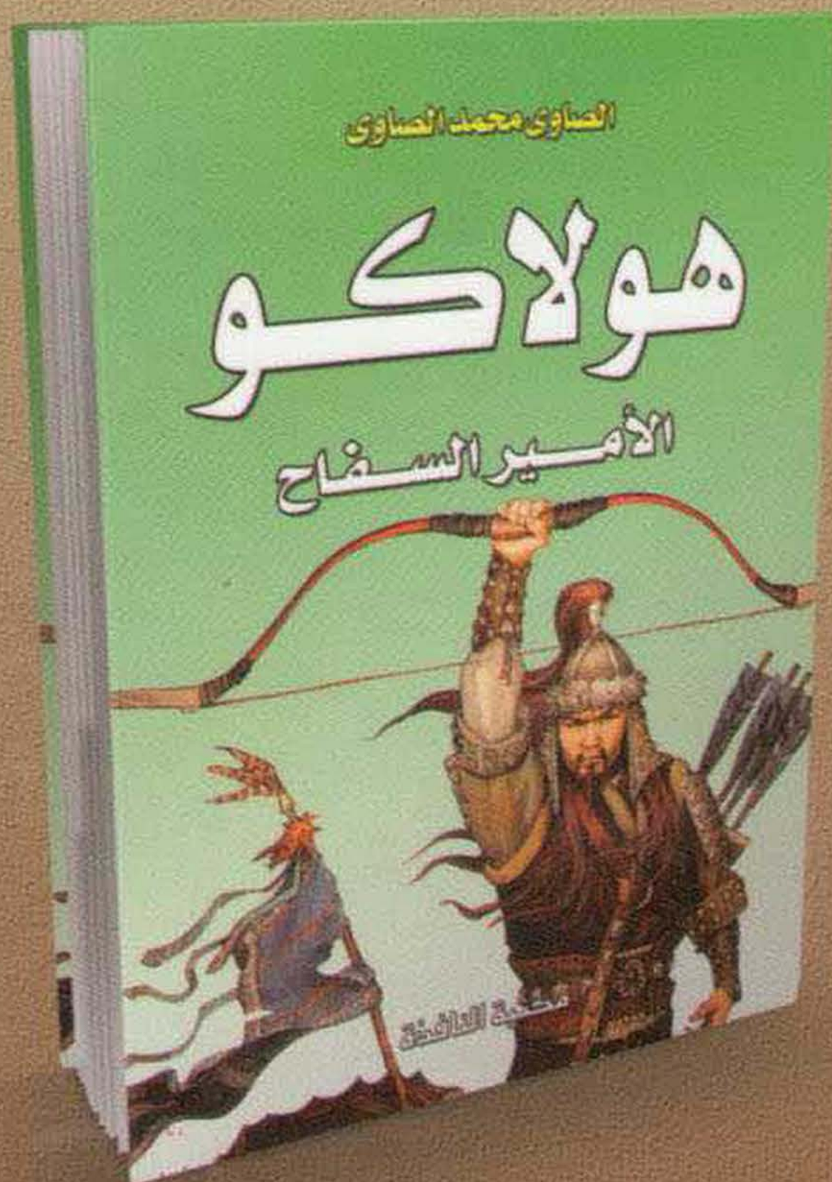
٤- السلطان قطز

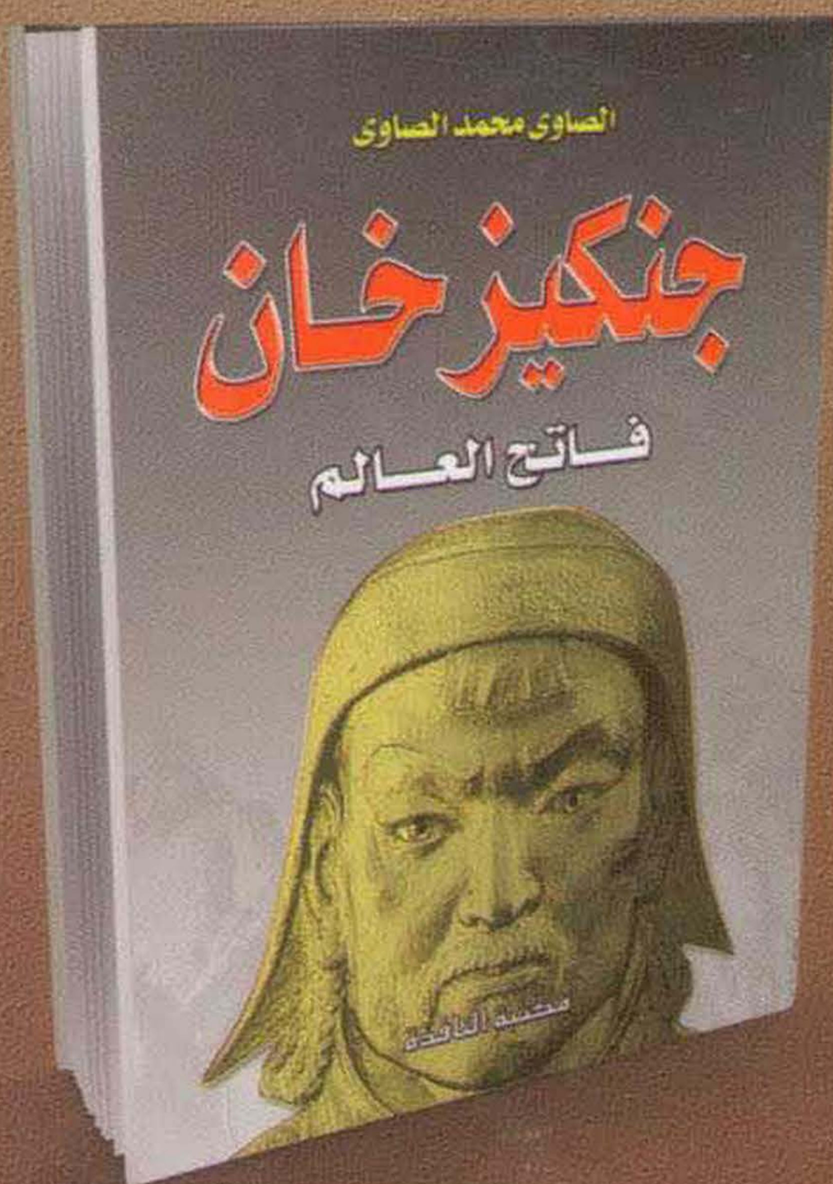
٥- الدولة العثمانية من النشأة حتى اليوم

٧- الدولة العباسية

مقالات ودراسات

للمؤلف العديد من المقالات والدراسات في أكثر من جريدة مصرية.





مكتبة النافذة

تم إعادة الرفع بواسطة

مكتبة عسكر

ask2pdf.blogspot.com